لشعراء النوابغ

عرض
تحليل
دراسة
نقد
خصائص

امرؤ القيس
اوس بن حجر
زهير بن أبي سلمى
النابغة الذبياني

حمد مطاع قباني

أحمد الكردي

الشعراء النوابغ

عرض . تحليل . دراسة . نقد . خصائص

- امرؤ القيس
- اوس بن حجر
- زهير بن أبي سلمى
- النابغة الذبياني

أحمد الكردي

أحمد مطاع قباني

المقدمة

يعتبر الشعر الجاهلي حجر الزاوية في دراسة الشعر العربي بجميع عصوره ، لا لشيء إلا لأنه يمثل الأساس المتين لبنيان الشعر العربي .

وعندما فكرنا باصدار كتاب عن الشعراء : امرىءالقيس وأوس بن حجر وزهير بن ابي سلمى والنابغة الذبياني ، كنا نعلم أن الطريق الذي سنسير فيه وعر المسالك ، تمتلىء جنباته بالصعوبات نظراً لعدم وجود المصادر الكفيلة باخراج هذا العمل وقد ارتدى حلة الكمال من جميع النواحي الشكلية والموضوعية ... بالاضافة لفقدان الدراسات والشروحات الكافية التي يمكن الرجوع اليها ...وبالأختصار كان علينا ان نحقق معجزة فيما لو صممنا على اخراج الفكرة الى حيز الوجود .

وصممنا على تجسيد مافكرنا فيه غير آبهين لصعوبات قلة المصادر ، وفقدان الشروحات الكافية ، وجفاف المادة التي اتخذناها محوراً

لدراستنا ، سيما وقد لمسنا ذلك الحرج الشديد والتعب العظيم الذي يلاقيه طلاب اللغة العربيـــة عند بحثهم في مادة الادب الجاهلي ، وكيف انهم يضيعون اكثر اوقاتهم في دراسة غير مضمونة النتائج باعتبارها غير مستندة الى معايير ثابتة وشروحات مستفيضة تضع النقاط على الحروف ولا تدع الباحث يتخبط حتى يبلغ الطريق الموصل الى بر السلامة .

ولقد وقع اختيارنا على هؤلاء الشعراء الأربعة لأنهم يمثلون أبرز النقاط في خط الشعر الجاهلي .

كما وأننا في دراستنا لهم آثرنا الابتعاد عن العرض التاريخي مفضلين التركيز على الشرح والتحليل والنقد بأساليب متعددة تتيح لكل باحث التجاوب مع الطريقة التي تتلاءم مع ما ألفه ودرج على اتباعه خلال دراساته السابقة لقصائد الشعر كافة .

ثمة رجاء نتقدم به من القارىء الكريم وهو ان يعمد عند عزمه على قراءة هذا الكتاب الى الاستعانة بدواوين الشعراء وخاصة عند استعراض اغراضهم التي نظموا فيها لأن في ذلك فائدتين: اولاهما قراءة كامل القصيدة التي اختير منها النموذج ، والثانية تذوق وتفهم وربط كافة جزئيات القصيدة بمحورها العام .

نسأل الله أن يسدد خطانا وخطى جميع العاملين لما فيه ازدهار أدبنا العربي وهو على كل شيء قدير .

احمد مطاع قباني　　　　احمد الكردي

الملامح العامة للشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي كنز من المتع الفكرية والروحية ترجم فيه اهله عواطفهم ووقائع حياتهم . وقد اهتم دارسو **الأدب** ونقاده فيما بعد بنفض الغبار عن نفائسه وصيانته ، ونحن قبل أن نعرض للشعراء الأربعة في هذا الكتاب يحلو لنا ان نقف بادىء ذي بدىء على الملامح العامة التي تميز الشعر الجاهلي عن أي شعر قيل في العصور التالية وذلك بايجاز تفرضه صفحات الكتاب وموضوعه .

آ - بواعثه :

تنوعت بواعث الشعر الجاهلي والدوافع التي حدت باصحابه الى قوله ، إلا انه يمكننا حصرها بما يلي :

١ - **المشاعر الذاتية** : كالحب والبغض والفخر الذاتي والشكوى

٢ - **العصبية القبلية** : كالفخر بالقبيلة ووصف أيامها ووقائعها

٣ - **مراعاة التقاليد الشعرية** : التي تفرض سلماً معيناً للقصيدة كالغزل والوقوف على الاطلال في مستهل القصائد .

٤ ـ **الدوافع الاخرى** : كالتكسب .

ب ـ القصيدة الجاهلية

والقصيدة الجاهلية تكاد تكون واحدة في هيكلها العام، وهي تتميز بما يلي :

١ ـ **انها متوسطة الطول** قريبة من القصر اذا قيست بالشعر اليوناني القديم .

٢ ـ **انها ذات صبغة غنائية**

٣ ـ **ان اغراضها الاساسية هي** :الغزل ، الوصف ، المديح ، الهجاء ، الحماسة والفخر ، الحكمة ، الاعتذار .

٤ ـ **انها تستهل عادة بالغزل أو بالوقوف على الاطلال او بهما معاً** ، ثم نجد وصف الناقة او الفرس وبعد ذلك يجيء الغرض الاصلي الذي انشئت من اجله القصيدة .

٥ ـ **عدم وحدتها** :

ـ لان القصيدة الواحدة تجمع عدة أغراض دون ترابط عاطفي او منطقي بينها .

ـ ولان الانتقال من غرض الى آخر في القصيدة الواحدة يتم بصعوبة بحيث يظهر انقطاع تام بين الاغراض .

ـ لان البيت الشعري مستقل استقلالاً تاماً عما يليه لولا شيء من الترابط .

- وأخيراً هناك عدم تسلسل الافكار والمعاني بشكل متتابع منطقياً وعاطفياً .

ج - البحر الشعري :

١ - صب الشعراء الجاهليون قصائدهم في انغام شعرية سميت فيما بعد بالبحور واشهرها : الرجز ، الطويل ، البسيط ، الكامل ، الوافر الخفيف ، اولاً ثم باقي البحور الشعرية ، مع ملاحظة هامة وهي ان الشعراء الجاهلين قد اقلوا من استخدام البحور المجزوءة

٢ - ويلاحظ في القصيدة الجاهلية :

- وحدة البحر الشعري من البدء حتى الختام .
- التقيد بحرف روي واحد في القصيدة الواحدة .

٣ هذا وقد اشترك الشعراء الجاهليون تقريباً بعيوب عروضية واحدة منها : الاقواء والاصراف .

د - التراكيب

امتازت تراكيب الشعر الجاهلي بـ :

- الجزالة والمتانة
الايجاز

كما امتازت :

- بالعفوية حيناً (كشعر الصعاليك) أو بالصقل والتهذيب حيناً آخر (كزهير ..)
- باستعمال تراكيب مستكرهة ك : أبيت اللعن ، لا أبالك .

هـ ـ الصور والخيال

يلحظ في الصور المستخدمة في الشعر الجاهلي :

١ ـ كثرة الصور الحسية المبسطة المستمدة من البيئة البدوية

٢ ـ كثرة استخدام الحيوان وصفاته في التشبيه والاستعارة .

٣ ـ كما ان الصور المعروضة حركية تقارب القصة .

٤ ـ وهي صادقة في رسمها الواقع مع نزوع للمبالغة المستحبة حيناً والمستكرهة حيناً آخر .

و ـ الالفاظ

١ ـ تتلاءم الالفاظ على العموم مع الغرض الاصلي للقصيدة فهي عنيفة في الهجاء رقيقة في الغزل .

٢ ـ ومن الشائع في الشعر الجاهلي : كثرة الغريب الناجم عن اختلاف مسميات ذلك العصر عن عصرنا ، او لاختلاف لهجات القبائل .

هذه كلمات قليلة في خصائص الشعر الجاهلي الذي حمل الينا قبل كل شيء عواطف اهله بصدق وامانة وعبر عن نفسية الشاعر الجاهلي باعتباره ممثلاً لقبيلته ومشاعرها اضافة الى تعبيره عن مشاعره الذاتية . ناهيك عن تعبيره عن الافكار السائدة في ذلك العصر : في الدين والاخلاق والعادات والسياسة بما كان له فائدة تاريخية كبرى .

امرؤ القيس

حياتُه

أسماؤه ونسبه :

هو امرؤالقيس بن حجر بن عامر بن الحرث بن عمرو المقصور ... من بني آكل المرار من كنده . وامه كما قال بعض الرواة فاطمة (أو تملك) بنت ربيعة بن الحارث أخت كليب والمهلهل ابنا وائل من نزار .

ويقال أن اسمه الصحيح : حندج ، وأن أمرأ القيس لقبه الذي غلب عليه .

ومن القابه : الملك الضليل ، وذو القروح ، والذائد .

ويكنى بأبي الحارث ، وبأبي وهب ، وبأبي يزيد .

حياته .

لا يذكر لنا الرواة تاريخ ولادته ، وان كان من الثابت أنه ولد ونشأ في نجد ، وأبوه حجر ملك كنده في أوج سلطانه ، فنعم بالرفاه

والجاه اللذين اتاحتهما له مكانة أهله من قبيلته ، وبدلاً من أن ينشأ نشأة قوة وزعامة ، انصرف الى اللهو انصرافاً عابه عليه قومه ، كما أخذ في قوّل الشعر ، وهو أمر لا يليق بالملوك حسب مفهوم ذلك العصر ، فنهاه أبوه عن اللهو والشعر ، وزجره ، ثم طرده ، فغادر قومه من ديار الى ديار يعيش على الصيد والقنص ، ويستمتع بالشراب واللهو ، وبينما هو في شأنه ذاك جاءه من يخبره ، وهو بدمون من أراضي الشام ، أن بني اسد خلعوا ثوب الطاعة على ملكهم أبيه وقتلوه ، فقال قوله المشهور :

«ضيعني أبي صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، اليوم خمر ، وغداً أمر لا صحو اليوم ولا خمر الغد» ثم ما لبث أن أخذ يجمع الجموع للأخذ بثأر أبيه ، وبلغ ذلك بنى أسد ، فأوفدوا اليه من يفاوضه ومعهم عبيد بن الابرص ، فأمهلهم امرؤ القيس حتى تضع الحوامل ، ثم تبدأ بعدها الحرب ، ومن ثم تحالف امرؤ القيس مع بني تغلب وبكر وهاجم أسداً ، فهربت هذه ، وتراجعت تغلب وبكر قائلتين ! لقد أصبت ثارك ، الا أن امرأ القيس لم يقنع بهذا الثأر التافه وأخذ يجمع الأنصار من جديد ، فنصرته قبائل اليمن من الأزد وحمير ، فسار بجيش منهم انضم اليه عدد من صعاليك العرب قاصداً بني أسد ، وفي طريقه اليهم استقسم الصنم (ذو الخلصة) ثلاثا فخيبه هذا الا انه اصر على طلب الثأر ، فلاحق بني أسد ، وأعمل فيهم القتل والنهب ، فهربوا ،

واستنجدوا بالمنذر ملك الحيرة ، فأغاثهم بجيش من أياد وبهراء وتنوخ ثم أرسل أنوشروان كسرى الفرس جيشاً آخر لمحاربته كان القصد الحقيقي منه التدخل في شبه الجزيرة العربية ، وعلى أثر ذلك تفرق أنصار امرىء القيس ، وأصبح هذا لوحده في الميدان ، تطلبه السيوف الظماء فأخذ في الالتجاء الى قبائل العرب ، فاستجار بالحرث بن شهاب من بني يربوع ، ثم بسعد بن الضباب الأيادي ؛ ثم بالمعلى بن تيم ثم بخالد بن سدوس من بني نبهان ؛ وغيرهم كثير ، حتى ألقى رحله عند عمرو بن جابر من فزارة فدله على السموءل ، ومن هناك اتصل بالحارث بن أبي شمر الغساني الذي وعده بالمساعدة في ايصاله الى قيصر ملك الروم ، ليتمكن من طلب النجده منه ومن ثم ودع امرؤ القيس أدرعه وابنته هنداً عند السموءل وانطلق الى الحارث الغساني ومنه اتجه الى القسطنطينية ومعه عمرو بن قميئة الضبعي الذي سمي فيما بعد بـ (عمرو الضائع) وهو الذي يقول فيه امرؤ القيس.

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وادرك انا لاحقان بقيصرا

رحب القيصر بامرىء القيس ، ووعده بالمساعدة والنصرة ، وربما تراءى له ذلك فرصة سانحة يغتنمها للتدخل في شبه الجزيرة العربية واخضاع قبائلها المتمردة الا ان القيصر لم يساعده ، وماطله ، واختلف الرواة في تعليل ذلك ، فقالوا : بسبب الطماح الاسدي (من بني اسد) الذي جاء القسطنطينية واوغر صدر القيصر على امرىء القيس.

وقالوا ايضاً بسبب تغــزل امرىء القيس بابنــة القيصر على كل فـان امـرأ القــيس يئس من مسـاعــدة الروم له ، فقفـل عائداً يحمل معه خيبة امل عظيمة ، ولما بلغ انقرة اصابه مرض جلدي قيل أنه الجدري ، كما قيل أنه بسبب حلة مسمومة أهداه إياها القيصر فلبسها ، فلم يلبث ان مات . ويذكر بعض الرواة ان وفاة امرىء القيس حزت في نفس القيصر فأمر له بتمثال رآه المأمون فيما بعد اثناء غزوه بلاد الروم .

العوامل التي اثرت في شخصيته الشعرية

١ - شرف نسبه

من الثابت ان امرأ القيس قد نشأ من أصل كريم فأبوه حجر ملك كنده وامه اخت كليب بن وائل والمهلهل (ملك تغلب واخوه الشاعر) وهذا النسب الذي ورثه أغناه عن التكسب بشعره وجعله يحب الفن للفن .

٢ - **تشرده** حين طرده أبوه ، اذ اضطر الى حياة الصيد والقنص وتفنن في وصف ذلك تفنناً بذ به معاصريه من شعراء العصر الجاهلي .

٣ - **محاولته الاخذ بثأر أبيه** وما ادى اليه ذلك من اضطراره للالتجاء الى قبائل العرب وهو يتصور الاعباء التي عليه أن يقوم بها تحقيقاً لآماله في الثأر .

٤ - **الاسفار** التي رافقت حياته وساهمت في توسيع أفق خياله وتفكيره كما زاد احتكاكه بالناس من تجربته .

وهكذا نرى ان حياته الاولى وهو شاب ينعم بالجاه والمال واللهو جعلت منه شاعر الغزل وشاعر وصف الصيد والطبيعة وان اسفاره ومحاولته الاخذ بالثأر جعلته يقول الشعر المتنوع الاغراض في الشكوى والاعتبار والهجاء والمدح والحكمة الا انه لم يبدع فيها ابداعه في الغزل والوصف .

مَنزلتُه

يعتبر امرؤ القيس في طليعة شعراء العصر الجاهلي لما في شعره من جدة ، وابتكار ، وايجاز ، وجزالة ، وجميع الذين عنوا بالشعر الجاهلي جعلوه في الطبقة الاولى بين شعراء عصره الا انهم اختلفوا في ترتيبه مع زهير والنابغة . ويروى عن الرسول (ص) انه قال « امرؤ القيس ، صاحب لواء الشعراء وقائدهم الى النار .

وقال علي بن ابي طـالب امـرؤ القيس أحسن الشعراء نادرة واسبقهم بادرة وانه لم يقل لرهبة او لرغبة .

وسأل الاصمعي بشاراً : من أشعر الناس ؟ فقال : اختلف الناس في ذلك فأجمع أهل البصرة على امرىء القيس وطرفة بن العبد ، واجمع أهل الكوفة على بشر بن أبي خازم ، وأجمع أهل الحجاز على النابـغة وزهـير .

وقال أبو عبيدة : أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم : امرؤ القيس وزهير والنابغة .

كما عده ابن سلام الجمحي ، الشاعر الاول في الطبقة الاولى قبل النابغة وزهير والاعشى .

أغراضُهُ الشعريّة

لامرىء القيس شعر متنوع الاغراض منثور في كتب الادب، وقد جمع وطبع وشرح مراراً، واهم شراحه ،البطليوسي النحوي المتوفي سنة ١١٠٠ م واشهر قصائده معلقته التي مطلعها :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل[١]

وهي اولى المعلقات ،وقيل أنه نظمها بسبب حبه لابنة عمه عنيزة في حادثة جرت له معها .

وسنتناول فيما يلي كل غرض من اغراضه الشعرية بالدرس والتحليل

(١) السقط : منقطع الرمل حيث يستدق من طرفه ، اللوى : رمل يعوج ويلتوي . الدخول ، فحومل : مكانات .

الغزل

الحديث عن غزل امرىء القيس حديث طويل ذلك أننا أمام شاعر تغزل بالكثيرات ، واشتهر بلهوه وبنسائياته ، وكان لهذا كله أثره الكبير في حياته ، فبسببه طرده أبوه . وحرمه الجاه والسلطان وهو في مطلع شبابه ، وبسببه أيضاً ، انقلب عليه قيصر الروم (في بعض الروايات) وما طله في مد يد النصرة اليه وقيل أهداه الحلة المسمومة التي قضى بسببها لتغزله بابنته .

وكأي شاعر جاهلي ، فان ما وصلنا من شعر امرىء القيس هو جزء بسيط من شعره الحقيقي الذي قاله ، وضاع أكثره ، ولكن يشكل الغزل فيه جزءاً ليس هيناً .

واذا رجعنا الى شعره الغزلي ندرسه وصلنا الى الملاحظات التالية التي تميزه عن اي شاعر تغزل في العصر الجاهلي :

أ ـ **كثرة اللاتي تغزل بهن** : فهناك **هر** ابنة سلامة بن علند العامرية التي وصف مجيئه اليها ليلا :

وفيمن أقام من الحي هر   أم الظاعنون بها في الشطر
وهر تصيد قلوب الرجال   وأفلت منها ابن عمرو حجر

وهناك **فاطمة وعنيزة** في المعلقة :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت لك الويلات إنك مرجلي
أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وان كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وهناك **فرتني** :

أغادي الصبوح عند هر وفرتنى   وليداً وهل أفنى شبابي غير هر"(١)
اذا ذقت فاها قلت طعم مدامة   معتقة مما تجيء به التجر(٢)

وسلمى أيضا في قصيدة طويلة مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي   وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وهناك اضافة لما ذكرنا كثيرات منهن : ابنة عفزر ، أم هاشم هند ، الرباب ؛ ماوية ، لميس ، أم جندب

ب ـ غزل امرىء القيس غزل قصصي : أي أنه لا يكتفي بوصف جسم المرأة كما فعل غيره من شعراء عصره ، بل يصف علاقته بها من مبتداها الى منتهاها ، حتى الحوار الذي دار بينهما ، وهو يبدأ قصته بالاعجاب بها ، وتصوير حبه الشديد، ثم يفتخر بشبابه وشجاعته وجماله ويصف تجاوزه المخاطر الى حبيبته حتى اذا جاءها نفرت في وجهه

---

١ ـ الشطر : الواحد شطير وهو الغريب ٢ ـ الخدر: الهودج ٣ ـ أزمعت صرمي : وطنت نفسك على فراقي ومقاطعتي

٤ ـ الصبو : شراب الصباح ـ هر وفرتنى : اسما امرأتين ٥ ـ التجر : التجار

متدللة ؛ أو مصطنعة النفور خوف الفضيحة فيطمئنها ، وهكذا وان قصيدته اللاميه :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

تشهد بما ذكرنا ؛ ففيها بعد أن يذكر همومه وتشوقـه لديار سلمى يأخذه زهو وغرور بشبابه وجماله فيفتخر قائلا :

ألا زعمت بسباسه اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي
كذبت لقد أصبي على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يزن بها الخالي
ويارب يوم قد لهوت وليلة بآنسة كأنهـا خط تمثـال

ثم يصف هذه الآنسة

يضيء الفراش وجهها لضجيعها كمصباح زيت في قناديل ذبال(١)
اذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليـه هونة غير مجبـال

حتى اذا صار الليل :

نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفـال(٢)

ارتفع اليها :

سموت اليها بعدما نام أهلها سمو حباب المـاء حالاً على حـال

فتدللت أو أظهرت الجزع خوف الفضيحة :

فقالت : سباك الله انك فاضحي ألست ترى السمار والناس أحوالي

فطمأنها وحلف أن الجميع قد ناموا بعد أن أصر على البقاء الذي قد

---

١ ـ ذبال : الفتائل ؛ ٢ ـ القفال : الراجعون من السفر

يكلفه أو يكلفها حياته وحياتها :

فقلت يمين الله أبرح قاعــداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي (٢)
حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من حديث ولا صالي

فاطمأنت ولانت ، ولكن الامور لم تكن بسيطة هكذا ، فالمرأة متزوجة ولا يلبث زوجها أن يصحو غاضباً ليهجم على امرىء القيس مدافعاً عن شرفه :

فاصبحت معشوقاً وأصبح بعلها عليه القتام سيء الظن والبال (١)
يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلني والمــرء ليس بقتال (٢)

هنا يعود امرؤ القيس الى افتخاره وتبجحه بنفسه ويقف هازئاً متهكماً من الزوج الاعزل من السلاح أمامــه وهو مسلــح بالسيف والنبال :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال (٣)
وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبــال
وقد علمت سلمى وان كان بعلها بأن الفتى يهــذي وليس بفعال

هذه الطريقة القصصية في الغزل جديدة كل الجدة على العصر الجاهلي ، هي فن غزلي قائم بذاته ، أوجده امرؤ القيس وكان له فيه قصب السبق . ثم لم يلبث هذا الفن أن استكمل خطوطه في صدر الاسلام على

١ - صالي : مصطلي النار ٢ - القتام : الغبرة ٣ - يغط : يشخر . البكر : الفتي من الجمال ٤ - المشرفي : السيف . المسنونه الزرق : النبال .

يد شاعر الغزل الاول فيه عمر بن أبي ربيعة ثم على يد الشاعر الاموي الفرزدق .

والقصة الغزلية عند امرىء القيس ، تكاد تكون واحدة لولا تغير بعض وقائعها في كل قصيدة عن الاخرى نتيجة لتغير ظروف كل منها :

ـ فهو يتجاوز البين المخاطر :

تجاوزت احراساً اليها ومعشراً ... علي حراصاً لو يسرون مقتلي

ـ واذا صار البين زجرنه بدلال وغُنج :

فقالت يمين الله مالك حيلة ... وما ان أرى عنك الغواية تنجلي

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات انك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل(١)

فقالت سباك الله انك فاضحي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي

ـ وهو في كل مرة يصر على مواصلته لهن متحدياً المخاطر

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ... ولا تبعديني عن جناك المعلل

ج ـ غزل امرىء القيس بعيد عن الحب الحقيقي : فلم يرو أن امرأ القيس أحب واحدة بعينها ، وأخلص لها وما يلاحظ من شعره أنه يريد امرأة ؛ أية امرأة وهذا هو التفسير الصحيح لتغزله بجملة نساء

١ ـ الغبيط : نوع من الهوادج

معاً في بيت شعري واحد كقوله :

نشيم بروق المزن أين مصابه ولا شيء يشفي منك يابنة عفزرا (١)
من القاصرات الطرف دب محول من الذر فوق الأتب منها لأثرا (٢)
له الويل ان أمسي ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنه يشكرا

أو كقوله :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبور في العسيب اليماني
ديار لهند والرباب وفرتني ليالينا بالنعف من بدلان (٣)

د ـ **غزل امرىء القيس غزل مادي متعهر** : فيه اباحية واستهتار بالقيم الاخلاقية :

فهو يصف جسمها ، واستمتاعه بها ... ولا يهمه من تكون متزوجة أم غير متزوجة ،حتى امرأة أبيه ـ وهي فاطمة التي ورد ذكرها في المعلقة على قول بعض الرواة ـ فقد تغزل بها وكان ذلك سبب ابعاده وطرده عن قبيلته

هـ ـ على الرغم من كل ما ذكرنا فغزل امرىء القيس من الوجهة الفنية الخالصة

غزل جميل فيه عذوبة وحلاوة ورقه ، وينبعث هذا :

١ ـ من حس سليم وتذوق **ممتاز لجرس الكلمات** فكلمات الغزل

---

١ ـ نشيم : تنظر . المزن ج مزنة : السحابة المطرة . أين مصابه : أي أين مصاب المطر

٢ ـ المحول : ابن سنة ،الذر : النمل الصغير ، الاتب : الثوب المخيط من الجانبين

٣ ـ النعف : المكان المرتفع ، بدلان : مكان باليمن

ناعمة مخملية تهدهد الحس وتعلق بالقلب .

٢ ـ من **حوار** يبلغ حداً عالياً في الجودة ، وحسبنا أن نستمع الى حواره مع فاطمه لندرك مبلغ هذا المنطق الغزلي العذب .

أفاطم مهلاً بعض هـذا التدلل وان كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلـب يفعل

أو قولها له :

فقالت يمين الله مالك حيـلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

٣ من **خيال خصيب** يظهر في تشابيه جميلة ومعان لطيفة مبتكره جديده **كقوله :**

كأن المـدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر (١)
تعـل به برد أنيابهـا اذا طرب الطائر المستحر (٢)
ألم تجداني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وان لم تطيب
سموت اليها بعـدما نام اهلها سمو حباب الماء حالاً على حال

ويعتبر امرؤ القيس أول من كنى عن المرأه ببيضة الخدر واكثر من وصف عطرها ووصف ثغرها بالخمر :

وبيضة خـدر لايرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
اذا ذقت فاها قلت طعم مدامة معتقة مما تجيء بـه التجر

وشبه جيدها بجيد الرئم ونظرتها وحش وجرة ، ووصف ماتلبسه النساء من مرط مرحل ودرع ومجول . الى غير ذلك من المعاني المبتكرة

١ ـ نشر القطر رائحة عود يتبخر به
٢ ـ تعل : تسقى بتتابع . طرب غنى : المستحر في وقت السحر

و ـ يهتم امرؤ القيس **بالنواحي الخلقية والحضارية للمرأة** فليست المرأة التي يواصلها ويصفها لنا امرأة عادية بدوية بل امرأة تمتاز :

ـ بالطهارة : وبيضة خدر لايرام خباؤها . . . .

ـ بالكسل والرفاه والدعه والتطيب

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

اذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وكلمة اخيرة في علاقة امرىء القيس بالنساء بعد أن ذكرنا ماذكرنا هي : أن امرأ القيس مدل بجماله مغرور بنفسه ، وهو يحب المرأه ويريدها ولكنه يتهمها بعدم الاخلاص وأنها تحب الرجل مادام شاباً ذا مال فاذا افتقر الى الشباب والمال مالت عنه الى غيره :

أراهن لايحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوساً

ويذكر اكثر الرواة أنه **كان مكروهاً** منهن غير مرغوب فيه لرائحته على الاغلب وماتفاخره بمواصلتهن على الطريقة التي ذكرنا الا تعبير عن شعوره بذلك .

ويعيب عليه النقاد تشبيه نفسه بالفأر في بيته الشعري :

وهر تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر

الوصف

ان أجمل ما في شعر امرىء القيس هو شعره الوصفي ، وشعره الغزلي ، وما سوى ذلك ليس بذي أهمية ، ففي هذين الفنين تظهر لنا شخصية امرىء القيس وتتضح وضوحاً كاملاً أو شبه كامل .

وموصوفات امرىء القيس هي المحسوسات التي عاش خلالها وأولع بها وكان لها أثر كبير في حياته ويمكن تصنيفها كما يلي :

- الوصف الغزلي لاجسام معشوقاته ، وهو في مرحلة من قصصه الغرامية
- مستلزمات الصيد والقنص وأهمها : الخيل والكلاب وقطعان الصيد
- مستلزمات الاسفار وخاصة الناقة .
- ما يتعرض له المسافر أو الصائد وهو في العراء من أحوال جويه كالمطر والرعد والبرق ومشاهد الطبيعة من خلال ذلك .

أ - الوصف الغزلي :

وصف امرؤ القيس أجسام معشوقاته وهو في صدد تغزله بهن من

ناحية ، وللتبجح أمام الأخريات من ناحية ثانية ، أي ليظهر أنه محبوب وأن المرأة التي واصلها ليست عادية من سواد القوم ، بل هي في مكانة من الجمال والرفاه والدعة لا يرقى اليها غيرها ، وتعطينا المعلقه مثلاً طيباً لذلك . فاذا جاوزنا أبيات الحوار بينه وبين عنيزه نراه يقول :

وبيضه خدر لايرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجل

فبعد أن يكني عن طهارتها بالشطر الأول مدلاً على تمنعها على الآخرين يتبجح أنه تمتع بها بلهو غير معجل . . . ثم يقول :

هصرت بفودي رأسها فتمايلت   علي هضيم الكشح ريا المخلخل (١)
مهفهفة بيضاء غير مفاضة   ترائبها مصقولة كالسجنجل (٢)
كبكر المقاناة البياض بصفرة   غذاها نمير الماء غير المحلل
تصد وتبدي عن اسيل وتتقي   بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش   اذا هي نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن اسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثكل (٣)
غدائرها مستشزرات الى العلا   تضل العقاص في مثنى ومرسل (٤)
وكشح لطيف كالجديل مخصر   وساق كأنبوب السقي المدلل

من هذه الأبيات : نلاحظ للوهلة الاولى أن امرأ القيس في وصفه المرأة لم يصف المرأة التي واصلها ، بل وصف امرأة غير معينة ،

---

١ - الهصر : الجذب . الفود : جانب الرأس . هضيم الكشح : ضامرة البطن ريا المخلخل : سمينه موضع الخلخال « ممتلئة الساقين ٢ - السجنجل : المرآة ٣ - الفرع : الشعر التام ٤ - الغدائر خصلات الشعر ، مستشزرات : مرتفعات الى الاعلى العقاص : خصلات الشعر

امرأه وصفها هو نفسه مرات، ووصفها غيره من شعراء عصره مرات، بنفس الأوصاف وان اختلفت كسوة المعاني وأثوابها . وقد وصف امرؤ القيس المرأة النموذجية التي يراها كل شعراء عصره، وسار في ذلك على الطريقة التقليدية في تقسيم جسم المرأة الى اعضاء، ثم وصف كل عضو منها على حده، وكغيره ايضاً لم يراع ترتيباً معيناً في الوصف حتى انه اعاد وصف الكشح مرتين في بدء ونهاية الابيات التي أوردناها .

وعلى الرغم من ان الموصوفات وطريقة الوصف تقليدية عامة في الشعر الجاهلي الا ان امرأ القيس نفخ فيها من فنه وطبع المعاني بطابعه وعبر الموصوفات بطريقته الخاصة التي تتجلى بـ :

— غزارة التشبيهات ولطف الكنايات خاصة بقوله :

تصد وتبدي عن اسيل وتتقي   بناظرة من وحش وجرة مطفل

— جدة التشبيهات والمعاني حتى أنه في أكثرها يعتبر هو مبتكره ومخترعها .

أما الألفاظ، فهي دون ألفاظ الغزل الأخرى، اذ نعثر على الكلمات ذات الجرس المستقبح الى جانب الجميل، وحسبنا ان نذكر كلمات : المتعثكل ـ المستشزرات ـ تضل العقاص ـ السجنجل .

وصف الحيوان

● وصف امرؤ القيس اكثر الحيوانات المعروفة في زمنه ومنها الكلب الذي خصه بألفاظ قليلة معبرة منها :

فيدركنا فغم داجن ... سميع بصير طلوب نكر[1]
ألص الضروس حني الضلوع ... تبوع طلوب نشيط أشر[2]
فانشب أظفارها في النسا ... فقلت هبلت ألا تنتصر[3]

● كما وصف **الناقة** وهي أنيسة أسفاره بالقوة والسرعة وصلابة المناسم يتطاير الحصى من خلفها وأمامها :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجرا[4]
بعيدة بين المنكبين كأنما ... ترى عند مجرى الضفر هراً مشجرا[5]
تطاير ظرّان الحصى بمناسم ... صلاب العجى ملثومها غير أمعرا[6]

● ولكن أروع أشعار وصف امرىء القيس تلك التي قالها في **الصيد** حيث تعدد الوصف مرات كثيرة وبمعان جديدة اكثر الأحيان واتخذ هذا الوصف **سبيل القصة الواقعية الحيّة** :

تبدأ قصة الصيد بالخروج له ، مع تحديد الزمان ، وهو دائماً ، الصباح الباكر أو آخر الليل والطيور في وكناتها

وقد اغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل[7]

---

١ ـ الفغم : المولع بالصيد أراد به الكلب . ٢ ـ الص الضروس : ملاصقتها . اشر : مرح ، ٣ ـ النسا : عرق في الفخذ ، ٤ ـ الجسرة : الناقــة القوية ، الذمول : السريعة ، هجرا صار هجيراً ٥ ـ الضفر : حزام الرجل ، المشجر : المربوط ٦ ـ الظران : الاحجار الحادة ، الامعر : الذي ذهب شعره

٧ ـ وكناتها : أعشاشها ، المنجرد : الماضي في السير ، الأوابد : الوحوش

● ثم يتابع **وصف جواده** فيصفه بالقوة والسرعة وأنه قيد الأوابد هيكل عظيم الجرم وأنه كثير الحيوية والنشاط كأنه جلمود صخر حطه السيل من عل .

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويستمر في وصف اكتناز لحمه وملاسة ظهره بحيث يزل الغلام الخف عن صهوته ويشبه نحافة خصره بالظبي وساقيه بساقي النعامة الى غير ذلك من الاوصاف الكثيرة المبتكره التي يمتدح بها جواده .

بعد ان يعرفنا امرؤ القيس بجواده يلوح من بعيد سرب من البقر الوحشي الذي ما ان يبدو حتى يطير الجواد بصاحبه الى مقدمة القطيع متجاوزاً النعجات الجواحر المتخلفة :

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل
فالحقنا بالهاديات ودونه جواحرها في صرة لم تزيل(١)

وسرعان ما طارد ثوراً ونعجة دون أن يبلله العرق من التعب
فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكاً التي ولم ينضح بماء فيغسل

ويقعد الجميع لتناول طعامهم من الصيد ، فنلاحظ رفاه امرىء القيس الأمير الذي يصور لنا نفسه أن من بعض من يصحبونه طهاة اللحم ، كما أن همه ليس التلذذ بالطعام ، وانما يستعجل شيئاً منه ثم يقعد يتأمل جواده من جديد .

---

١ - الهاديات : الأوائل المتقدمات ، الجواحر : المتخلفات ، الصره : الجماعة ،تزيل : تتفرق .

فظل طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معمل
فبات عليه سرجه ولجامه وبات بعيني قائماً غير مرسل

قصة الصيد هذه تتكرر في شعر امرىء القيس، أحياناً بألفاظها وأحيانا بمعانيها، وأحياناً بألفاظها ومعانيها معاً وهذه أبيات من قصيدة ثانية مطلعها

خليلي مرا بي على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب (١)

اذ يقول فيها :

وقد اغتدي والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب (٢)
بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوادي كل شأو مغرب (٣)
على الأين جياش كأن سراته على الضمر والتعداء سرحة مرقب (٤)
له أيطلا ظبي وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب (٥)

ويستمر في وصفه الجواد الى ان يظهر قطيع بقر الوحش فيقول :

فعادى عداء بين ثور ونعجة وبين شبوب كالقضيمة قرهب (٦)
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مخضب

هذا التكرار في وصف الصيد يظهر نقاطاً هامة يجدر ذكرها منها:

---

١ ـ لبانات ـ حاجات ٢ ـ ، مذنب ـ مدخل الماء الى الروضة ، ٣ ـ لاحه ـ أهزله ، الشأو الطلق ؛ ـ ، الأين ـ التعب ، سراته ـ ظهره ، سرحة مرقب ـ شجرة كبيرة للمراقبة ٥ ـ أيطلا مفردها ايطل الخاصرة ، عير حمار الوحش ٦ ـ الشبوب ـ الثور الفتي ، القرهب ـ الكبير الضخم ، القضيمة ـ الصحيفة البيضاء

١ ـ أهمية الصيد في حياة امرىء القيس الذي قضى فترة شبابه متصعلكاً يعيش على الصيد والقنص .

٢ ـ حبه للخيل التي يصفها في شعره بأوصاف هي أروع ما فيه بل ما في الشعر الجاهلي كله .

٣ ـ تكرار الموصوفات والأوصاف واعادة المعاني ولو بألفاظ جديدة تدل على ضيق افق امرىء القيس المحصور بأفكار معينة من ناحية ، وتدل على شاعريته وقدرته على اعادة المعنى الواحد مكرراً بأثواب متعدده دون أن يصيبها الوهن والضعف من ناحية ثانية .

٤ ـ في قصة الصيد يستخدم امرؤ القيس المشاهد التمثيلية الحيه باستطراد جميل مشكلا قصة قصيرة عابرة ، وعلى عكس النابغة الذبياني الذي يستطرد في قصته الثانوية استطراداً ينسى المرء الغرض الاصلي للقصيدة .

فقصة امرىء القيس صغيرة، يستشهد بها على ناحية معينة من قصته الاصلية، وهي موجزة ، معبرة مرتبطة بموضوعها ، من ذلك حين يصف عدو الجواد متجها الى قطيع الصيد بسرعة خاطفة ويتشتت القطيع يمنة ويسره اذ يشبه امرؤ القيس ذلك بتشبيه قصصي . كعقاب شديدة تنقض على الأرانب تأكل لحم كل ما تصطاده الا قلوب الطير التي تتركها تجف كأنها العناب والحشف البالي أمام وكرها .

فعادى عداء بين ثور ونعجة وكان عداء الوحش مني على بال

كأني بفتخاء الجناحين لقوة صيود من العقبان طأطأت شملالي (١)
تخطف خزان الشربة في الضحى وقد حجرت منها ثعالب أورال (٢)
كأن قلوب الطير رطباً ويابسة لدى وكرها العناب والحشف البالي (٣)

وصف الاطلال :

يعتبر الرواة امرأ القيس أول من وقف على الاطلال فبكى واستبكى في بيت شعري واحد ويعدون هذا البيت من اولياته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

والوقوف على الاطلال ووصفها استفتاح تقليدي سار عليه شعراء العصر الجاهلي جميعهم ولم يشذ امرؤ القيس عنهم فقد وصف الاطلال وكانت كلماته ومعانيه وأفكاره في ذلك قريبه جداً من غيره اذ يعدد الأماكن ، ويذكر عفاء الدار بعد ارتحال الاحبة عنها . ثم خلوها الا من بعض آثارهم .

غير انه ، وان كانت المادة الاولية الخام متداولة بين شعراء العصر الجاهلي ونعني بها المسميات والنؤى والأرآم والعين ومشاهد الارتحال الا ان لكل شاعر ثوبه الذي يلبسه معانيه ، وطابعه الذي يطبع به شعره ، ولعل قوة الخيال ولطف التشبيه ، هو مايميز وصف امرىء القيس للاطلال كقوله :

---

١ ـ فتخاء الجناحين : لينتهما وطويلتهما ، اللقوة : العقاب السريعة ، طأطأت شملالي : لكزت فرسي ٢ ـ خزان ، ج خزن : وهو ذكر الارانب ، الشربه موضع في نجد ، اورال : اسم جبل ٣ ـ الحشف : رديء التمر

ترى بعر الأرآم في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل.
كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل.

أو كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ ازمان.
أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط الزبور في مصاحف رهبان
ذكرت بها الحي الجميع فهيجت عقابيل سقم من ضمير وأشجان(١)»

الموصوفات الاخرى :

● ومما وصفه امرؤ القيس **عدة الحرب كالسيف والرمح في** مواضع محدودة .

كقوله :

واعددت للحرب وثابة جواد المحثة والمرود(٢).
ومطرداً كرشاء الجرور من خلب النخلة الاجرد(٣)»
وذا شطب غامضاً كلمه اذا صاب بالعظم لم ينأد(٤).
ومشدودة السك موضونة تضاءل في الطي كالمبرد(٥).

أو كقوله :

متوسداً غضباً مضاربه في متنه كمدبة النمل(٦).
يدعى صقيلاً وهو ليس له عهد بتمويه ولا صقل(٧)

---

١ ـ العقابيل : بقايا العلة ٢ ـ جواد المحثه والمرود : جواد في سرعته وفي التؤده.
٣ ـ المطرد ، الرمح، الرشاء، الحبل، الجرور ، البئر العميقه ، خلب النخله ، ليفها.
٤ـ ذا شطب ، سيف عليه نقوش ، كلمه ، جرحه لم ينأد لم ينثن ٥ ـ مشدودة السك الدرع ، موضوفة منسوجة ٦ ـ العضب ، القاطع ٧ ـ التمويه الطلي

ووصف **المطر والبرق والرعد** في مواضع متعددة وأغدق على الطبيعة كرم خياله بتشبيهات رائعة كقوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه   كلمع اليدين في حبي مكلل[1]
يضيء سناه أو مصابيح راهب   امال السليط بالذبال المفتل

حتى آخر المعلقة .

أو كقوله :

ديمة هطلاء فيها وطف   طبق الارض تحرى وتدر[2]
تخرج الود اذا ما أشجذت   وتواريه اذا ما تشتكر[3]
وترى الضب خفيفاً ماهراً   ثانياً برثنه ما ينعفر[4]
وترى الشجراء في ريقه   كرؤوس قطعت فيها الخمر
ساعة ثم انتحاها وابل   ساقط الاكناف واه منهمر[5]

وفي اكثر المرات التي يصف فيها المطر يشكل هذا سيلا يصيب بالاذى والخير معاً الارض والناس والحيوان وما ذلك الا تعبير عن حاجة الجزيرة العربية للماء ولو سبب الاذى :

فهذه صورة الخراب :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة   ولا أطماً الا مشيداً بجندل

---

١ – الحبي : السحاب المتراكم ٢ – الديمة : المطر ، الوطفاء : القريبة من الارض ، تحرى : تقصد حراهم ، تدر : تعتمد المكان وتثبت فيه ٣ – الود : الوتد اشجذت : كفت ، تشتكر : تحتفل ٤ – برثنه : أصبعه ٥ – الاكناف : الجوانب .

تليها فرحة الطبيعة :

كأن مكاكي الجواء غدية   صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

ووصف امرؤ القيس **الليل** في معلقته ، وجعله كموج البحر في شدته ، ثم ذكر كيف انتابته همومه فطال ليله ، وعبر عن ذلك بمجموعة من الاستعارات الجميلة .

وليل كموج البحر ارخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف اعجازاً وناء بكلكل

الابيات ...

مميزات الوصف

من كل ما سبق نستطيع أن نقول أن امرأ القيس شاعر وصف أولا ، وأن أجمل أشعار وصفه تلك التي قالها في الصيد والقنص والطبيعة ويمتاز وصفه بما يلي :

١ ـ **بالواقعية** ونعني أن ما وصفه هو ما رآه ولمسه بنفسه وأن الأوصاف التي يلبسها الموصوف هي التي عاناها وجربها وعاشها .

٢ ـ **بالحركة والحياة**: اذ تشكل عناصر الحركة والانفعال جزءاً هاماً منها حتى في وصفه الاطلال لا يلبث أن يحرك المعالم الدارسة وهو يصور ظعن الحي يوم تحملوا

٣ ـ **بقوة الخيال** : فامرؤ القيس ذو خيال خصب مبدع اذ قلما ترد المعاني مجردة بسيطة ،بل يعرض علينا مشاهد موصوفاته باثواب

مزركشه خلابة ملونة ومتعددة وتتجلى **قوة خياله** ب :

– كثرة الصور المعروضة وغزارة التشبيهات والاستعارات خاصة

– التآلف بين عناصر الصورة كالتوافق بين المشبه والمشبه به

– جدة الصور وابتكارها

– استمدادها من البيئة البدوية بشكل عام **دون** البيئة الحضرية التي عاشها في بلاد الشام وبــلاد الروم ، حتى في شعــره الذي قاله فيهما .

– الاكثار من التشبيه واستخدام أدواته : ك ، كأن ، مثل

٤ – **وتمتاز معاني امرىء القيس** اضافة لما ذكر بـ :

– لطف المبالغة فهو حين يبالغ لايصل الى حد الاستكراه

– استخدام الكنايات الجميلة المعبرة

٥ – ويعمد امرؤ القيس الى **ايضاح الموصوف وتلوين جوانبه** واظهاره بين المعالم متبعاً في ذلك :

– الالحاح على الموصوف الواحد بمجموعة صفات متلاحقة كقوله في وصف الكلب :

فيدركنا فغم ، داجن سميع ، بصير ، طلوب ، نكر

– الاكتفاء بالصفة بدلا عن الموصوف كقوله :

واركب في الروع خيفانه ....

٦ – يعتبر **امرؤ القيس الاول في كثير من الصور** فهـو الذي

استحدثها وعنه أخذها من جاء بعده، من هذه الصور :

- صراع الكلب مع الثور الوحشي .
- وصف الجواد بأنه منجرد ، قيد الأوابد ، هيكل ..
- تشبيه الفرس بالعقاب والناقة بالثور الوحشي أو الظليم

٧ - **في وصف امرىء القيس تكرار** : يدلنا على شاعريته حين يسوق المعنى الواحد بأثواب متعددة ، ويعاب عليه حين يكرر هذه المعاني بنفس الالفاظ والعبارات . الأمر الذي جعل بعض النقاد ينظرون اليه على أنه ضيق الأفق محدود التفكير .

٨ - عاب بعض النقاد على امرىء القيس ضعف العاطفة في الوصف أو على الاصح أن العاطفة لا تظهر بالشكل الذي ينبغي لها . الا أن هذا الضعف يغطيه الخيال وجمال الصور المعروضة .

٩ - قال بعضهم ان معاني امرىء القيس في الوصف ليست كلها جديدة بل منها ما سبقه اليها غيره وتفوق عليه فيها، ويستشهدون على ذلك بالقصة التي تروي التنافس في وصف الفرس بين امرىء القيس وعلقمه الفحل أمام زوجة امرىء القيس أم جندب وقد حكمت هذه لعلقمه على زوجها مما كان سبباً في تركه اياها .

المديح

لم يتكسب امرؤ القيس بشعره ، ولم يتخذه وسيلة للوصول الى الغراضة في جمع الانصار ولعل ذلك راجع لنفسيته ، وشخصيته ، وبالاخص كرامته الذاتية التي تمنعه من التزلف والمداهنة وترضي الناس .

وما وصل الينا من شعر امرىء القيس في المدح قليل فقد مدح عوير بن سبحة من بني عوف الذي حمى ابنته هندا في غيابه بعد ان قتل حجر وعمت الفتنة واصبحت الابنة في خطر وذلك بابيات منها :

ان بني عوف ابتنوا حسباً ضيعه الدخللون اذ غدروا[1]
أدوا الى جارهم خفارته ولم يضع بالمغيب من نصروا
لكن عوير وفى بذمته لاعور شانه ولا قصر

كما مدح عويرا ثانية بأبيات منها :

ثياب بني عوف طهارى نقية واوجههم عند المشاهد غران
هموأبلغوا حي المضلل أهلهم وساروا بهم بين العراق ونجران
فقد اصبحوا والله أصفاهم به أبر بميثاق واوفى بجيران

١ - الدخللو نجمع دخلل الذي يداخلك في امورك .

ومدح المعلى من بني تيم لانه اجاره .

كأني اذ نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام[1]

فما ملك العراق على المعلّى بمقتدر ولا الملك الشآمي

ومدح أيضاً سعد بن الضباب الذي نزل به واجاره بأبيات منها :

سأشكرك الذي دافعت عني وما يجزيك مني غير شكري

فما جار بأوثق منـــك جاراً ونصرك للفريد أعز نصر

مما نلاحظ ان المدح قد اتخذ صفة الشكر على معروف اسدي اليه وهذا المعروف يتمثل في حماية عائلته او اجارته نفسه من اعدائه .

والعبارات هنا بسيطة مجردة من الخيال محدودة الجمال اقرب للضعف منها للقوة .

---

٢ - البواذخ : ج باذخ الجبل العالي ، شمام : اسم جبل لباهلة

الرثاء

لم يردنا عن امرىء القيس قصائد في الرثاء يمكن اعتمادها في دراسة هذا الفن لديه ، ونحن لا نجد تفسيراً مقبولاً لذلك . فقد توفي والده الملك حجر قتيلًا وتلقى نبأه فرثاه بأبيات فيها ضعف وركاكة ظاهرين :

أرقت لبرق بليل أهل ... يضيء سناه بأعلى الجبل
أتاني حديث فكذبته ... بأمر تزعزع عنه القلل
بقتل بني اسد ربهم ... ألا كل شيء سواه جلل
فأين ربيعة عن ربها ... وأين تميم واين الخول
ألا يحضرون لدى بابه ... كما يحضرون اذا ما استهل

أو يقول حين يحضره نعي والده :

أتاني واصحابي على رأس صيلع ... حديث أطار النوم عني فأنعما (١)
فقلت لعجلي بعيد مآبه ... أبن لي وبيّن لي الحديث المجمجما (٢)
فقال أبيت اللعن عمرو بن كاهل ... أباح حمى حجر فأصبح مسلما

١ ـ صيلع : مكان ٢ ـ المجمجم : المبهم الغامض .

كما نعثر على أبيات متفرقة في الرثاء ليس فيها غنى منهـــا رثاؤه لاعمامه الذين قتلهم المنذر :

ألا ياعين بكـّي لي شنيناً   وبكـّي لي الملوك الذاهبينا (١)
ملوكا من بني حجر بن عمرو   يساقون العشية يقتـــلونا

وهذه الابيات جميعها ان صحت نسبتها لامرىء القيس - لا تعبر عن العاطفة الصادقة الصحيحة . وهي ضعيفة المبنى مضطربه القافية ، خالية من الصور الجميلة بسيطة العبارة .

من هنا ايضاً ندرك لم يعاب على امرىء القيس جمود عاطفته وعدم رثائه اعز الناس اليه كابيه واعمامه وأهله .

---

١ - الشنين : قطران الماء .

الفخر

ليست لامرىء القيس قصائد خاصة في الفخر ، ولكنا نعثر على أبيات متفرقة في ذلك خلال قصائده في الاغراض الاخرى ..

وقد افتخر امرؤ القيس بالكثير من الصفات منها :

افتخر بشبابه وجماله وانه يصبي المرضع فيلهيها عن ابنها

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول[١]

وانه يصبي العروس ويحمي عرضه فلا يقربه غيره :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وان لا يحسن اللهو امثالي

كذبت لقد أصبي على المرء عرسه وامنع عرسي ان يزن بها الخالي

وافتخر امام معشوقاته بشجاعته :

ايقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة ، زرق كانياب اغوال[٢]

ايقتلني اني شغفت فؤادها كما شغف المهنوءة الرجل الطالي[٣]

---

١ ـ التميمة : العوذة ، محول : اتم السنة ٢ ـ مسنونه زرق : نبال ،

٣ ـ المهنوءة : اراد الناقة المطلية بالقطران

ويفتخر على اعدائه بأبيه وجده ونسبه وهو في معرض تهديدهم.

والله لا يذهب شيخي باطلا   حتى أبير مالكا وكاهلا
القاتلين الملك الحلاحلا   خير معد حسباً ونائلا
وخيرهم قد علموا فواضلا   نحن جلبنا القرح القوافلا .. الخ

كما يفتخر وهو في معرض هجائه سبيع بن عوف بمجموعة من الصفات :

أبلغ سبيعاً ان عرضت رسالة   اني كهمك ان عشوت احامي (١)
وانا المنبه بعد ما قد نوّموا   وأنا المعالي صفحة النوّام (٢)
وانا الذي عرفت معد فضله   ونشدت عن حجر بن ام قطام
وانازل البطل الكريه نزاله   واذا أناضل لا تطيش سهامي
خالي ابن كبشة قد علمت مكانه   وأبو يزيد ورهطه أعمامي

كما يفتخر بكرامته .

واذا أذيت ببلدة ودّعتها   ولا أقيم بغير دار مقام

وحين تغرقه أمواج همومه ، وهو بعيد عن أهله ، أمامه مطمح الاخذ بالثأر ، وفي قلبه حنين للاهل ، يرضي نفسه المتفجعة ، بالفخر بنفسه وباخلاقه وبأهله وبغزواته ، فبعد أن يصف ناقته يقول :

عليها فتى لم تحمل الارض مثله   ابرّ بميثاق واوفى واصبرا

---

١ - عشوت : نظرت   ٢ - صفحة النوام : وجوههم .

هو المنزل الآلاف من جو ناعط بني أسد حزناً من الارض اوعرا [1]

ثم يقول متذكراً ماضيه :

وكنا أناساً قبل غزوة قرمل ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا [2]

وماجبنت خيلي ولكن تذكرت مرابطها في بربعيص وميسرا [3]

كما يتذكر ايام لهوه وشبابه :

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا نقاداً وحتى نحسب الجون اشقرا [4]

نلاحظ مما سبق وذكرنا

١ ـ أن امرأ القيس افتخر بصفاته الحقيقية ، وهو لم يتبجح كذبا

٢ ـ وان الصفات التي افتخر فيها : تشمل قدرته على مواصلة النساء ونسبه وشرف قبيلته واخلاقه الذاتية وخاصة الصبر والشجاعة والاباء والوفاء بالعهد وشربه الخمر .

كما ان هناك صفات لم يفتخر بها الا لماماً ، منها الجود على الرغم من أنه جواد ، وبقدرته الشعرية على الرغم من مكانته وتفوقه الشعري بالنسبة لاقرانه ومعاصريه .

٣ ـ اما العبارات فيلاحظ فيها البساطة ، والعفويه مع شبه خلوها من الصور البيانية وبعدها عن التنميق والتزويق لكنها قوية العاطفة شديدة التعبير عن نفسية الشاعر .

---

١ ـ ناعط : حصن بأرض همذان ، جو : ارض اليمامة ٢ ـ قرمل : من ملوك اليمن ٣ ـ بربعيص وميسر : مكانان ٤ ـ النقاد : اولاد الغنم ، الجون : الاشقر .

حياة امرىء القيس متوعه بالاحداث الجسام ، وبتقلبات الأيام ، فنحن نعلم أن امرأ القيس نشأ في بيت عريق بالمجد ، فهو من سلالة ملوك كنده وأمه اخت كليب والمهابل ، وبذا فقد أمضى الفترة الأولى من حياته في حضن الرفاه والدعة والترف الذي لم يطل به ، اذ سرعان ما وجدناه ، مع تفتح شبابه ، وشاعريته ، طريداً شريداً متصعلكاً في الهضاب ، يعيش على الصيد والقنص ، وينعم بحظ وافر من اللهو والنساء ولا تطول به أيضاً هذه الحياة كثيراً اذ يبلغه خبر مقتل أبيه فتستيقظ فيه الحمية والرجولة ، ويهب يطلب ثأر أبيه عنيداً صلباً شجاعاً ، فيجمع الجموع ، ويقود الجيوش من أقصى الجنوب من حمير في اليمن الى شمالي الجزيرة العربية ويغزو ، وينتصر على اسد ، ويعود للخمر التي حرمها على نفسه :

قد قرت العينان من مالك ... ومن بني عمر ومن كاهل

ومن بني غنم بن دودان اذ ... نقذف أعلاهم على السافل

نطعنهم سلكى ومخلوجة ... كرك لأمين على نابل (١)

حلت لي الخمر وكنت امرأ ... عن شربها في شغل شاغل

فاليوم أسقى غير مستحقب ... اثماً من الله ولا واغل (٢)

غير أنه لا يكتفي بالنصر الذي أحرزه ، فليس الثأر الذي أصابه

١ـ سلكى : الطعن مستوياً أمام الوجه ، مخلوجة : المعوجة عن يمين أو شمال ، الكر : الرد ، الأم : السهم ، النابل : من يرمي النبال ٢ـ المستحقب : حامل الاثم .

مما يليق بأبيه الملك ، ولذا فهو يريد أن يفني بني أسد حتى لا تقوم لهم قائمة ، ثم تنقلب الأيام ويدور الزمان دورته ، ويصبح امرؤ القيس طريداً شريداً ، وينفض عنه حلفاؤه وانصاره ، ويخذله حتى اصدقاؤه ومعينوه ، وتطلبه سيوف المنذر وحلفاء أسد ، فيلتجيء الى هـذا وذاك ، ويغدر به أحياناً بعض من التجأ اليهم ، واخيراً يسلك طريق الشام قاصداً القيصر

من هنا يبدأ شعر الشكوى ، كانت آماله كبيره كبيره يمثلها قوله :

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي[1]
وما المرء مادامت حشاشة نفسه ... بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي[2]

فأصبحت هذه الآمال سراباً معلقاً بالقسطنطينية ، والطريق الى القيصر فيه الغربة والذكرى ، وفي الذكرى عبر الأيام وتقلب الاصدقاء ، والحنين للاهل

تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت ... على خملي خوص الركاب وأوجرا[3]
فلما بدت حوران والآل دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظراً
لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ... ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

ثم يقول

اذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرت به العينان بدلت آخـرا

---

١ ـ المؤثل : الاصيل في الشرف ٢ ـ الآلي : المنقطع عما يطلبه .
٣ ـ خملي واوجر : مكانان .

كذاك جدّي ما أصاحب صاحباً من الناس الا خانني وتغيرا[1]

ويصل امرؤ القيس القسطنطينية ، ويماطله القيصر ؛ ويتذكر ابنته هنداً فيقول

أذكرت نفسك ما لن يعودا فهاج التذكر قلباً عميدا
تذكرت هنداً وأترابها فأصبحت أزمعت منها صدودا

ولكن الايام لا ترحم ، بل تضيف الى آلامه آلاماً جديدة ، فها هو المرض أخذت علائمه تظهر ، ويكاد يشعر امرؤ القيس بدنو اجله وهو في غربته عن قومه ويأسه من القيصر ، وصراعه مع المرض فيقول :

ألا أبلغ بني حجر بن عمرو وأبلغ ذلك الحي الجديدا
بأني قد هلكت بأرض قوم سحيقاً من دياركم بعيدا
ولو أني هلكت بأرض قومي لقلت الموت حق لا خلودا
أعالج ملك قيصر كل يوم وأجدر بالمنية أن تقودا

وتزداد القروح في جسم امرىء القيس فهو في أقصى عتمة اليأس آلام المرض المبرحة والغربة والشعور بقرب النهاية .

فيقول قصيدته التي مطلعها :

ألمّا على الربع القديم بعسعسا كأني أنادي أو أكلم أخرسا[2]

ويذكر فيها قلة نومه

فاما تريني لا أغمض ساعة من الليل الا أن اكبّ وأنعسا

١ ـ جدي : حظي ٢ ـ عسعس : جبل لبني عامر .

ويذكر شبابه أيام يطاعن الخيل وايام يروح الى النساء

فيارب مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

ويارب يوم قد أروح مرجلا حبيبا الى البيض النواعم أملسا[1]

يرعن الى صوتي اذا ما سمعنه كما ترعوي عيط الى صوت أعيسا[2]

ثم يعود الى نفسه فيذكر أنه لا يقدر من الضعف ان يرفع ذراعه ويلبس ثيابه

وما خفت تبريح الحياة كما أرى تضيق ذراعي أن أقوم فألبسا[3]

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة فيالك من نعمى تحولن أبؤسا

ويتذكر الطماح الأسدي الذي كاد له عند القيصر .

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا

ألا إن بعد العدم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا[4]

وعند عسيب في أكثر الروايات لدى قبر امرأة هناك يشعر امرؤ القيس بأنه عما قريب سيكون غريبا غربة هذه المرأه عن العالم كله فيقارن بين غربتين الغربة عن الاهل وهو على قيد الحياة والغربة عن العالم وهو في القبر فيكاد يرثي نفسه

أجارتنا ان الخطوب تنوب واني مقيم ما اقام عسيب

أجارتنا انا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

١ ـ المرجل : المسرح الشعر او الطويل العنق . ٢ ـ يرعن : يرجعن، ترعوي ترجع ، العيط : خيار الابل ، الاعيس : فحل الابل ، ٣ ـ التبريح : شدة البلاء ٤ ـ القنوة : مايقتنى .

وان تصلينا فالقرابة بيننا — وان تصرمينا فالغريب غريب
أجارتنا ما فات ليس يؤوب — وما هو آت في الزمان قريب
وليس غريباً من تناءت دياره — ولكن من وارى التراب غريب

في استعراضنا السريع هذا يمكننا أن نعرف كثيراً عن الشعر الوجداني لامرىء القيس .

ـ فهو شعر ليس القصد منه رضاء احد ولا الكيد لاحد ولا يراد منه اعجاب أحد بل هو شعر الذات للذات حديث النفس للنفس هو شعر العاطفة الخالصة تنفساً لما من تعانيه ، لهذا كله **نقول ان صفاء القصد وخلو الشعر من الاغراض أدى الى صفاء العاطفة** ، فظهرت حرة تترجم بحرارة عن صاحبها ، وتنقل احاسيسه نقلا مباشراً لقلب السامع

ـ شعر الشكوى والوجدان صاحب امرأ القيس في أواخر حياته وكان شعراً مختلفاً تماماً عن شعر الشباب ، فشتان بين قصائد الصيد والقنص ، والقصائد التي نحن بصددها .

في قصائد الشباب يكثر الخيال ، وتتنوع الصور ، وتأخذ التلوينات والاصبغة امكنتها ، وتظل العاطفة متأرجحة بين الظهور والاختفاء .
اما هنا وفي هذا الشعر الوجداني فتظهر العاطفة ظهوراً واضحاً بيّن المعالم يغمر جو القصيدة وجوانبها ، وبالتالي يكون حظ الخيال حظ الصدفة ، حظاً موزعاً ببساطة على لوحة القصيدة ، ببساطة وقوة مجتمعتين .

في الشعر الوجداني وشعر الشكوى تظهر الكلمات بسيطة مأنوسة

وتطل المعاني واضحة مشرقة بعيدة عن التعقيد والمعاظلة ويرجع هذا الى العفوية التي تسوقها .

ـ وشيء آخر نلمحه هنا وهو ارتباط الابيات مع بعضها ارتباطاً قلما نعثر عليه في الشعر الجاهلي .

ـ **في هذا الشعر تكثر الحكم والامثال** والاعتبار بحوادث الايام، ولا شك ان من طبيعة من كبر به العمر ان يكثر من الحكمة .. وحسبنا ان نقرأ ابياته الاخيرة بـ « أجارتنا ان الخطوب تنوب » لندرك الى أي مدى كانت الحكمة طوعاً للعاطفة وخادماً لها.

ـ **في صياغة الجمل تظهر النداءات المؤثرة العاطفية في الخطاب وفي** التذكير كقوله: اجارتنا إنا غريبان .. اجارتنا مافات ..

ويارب مكروب .... الخ

وتأخذ حتى الحروف حظّها من التعبير العاطفي، كحرف السين في قوله :

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط انفسا

وبكلمتين أخيرتين نوجز بهما ميزة شعر الشكوى والوجدان عند امرىء القيس فنقول :أنه شعر يمتاز بقوة العاطفة وبالعفوية.

الهجاء

لم يكثر امرؤ القيس من الهجاء ، لبعد هذا النوع من الشعر عن طبيعته . واذا عدنا الى شعره وجدنا أبيـــاتا متفرقة لاتعطى فكرة صحيحة عن فن الهجاء لديه . والذين هجاهم امـرؤالقيس : هم اشخاص ارادوا انتهابه ، أو خانوه وغدروا به كخـالد الـدوسي الذي أراد انتهاب امواله وفيه يقول :

وأعجبني مشي الحزرقّة خالد كمشي أتان حلّئت بالمناهل

وهناك هجاؤه لبعض القبائل التي غدرت به ، او بأهله ، اونصرت اسدا عليه .

فقد هجا البراجم ، وهم من بني تميم ، ويربوعاً ودارماً الذين خانوا عمه فقتل :

الا قبّح الله البراجم كلها وجدّع يربوعاً وعفّر دارما (١)

وآثر بالملحاة آل مجاشع رقاب اماء يقتنين المفارما (٢)

---

١ – البراجم : بطن من تميم ، الجدع : قطع الأنف ٢ – الملحاة : التقبيح واللعنة ، المفارم : دواء للفرج .

فما قاتلوا عن ربّهم وربيبهم ولا آذنوا آجار فيظفر سالما

وهجا بني حنظلة بقوله :

أبلغ بني زيد اذا مالقيتهم وأبلغ بني لبنى وأبلغ تماضرا
وأبلغ ولاتترك بني ابنة منقر أفقّـــرهم اني أفقّر نابرا(١)
أحنظل لو كنتم كراماً صبرتم وحطتم ولايلقى التميمي صابرا

وعلى كل، يمكننا أن نوضح ملامح فن الهجاء عند امرىء القيس بما يلي :

- ان الذي وردنا منه هو ابيات متفرقة وليس قصائد كباقي فنونه الشعرية .
- انه أقرب الى اللوم منه الى الهجاء .
- انه بعيد عن الاسفاف اللفظي .

كما نشاهد فيه :

- بساطة الافكار وعرضها دون اثواب مزركشة من المعاني والخيال .
- الاكثار من اسماء القبائل واسماء الاشخاص .
- تناسق الابيات وارتباطها وتسلسلها .

---

١ – افقرهم : اكبر فنارهم ، نابراً : من نبرة اللسان، اي نال منه بلسانه .

الحكمة

لم يكثر امرؤ القيس من الحكمة ،ولعل ذلك يعود الى ان اكثر شعره الذي وصلنا هو شعر شبابه حيث كان يلهو ويصطاد ، ولكنه حين امتدت به السنون ،وانقلبت عليه الايام وخبر الناس، و كثرت تجاربه ،بدأت الحكمة تظهر في شعره ظهوراً متفاوتاً مع اتسامها كلها بالمرارة والالم،ولم لا ؟ أليس هو الملك الضلّيل الذي انقلبت به الايام فاصبح شريداً طريداً .. ثم دهمه المرض ايضاً وهو في غربته عن أهله واصحابه فسمي « ذو القروح » .

والحكم التي وصلتنا عنه تتعلق بالموت ، وبالدهر وتقلبات ايّامه ،وان ما مضى مضى ولن يعود :

- ألا انما الدهر ليال واعصر ... وليس على شيء قويم بمستمر

- أجارتنا ما فات ليس يؤوب ... وما هو آت في الزمان قريب

● وليس غريباً من تناءت دياره ولكن من وارى التراب غريب

● ارانا موضعين لامر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

عصافير وذبّان ودود واجرأ من مجلحة الذئاب[1]

● ألم اخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا[2]

ازال من المصانع ذا رياش وقد ملك السهولة والجبالا[3]

وهناك الحكم التي تدور حول علاقات الناس بعضهم ببعض كقوله فيمن يفسد كرمه بالمنّ فيه :

● أفسدت بالمنّ ما اوليت من نعم ليس الكريم اذا اسدى بمنّان

وقوله في حفظ اللسان :

● ولو عن نثا غيره جاءني وجرح اللسان كجرح اليد

● اذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزّان

وقوله في الحرب :

● الحرب اول ما تكون فتيّة تبدو بزينتها لكل جهول

---

١ ـ مجلحة : الاكولة الهاجمة على الناس ٢ ـ غول : أي يغتال الناس ، ختور العهد : غادر .

٣ ـ المصانع : القرى . ذو رياش : احد ملوك اليمن .

حتى اذا حميت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل[1]

شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت مكروهة للشمّ والتقبيل[2]

ويلاحظ في الحكم التي اوردناها **واقعيتها المستمدة من المعاناة الذاتية والتجارب** التي مر بها الشاعر، كما انها **بسيطة العبارة** ، تحمل في طياتها التعبير عن الالم، الذي اخذ صاحب الشاعر في اواخر حياته .

---

١ – حليل : زوج ٢ ـ الشمطاء :التي خالط سواد رأسها بياض الشيب.

الخصائص العامة لشعر امرىء القيس

١ ـ لم يقل امرؤ القيس الشعر متكسباً ، أو طالباً به المجد ، بل كان الشعر في زمنه مما لا يليق بالملوك ، ومع ذلك قاله متحملا غضب ابيه وعشيرته ، **فشعره اذن صادر عن نفس شاعرية تحب الفن للفن.**

٢ ـ **شعر امرىء القيس تعبير عن نفسيته وحياته** : بما فيها من متناقضات ، فنحن نلمس في هذا الشعر :

ـ مكانة الشاعر في قومه وشرف نسبه

ـ حبه للنساء وشهوانيته واستهتاره وخمره وآراءه في المرأة .

ـ حبه للصيد والاقتناص وركوب الخيل ..

ـ تشرده وصعلكته .

ـ محاولاته للاخذ بثأر ابيه .

وبكلمة اعم ان حياة الشاعر ممثلة تماماً في شعره ..

٣ ـ **شعر امرىء القيس ترجمان صادق عن البيئة التي عاش فيها :**

أ ـ فهو شعر **يمثل البداوة** اولا بما يحمله من الفاظ وتشابيه

بدويّة كقوله :

- كأن على المتنين منه اذا انتحى مداك عروس او صلاية حنظل
- كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنّاء بشيب مرجل
- فعنّ لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيّل

ب ـ **ويمثل رفاه الملك بما يحمله من كلمات الرفاه**: كالطيب والحلي وانواع الثياب، بالاضافة للاهتمام بالطرب والغناء .

- اذا قامتا تضوّع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريّا القرنفل
- ألم ترياني كلّما جئت زائراً وجدت بها طيباً وان لم تطيّب
- الى مثلها يرنو الحليم صبابة اذا ما اسبكرّت بين درع ومجول
- فان امس مكروبا فيارب قينة منعّمة اعملتها بكران

لها مزهر يعلو الخميس بصوته أجشّ اذا ما حركته يدان

ج ـ **لا تظهر الآثار الحضرية في شعره الذي قاله في بلاد الغساسنة وبلاد الروم** وقد يكون ذلك لضيق الفترة التي امضاها هناك بحيث لم تستطع التأثير في شعره .

٤ ـ شعر امرىء القيس **شعر منقّح** ، اهتم صاحبه به فصقله وهذبه حتى أنه يجاهر بذلك ويفتخر قائلا :

أذود القوافي عنّي ذيادا ذياد غلام جريء جرادا (١)
فلما كثرن وعنّينه تخيرت منهن شتى جيادا (٢)

---

١ ـ اذود : ادفع ٢ ـ عنينه : اتعبنه .

فأعزل مرجانها جانباً وآخذ من درّها المستجادا

٥ – يمتاز شعر امرىء القيس **بحسن المطلع** كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وهو من احسن مطالع قصائد الجاهلية ، ولا يقلّ عنه في الجودة

ألا عم صباحاً ايّها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

٦ – **لم يوفق امرؤ القيس في الخروج من غرض الى غرض في القصيدة الواحدة**، حيث نشاهد في بعض القصائد انقطاعاً تاماً بين الغزل ووصف الصيد أو غيرهما من الاغراض الاخرى، والمعلقة مثال حسن لتنوع الاغراض وضعف الانتقال بينها .

٧ – **تمتاز كلمات امرىء القيس بالنعومة واللين فهي كلمات** الرفاه والدعة واللهو (خاصة في الغزل) وهي مأنوسة لطيفة محببة بعيدة عن الغموض في اكثر فنونه الشعرية الا اننا نلاحظ كثرة **الغريب في شعره الوصفي ، ربما لاختلاف مسميات عصره عن عصرنا .**

٨ يعتبر امرؤ القيس **اسبق شعراء الجاهلية الى ابتكار المعاني والتعابير والصور وتمتاز هذه بما يلي :**

– **بالجدة** : فهي جديدة على عصرها تماماً . وعن امرىء القيس اخذها الشعراء وتداولوها .

– **بالحركة** : فهي صور مشبعة بالانفعال .

ـ **بالواقعية** : فهي مستمدة من البيئة ومن تجربة الشاعـــر وملاحظته :

ـ **بتوافقها** مع الغرض الذي انشئت من اجله .

ومثال هذه المعاني :

● سموت اليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال

● وقد اغتدي والطير في وكناتهـا بمنجرد قيد الاوابد هيكل

● كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجذع الذي لم يثقب[1]

● كأن المدام وصوب الغمـام وريح الخزامى ونشر القطر[2]
تعـــل بـــه برد انيابهـــا اذا غرد الطائـــر المستحر[3]

● كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي[4]

ويلحظ لدى امرىء القيس :

ـ **جمال الاستعارة** كما في قوله :

---

١ ـ الجذع : خرز اسود يخالطه بياض . ٢ ـ النشر : الرائحة، القطر : عود يتبخر به .
٣ ـ المستحر : المغني في السحر أو آخر الليل . ٤ ـ الحشف : رديء التمر .

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتــلي
فقلت له لما تمطّى بصلبــه   وأردف اعجازاً وناءبكلكل[1]

- **الاكثار من التشبيه** واستخدام ادواته: كأن، ك، مثل .

درير كخذروف الوليد امرّه   تتابع كفّيه بخيط موصــل

- **لطف الكناية** ، كقوله: وبيضة خدر لا يرام خباؤها، كناية عن طهارة المرأة .

او كقوله :

كأن دماء الهاديات بنحره   عصارة حنّاء بشيب مرجل[2]

كناية عن اقدام الجواد وكثرة ما يصطاد عليه .

٩ - تمتاز عبارات امرىء القيس :

أ - بالترابط فيما بينها .

ب - **بالايجاز** دون ان يؤدي ذلك الى نقصان المعنى أو غموضه .

ج - بالاكتفاء بالصفة عن الموصوف كقوله :

وتعطو برخص غير شثن كأنه   أساريع ظبي اومساويك اسحل[3]

---

١ - الكلكل : الصدر . ٢ - الهاديات : المتقدمات ، المرجل: المسرج.
٣ - تعطو : تتناول ، الرخص : اللين الناعم ، الأساريع : دود يكون في البقل والاماكن الرطبة، شثن: غليظ، ظبي: موضع ، اسحل: شجر له أغصان ناعمه مستويه

تصدّ وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل[1]

د ـ **بالالحاح على الموصوف الواحد بمجموعة صفات تحدد معالمه** وتوضحه كقوله في وصف الجواد :

بمنجرد قيد الاوابد هيكل .. كميت ضليع ... الخ ..

هـ ـ **بالاكثار من استخدام اسماء الامكنة رمزاً وتفصيلا** كقوله :

- بناظرة من وحش وجرة . . .
- اساريع ظبي أو مساويك اسحل . . .
- قعدت له وصحبتي بين ضارج وبين العذيب بعدما متأملي
- وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطماً الا مشيداً بجندل

ولا شك ان تحديد الامكنة وذكر مسمياتها يجعل الموضوع واقعياً مأنوساً يربط بين الشاعر وجمهوره .

١٠ ـ في شعر امرىء القيس نلمح **تكرار الموضوعات** والاغراض ، وهي احياناً بالفاظ ومعان جديدة . واحياناً بنفس الالفاظ والمعاني كما سيرد في بحث عيوب شعره .

١١ ـ **يعرض امرؤ القيس افكاره في اكثر الاحيان بشكل قصة** وخاصة في الغزل والوصف ، وتمتاز هذه القصص :

ـ **بتكرار الفكرة** بألفاظ واثواب مختلفة مع بعض التلوينات في كل مرة .

---

١ ـ الاسالة : امتداد الخد ، وجرة : موضع ، مطفل : ذات طفل .

ـ بلطف الحوار :

ويوم دخلت الخدر، خدر عنيزة فقالت لك الويلات انك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

ولا يقتصر الحوار على الانسان بل يتناول غير العاقل، كقوله في خطاب الليل :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الاصباح فيك بأمثل

او في خطابه الذئب :

فقلت له لما عوى ان شأننا قليل الغنى ان كنت لما تموّل[1]
كلانا اذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

---

١ ـ تموّل : أصبح ذا مال

عيوب شعره

١

لكل شاعر في أي مكان وزمان ، عيوبه وسقطاته ، وفيما يلي نستعرض المآخذ التي وجدها دارسو شعر امرىء القيس ورواته :

١ – الاقواء والاصراف كقوله :

– كأنّ ثبيراً في عرانين وبله كبير أناس في بجاد مزمّل [١]

والصحيح كبير أناس في بجاد مزمّل بالضمّ وليس بالكسر

– فظل طهاة اللحم مابين منضج صفيف شواء أو قدير معجل

والصحيح : صفيف شواء أو قديراً معجلا .

٢ – الايطاء : وهو اعادة كلمة الرويّ على اقل من سبعة حروف كقوله :

على الأين جيّاش كأنّ سراته على الضمر والتعداء سرحة مرقب [٢]

فكلمة الروي مرقب يعيدها بعد بيت واحد في نفس القصيدة :

١ – ثبير : اسم جبل . العرنين : الانف : عرانين وبله : أوائل المطر البجاد : كساء مخطط .

٢ – الأين : التعب، سراته : ظهره ، سرحة مرقب : شجرة المراقبة .

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب [1]

وكقوله :

وهبت له ريح بمختلف الصوا صباً وشمال في منازل قفّال [2]

فكلمه الروي قفال يعيدها بعد خمسة أبيات في قوله :

نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشبّ لقفّال

٣ - تكرار الجملة أو الشطر أو البيت (عدا القافية) بنفس المعنى مع اختلاف طفيف كقوله :

- قعدت له وصحبتي بين ضارج وبين تلاع يثلث فالعريض
- قعدت له وصحبتي بين ضارج وبين العذيب بعدما متأملي

أو كقوله :

- له أيطلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل [3]
- له أيطلا ظبي وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب

ومن الجمل المكررة بكثرة في شعره الوصفي :

كأن دماء الهاديات بنحره . . . .

وقد أغتدي والطير في وكناتها . . . .

---

١ - الأيطل : الخاصرة ، العير : حمار الوحش .

٢ - صوا : حجر يوضع للدلالة في الطريق .

٣ - ارخاء سرحان : عدو الذئب ، تقريب تتفل : عدو ولد الثعلب .

بمنجرد قيد الاوابد . . .

على الاين جياش . . .

وغيره كثير .

٤ ـ **الاسفاف في قوله :**

لنـــا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتّها العصي[١]
فتملأ بيتنا أقطـاً وسمناً وحسبك من غنى شبـع وري

٥ ـ **سخافة المعنى في قوله يصف فرسه :**

لها ذنب مثل ذيل العروس تسدّ بـه فرجها من دبر

فالشطر الثاني لا لزوم له لانه صفة كل ذنب .

او قوله في الفرس ايضاً :

وأركب في الروع خيفانةً كسا وجهها سعف منتشر[٢]

وهذا الوصف يسيء للفرس ، اذ يجعلها لاترى امامها، اضافة الى ان تشبيهها بالجرادة امر لانستسيغه .

٦ ـ **خسارته حين تنافس مع علقمة الفحل في وصف الفرس** امام امرأته وكان ذلك بسبب بيته الشعري :

---

١ ـ جلتها : الواحد جليل : كبير السن .

٢ ـ خيفانه: جراده، سعف: أي شعر الناصية

فالسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع اخرج مهذب

اذ جعل فرسه لاتسير الا بالزجر والسوط

في حين قال علقمة :

فأدركهن ثانياً من عنانه   يمرّ كمرّ الرائح المتحلب

٧ – فجوره وافحاشه في غزله

٨ – وأخيراً تشبيهه نفسه بالفأر في قوله :

وهرّ تصيد قلوب الرجال   وافلت منها ابن عمرو حجر

أوس بن حجر

حيـاتُه

في كتب الادب القديمة وحتى الحديثـــة اشارات تلميحية حيناً وتصريحيـة حيناً آخر ، الى مدرسة شعرية واضحـة الاركان والمقومات ، منسوبة الى شاعر جاهلي اسمه اوس بن حجر . . .

فمن هو هذا الشاعر ؟

من المعلوم ان حياة الشعراء الجاهليين ونشأتهم يكتنفها الغموض من كل جانب نظراً لتأخر تدوين الادب الجـاهلي ، لذلك لانكاد نعرف عن حياة الشاعر اوس بن حجر الا النذر اليسير الذي لايروي غلتنا وتعطشنا لمعرفة المؤثرات على شخصيته ، وبالتالي لا يدعنا نصدر الاحكام الموضوعية على شعره القليل الذي وصل الينا باعتبار ان حياة الشاعر الخاصة ، ونشأته لهما اكبر الاثر على شخصيته الشعرية.

على ان هناك ملاحظتين يمكنهما ان تعطيانا لمحـــة عن الشاعر وقيمته :

١ ـ لدى دراسة حياة الشاعر زهير بن ابي سلمى نجد ان اوساً كان زوج امه ، وانه « اي زهير » تتلمذ على يديه وأصبح فيما بعد راويته وحامل طريقته الشعرية .

٢ ـ لدى الرجوع الى ديوان اوس نجد اشعاراً تشير الى حادثة حصلت لاوس اثناء سفره ، اذ وقع في ارض بني اسد فاندقت فخذه ، وبات في مكانه حتى الصباح ، فاذا بنات يجنين الكمأة ، وما ان يلمحن ناقته حتى يرتعن منه الا فتاة صغيرة اسمها حليمة بنت فضالة بن كلده فقال : من انت ؟ قالت ابنة فضالة ، قال : اذهبي الى ابيك ـ وأعطاها حجراً ـ فقولي له : يقول لك ابن هذا ائتني . . فأتته فبلّغته فقال : لقد اتيت اباك بمدح طويل او بهجاء طويل . . واحتمل بيته فبناه عليه وقال : لا اتحوّل ابداً او تبرأ . . واقام عليه حتى شفي . . وكانت حليمة بنت فضالة تقوم عليه فقال فيها الابيات التالية :

لعمرك ما ملت ثواء ثويّها	حليمة اذ القت مراسي مقعد (١)
ولكن تلقّت باليدين ضمانتي	وحل بشرح م القبائل عوّدي (٢)
وقد غبرت شهري ربيع كليهما	بحمل البلايا والحباء الممدد
ولم تلهها تلك التكاليف انها	كما شئت من اكرومة وتخرّد (٣)
هي ابنة اعراق كرام نمينها	الى خلق عفّ برازته قد (٤)

١ ـ الثوى : الضيف ، الثواء : الاقامة . ٢ ـ الشرج : مكان بين الجواء وناظره ، الضمانة : العاهة . ٣ ـ الخريدة : الفتاة البكر . ٤ ـ نمينها : رفعتها في النسب ، البرازة : العفة الخلق .

سأجزيك اويجزيك عني مثوّب   وقصرك ان يثنى عليك وتحمدي

من هاتين الملاحظتين نستنج ان اوس بن حجر كان من الشعراء الفحول ، وانه كان يخشى لسانه من الجميع .. ناهيك عن نبوغه الشعري الذي لم يطغ عليه فيه الا النابغة الذبياني وزهير بن ابي سلمى حتى قال عنه ابو عمرو بن العلاء « كان اوس فحل مضر حتى نشأ النابغه وزهير فأخملاه » .

اسمه وطبقته :

ان كل ما نعرفه عن اوس - غير ما قدمناه - ان اسمه اوس بن حجر بن عتّاب بن عبد الله بن عدي بن نمير بن اسيد بن عمرو بن تميم . . . وفي رواية اخرى ، هو اوس بن حجر بن مالك التميمي .. وفي نسبه اختلاف . . . اما مرتبته بين الشعراء الجاهليين ، فمن الرواة من يقرنه بالشعراء الفحول « امثال النابغة وزهير » كابن سلام الجمحي الذي عدّه من شعراء الطبقة الثانية بعد امرىء القيس والنابغة وزهير والاعشى ... في حين عده ابو عبيدة معمر بن المثنى من شعراء الطبقة الثالثة .. اما الاصمعي فقد تحدث عنه فقال : ان اوساً كان شاعر مضر ولكن النابغة طأطأ منه فظل شاعر تميم ... ولكن الثابت ان علماء البصرة والكوفة وبغداد يروون قول ابن العلاء : ان اوساً شاعر مضر حتى ظهر النابغة وزهير فأخملاه ...

اغراضه الشعرية :

تبين النماذج القليلة المتوفرة لدينا من شعر اوس ان الاغراض التي نظم فيها هي :

١ ـ **الوصف**: الذي احتل شطراً كبيراً من اشعاره .

٢ ـ **الهجاء** :الذي لعبت العصبية القبلية والنفسيةالذاتية الدور الكبيرفي غزارته.

٣ ـ **الرثاء**: الذي نما وغزر على حساب المدح،وانصب اكثره على فضالة بن كلدة بعد ان اعتنى به عند اصابته .

٤ ـ **الفخر**الذي امتلأت به بعضقصائده كنتيجة طبيعية لعصبيته القبلية ومكانته بين قومه ونبوغه الشعري .

أما بقيةالأغراض كالمديح والغزل والحكمة فلم نعثر لهعلى أشعار فيها الا ما ندر وبمناسبة العرفان بالجميل والاعجاب بالنسبة للمديح ، وافتتاح القصيدة والانتهاء منها بالنسبة للغزل ، والحكمة .

السمات الرئيسية :

قبل أن نبدأ باستعراض الأغراض التي نظم فيها أوس ، لابد لنا من اعطاء لمحة موجزة عن السمات الرئيسية لشعره التي قدتسهل علينا تذوقه وايفاءه حقه من الدراسة

١ ـ تجسيده حياة البادية شكلاً وموضوعاً .

٢ ـ تحسسه المادي لموضوعاته الشعرية واشتراك الخيال في ذلك بشكل مباشر ودون انفصال .

٣ ـ اعماله التهذيب والتنقيح في اشعاره قبل عرضها على الآخرين .

٤ ـ استعماله لفنون البلاغة وفقاً لمقتضى الحال وانسجاماً مع وضعية الغرض الشعري .

والآن . . وبعد استعراضنا السمات الرئيسية لشعر أوس بن حجر يمكننا البدء بمعالجة أغراضه :

الوصف

ذكرنا عند استعراضنا للأغراض التي نظم فيها أوس أن الوصف غزير لديه ، لذلك لابد لنا من البدء به باعتباره يمثل أصدق تمثيل شخصيته الشعرية ، حتى ان بعض كتب الادب لم تتعرض الا للوصف لديه مهملة بعض أغراضه الشعرية وكأنها غير موجودة أو لاتساوي شيئاً في عالم الشعر الجاهلي . . . . **وقد كان من أبرز موصوفاته :**

١ ـ السحاب والمطر . ٢ ـ عدته وعتاده الحربي .

٣ ـ الحيوان . ٤ ـ آلامه الشخصية .

٥ ـ الاطلال ومشاهد الارتحال .

وصفه للسحاب والمطر والرعد :

يضع نقّادالادب ومؤرخوه وصفاوس للسحاب والمطر والرعد في القصيدة التي مطلعها :

ودّع لميس وداع الصارم اللاحي   إذ فنّكت في فسادبعد إصلاح(١)

١ ـ الصارم : الهاجر : القاطع ، اللاحي : اللائم .

في المقام الاول بين جميع الشعراء الذين تناولوا هـذا الوصف والسبب الأول في ذلك ان شاعرنا بطريقته الحسية المادية المتصلة اتصالاً وثيقاً بخياله قد صور لنا اجود تصوير السحاب والمطر والرعد بشكل لايدخل الملل فقال :

اني أرقت ولم تأرق معي صاحي … لمستكفّ بعيد النوم لوّاح (١)
قد نمت عني وبات البرق يسهدني … كما استضاء يهودي بمصباح
يا من لبرق أبيت الليل أرقبه … في عارض كمضيء الصبح لمّاح (٢)
دان مسف فويق الارض هيد به … يكاد يدفعه من قام بالراح (٣)
كأن ريقـه لما علا شطباً … اقراب ابلق ينفي الخيل رمّاح (٤)
هبّت جنوب بأعلاه ومال به … أعجاز مزن يسحّ الماء دلاّح (٥)
فالتجّ أعلاه ، ثم ارتجّ أسفله … وضاق ذرعاً بحمل الماء منصاح (٦)
كأنما بين أعلاه وأسفله … ريط منشّرة أوضوء مصباح (٧)
ينزع جلد الحصى أجشّ مبترك … كأنه فاحص أو لاعب داحي (٨)
فمن بنجوته كمـن بمحفله … والمستكنّ كمن يمشي بقراوح (٩)

١ ـ المستكف : المطر الهاطل ، لاح البرق لوحاً ولؤوحاً ولوحاناً : لمع .
٢ ـ العارض : السحاب الذي يتعرض على وجه السماء ، اوالذي يسبقه برق شديد الوميض . ٣ ـ المسف : الشديد الدنو من الارض ، الهيدب : ما تدلى منه .
٤ ـ القراب الابلق : البرق الذي يضيئه لك من السحاب ، ابيض والباقي اسود .
٥ ـ العجز : مؤخر الشيء ، الدلاح: المثقل بالماء . ٦ ـ التج : صوت من اللجة ، المنصاح : منشق بالماء . ٧ ـ الريط : ج ريطه وهي الملاءة . ٨ ـ الاجش : الغليظ الصوت وهو صفه للرعد المصاحب للسحاب ، المبترك : المسرع في العدو .
٩ ـ القرواح : الارض المستوية .

كأن فيه عشارا جلة شرفاً شعثا لهاميم قد همت بارشاح[1]
هدلاً مشافرها ، بحاً حناجرها تزجي مرابيعها في صحصح ضاحي[2]
فأصبح الروض والقيعان ممرعة من بين مرتفق منها و منطاح[3]

* * *

حقاً ان أوساً في وصفه هذا قد أجاد الى حدّ بعيد . وفيما يلي ملاحظاتنا حول هذه القصيدة :

١ ـ ان الافكار والمعاني التي جسدتها تلك الابيات لا تعدو عن كونها تدور حول سقوط المطر بعد برق ورعد شديـــدين ، فاذا بالارض ملأى بالمياه .. اذن فالافكار عادية ولكن الشيء غير العادي في هذا الموضوع هو التسجيل الحسي الحركي الخيالي لهذه الظاهـرة الطبيعية وقد نجح في ذلك للاسباب التالية :

آ رغم عدم الشفافية التي بدت من خلفها افكار اوس ومعانيه ، إلا أن دقة التصوير قد اسهمت في تقريب الافكار والمعاني الى ذهن القارىء ، ساعدها في ذلك الصدق الذي تميزت به ، والجدّة الـــتي ابرزت فيها .

ب ـ وبالاضافة لما ذكرنا فان تسلسل الافكار وترابطها وتناغمها

---

١ ـ العشار : التي لها عشرة اشهر من الحمل ، الجلة : المسان من الابل ، الشرف : الكبار ، اللهاميم : الغزار ، الارشاح : اشتداد فصيل الناقة وقوته . ٢ ـ الهدل : المسترخية ، تزجي : ترعى ، الصحصح : المكان المستوي الظاهر . ٣ ـ المرتفق : ماء راكد محبوس ، المنطاح : ماء سائل .

مع الطريقة التصويرية المادية الواقعية من جهة، والخيالية الانسيابية من جهة اخرى ، قد ساهمت في ابراز المعاني والافكار التي دار حولهـــا الموضوع .

٢ ـ اما الالفاظ فلم تكن سهلة من جهة ، ولكنها ايضاً لم تكن صعبة الفهم من جهة اخرى، نظراً لما تحلت به من جرس موسيقـــي أعطاها تلك السمات الشاعرية التي لعبت دوراً هاماً في نجاح الوصف باعتبارها كانت :

آ ـ حسية وموحية بالمعاني التي وضعت للتعبير عنها : لمّاح ، رمّاح

ب ـ مناسبة لجو الموضوع ومتعاطفة معه .

ج ـ غير مستكرهة على السمع ، رغم وجود بعض الاغراب اللغوي فيها باعتبارها صادرة عن شاعر يمثل البادية شكلا وموضوعاً .

٣ ـ اما الجمل والتراكيب التي استخدمها للتعبير عن موضوعه ، فقد كانت قوية ، متماسكة ، شديدة التأثير ، متلائمة كل التـلاؤم مـع الموضوع الذي رصدت للتعبير عنه .

٤ ـ اما جو الموضوع فقد تميز بحركة انسيابية هادئة حيناً ، ومنفعلة احياناً وذلك لقربه من نفسية الشاعر .

٥ ـ اما ابرز ما نلاحظه فهو تلك المادية الـــتي تغلغلت في كل الابيات فأكسبتها الرونق الخاص بها **بالاضافة لاعانتها على** اظهار جمال الموصوفات وحسية وقعها .

٦ - اما الفنون البلاغية التي تجلت في القصيدة فتكاد تكون الاستعارات والتشابيه اكثرها ، حتى يكاد لا يخلو منها بيت من ابيات القصيدة ، وقد ساعد على تقريبها للفهم ، البساطة وتلك المادية التي نوهنا عنها آنفاً ، اذ ان كل تشبيه من تشابيهه يقترن بمادية ملحوظة تعطية المدى المطلوب منه ، وخير مثال نجده ايرادنا لهذين البيتين اللذين يضعاننا امام تشابيهه الجيدة :

يامن لبرق ابيت الليل ارقبه — في عارض كمضيء الصبح لماح
دان مسف فويق الارض هيدبه — يكاد يدفعه من قام بالراح

فالبرق شبيه بالصبح المضيء ، وضوء الصبح اللماح بطبيعته يشبه البرق الذي يومض ثم لا يستمر سريعاً حتى يذهب .

٧ - وكما اكثر أوس من الاستعارات والتشابيه فكذلك استعمل في سبيل تقريب معانيه من ذهن القارىء ، كثيراً من الوسائل المعبرة والمؤثرة التي ابرزها :

١ - الاكثار من صيغ المبالغة (لوّاح ، لمّاح ، رمّاح ، دلاّح) التي اكسبت الموضوع قرباً من واقعه .

٢ - الترصيع الذي تجسد بشكل خاص في هذا المقطع (هدلا مشافرها ، بحّا حناجرها) فاعطى المعنى حركته الانفعالية الخاصة .

٣ - التجنيس للحروف بما يتوافق مع الاوزان (فمن بنجوته ، كمن بمحفله)

اما السمة البارزة التي اكسبت القصيدة اهمية خاصة لدى الرواة والنقاد والمهتمين بالادب فتتجلى بالصدق الذي نطقت به جميع جزئيات القصيدة والذي يمكننا رده للسببين التاليين :

١ – التصاق الموضوع بنفسية الشاعر (اني أرقت ... قد نمت عني وبات البرق يسهدني . . يا من لبرق ابيت . .)

٢ – اندماج الشاعر نفسياً معه وخلوه من كل ما يتعلق بالمصالح المادية للشاعر .

وعلى العموم فان وصف اوس لمظاهر الطبيعة (برق ، رعد ، سحاب ، مطر) يعدّ من أروع موصوفاته نظراً للأمور التي نوهنا عنها والتي تعود فتبرز في وصفه لعدته وعتاده الحربي . . .

وصفه لعدته وعتاده الحربي :

ومن الموصوفات الموفقة التي نجدها في ديوان اوس ، ما يتعلق بالعدة والعتاد الحربي الممثّل بالسيف والرمح والدرع والقوس . . والتي ركز عليها الشاعر بأكثر من قصيدة جيدة :

واني امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها ناباً من الشر أعصلا(١)

اصمّ ردينياً كأنّ كعوبه نوى القسب عرّاصاً مزجّاً منصلا(٢)

---

١ - الاعصل ؛ الاعوج . ٢ - القسب ؛ تمر يابس نواه مر صلب ، المزجي حديده باسفل الرمح ، المنصل : السنان .

واملس صولياً كنهي قرارة ... احس بقاع نفح ريح فأجفلا...(1)
كأن قرون الشمس عند ارتفاعها ... وقد صادفت طلقاً من النجم أعزلا
تردد فيـــه ضوؤها وشعاعها ... فاحسن وازين بامرىء ان تسربلا
وابيض هندياً كأن غراره ... تلألـؤ برق في حـبي تكللا(2)
اذا سل من جفن تآكل أثره ... على مثل مصحاة اللجين تآكلا(3)
ومبضوعة من رأس فرع شظية .. ... بطود تراه في السحاب مجللا
على ظهر صفوان كأن متونه ... عللن بدهن يزلق المتنزلا
فما زال حتى نالها وهو معصم ... على موطن لو زل عنه تفصلا(4)
فلما نجا من ذلك الكرب لم يزل ... يمظعها ماء اللحـــاء لتذبلا(5)
فأنحى عليها ذات حـد دعا لها ... رفيقاً بأخـذ بالمداوس صيقلا(6)
على فخـذيه من براية عودها ... شبيه سفي البهمى اذا ما تفتلا(7)
فجردها صفراء لا الطول عابها ... ولا قصر ازرى بها فتعطلا
اذا ما تعاطوها سمعت لصوتها ... اذا انبضوا عنها نئيماً وازملا(8)
وان شد فيها النزع أدبر سهمها ... الى منتهى من عجسها ثم اقبلا(9)
وحشو جفير من فروع غرائب ... تنطع فيهـــا صانع وتنبلا(10)

---

١ ـ النهي : غدير الماء . ٢ ـ الحبي : السحاب المرتفع . ٣ ـ مصحاة اللجين : قدح من فضه : . ٤ ـ المعصم : المتعلق بالجبل ٥ ـ مظع ؛ شرب ، اللحاء : قشر العود ٦ ـ الرفيق : الحاذق ، المداوس : ج مدوس وهو الذي يصقل به ٨ ـ السفي : ج سفاة وهو شوك البهمي ٨ ـ انبض القوس : جذب وترها فصوتت ، النئيم : الصوت الضعيف ٩ ـ العجس : موضع كف الرامي من القوس . ١٠ ـ الجفير : الكنانة للسهام ، غرب : نوع من الشجر ، تنطع : تحذق .

تخيّرن أنضاء وركّبن أنصلا — كجمر الغضا في يوم ريح تزيّلا[1]
فلما قضى في الصنع منهن فهمه — فلم يبق الا ّ ان تسن ّ، وتصقلا
كساهن ّ من ريش يمان ظواهرا — سخاماً لؤاما ، ليّن المس اطحلا[2]
يخرن اذا أنفرن في ساقط النوى — وإن كان يوماً ذا أهاضيب مخصلا[3]
فذاك عتادي في الحروب اذا التظت — وأردف بأس من حروب وأعجلا

لقد عمدنا في ايراد هذه الابيات الى الانتقاء، فالقصيدة طويلة ، ولا يمكننا في هذه العجالة سردهـــا بكاملها ولكن حسبنا اختيارنا لهذه الابيات التي تدل على وصف اوس لعد ّته وعتاده الحربي .

أما وقـــد ذكرنا ما فيه الكفاية عن وصف اوس للمطر والسحاب . لذلك لن نكرر الخصائص المتشابهة بل سنورد بعض الملاحظات التي نوجزها فيما يلي :

الملاحظة الاولى :

احاطة الموصوفات الحربية بكامل جزئياتها ، وكأن الشاعر يحب ان يبسطها أمام القارىء ليمعن النظر فيها مستخدمـــاً لذلك الصور الجزئيه المتلاحقة .

---

١ ـ النضي : سهم لم يبر بعد ، الغضا : شجر شديد الالتهاب ، ٢ ـ السخام : اللين ، الطحلة : لون بين الغبرة والبياض والسواد ، ٣ ـ يخرن : يسمع لهن صوت .

الملاحظة الثانية :

ظهور مادية أوس بأجلى معانيها : « وبشكل أبلغ مما لاحظناه في وصفه للمطر والسحاب » في الأوصاف التي أتى على ذكرها تباعاً وبتفصيل دقيق أحاط بها إحاطة تامة ، فالرمح « أصم ردينياً .. » والدرع « وأملس صولياً . . » والسيف « وأبيض هندياً . . » والقوس « ومبضوعة من رأس فرع شظية . . » والسهام « وحشو جفير من فروع غرائب . . . » أي أن المادية تلتصق في كل كلمة ، كل جملة ، كل تركيب . . وباختصار فقد حققت التعبير المجسد الحي للموصوفات .

الملاحظة الثالثة :

كثرة الاغراب اللفظي الذي أعطى للموضوع ذلك الجو البدوي المغرق في بداوته ، والمصوّر للعتاد الحربي كالسيف والرمح والدرع والقوس والسهام ، التي ربما توافقت مع مقتضيات البيئة والمجتمع الجاهلي ، ولكنها لاتتلائم مع مجتمعنا في الوقت الحاضر الذي أصبحت فيه هذه الأدوات الحربية لاتستعمل الا كسلاح ابيض ، ربما أصبح مكان أكثر قطعه المتاحف .

الملاحظة الرابعة :

التركيز على الموصوفات وتجسيدها بسيل جارف من التشبيهات المقتبسة من البيئة البدوية وبأشكال أحاطتها من كل جانب ، مصوّرة أدقّ الجزئيات منها بحيث قرّبتها الى المتذوق ووضعتها أمامه وجهاً لوجه . . .

وصفه للناقة :

وكباقي الشعراء الجاهليين لابد لأوس من أن يأتي في قصيدته على وصف الحيوانات التي تنتشر في البادية كالنوق والحمر الوحشية والكلاب والخيل . . . وسواها . . مركزاً بشكل خاص على وصف الناقة كقوله :

وإدماء مثل الفحل يوماً عرضتها	لرحلي وفيها جرأة وتقاذف(١)
وعنس أمون قد تعلّلت متنها	على صفة أو لم يصف لي واصف(٢)
كميت عصاها النقر صادقة السرى	اذا قيل للحيران أين تخالف(٣)
علاة كناز اللحم ما بين خفها	وبين مقيل الرحل هول نفانف(٤)
علاة من النوق المراسيل وهمة	نجاة علتها كبرة فهي شارف(٥)

---

١ ـ الادماء : الناقة البيضاء اللون ، تقاذف : يدافع بعضها بعضاً .
٢ ـ العنس الامون : الناقة القوية الوثيقة الخلق . ٣ ـ كميت : ذات حمرة مشوبة بسواد ، تخالف : تذهب وتتجه . ٤ ـ العلاة : الناقة المشرفة ، النفانف : ج نفنفة كل شيء بينه وبين الارض مهوى . ٥ ـ المراسيل : السهلة السير ، الوهمة : الضخمة القوية

جمالية للرحل فيهـــا مقدّم أمون وملقي للزميل ورادف[1]
يشيّعها في كل هضب ورملة قوائم عوج مجمرات مقاذف[2]
توائم آلاف ، توال لواحق سواهٍ ،لواه ، مربذات خوانف[3]
يزل قتود الرحل عن دأياتهـا كما زلّ عن رأس الشجيج المحارف[4]

ما من شك اننا مهما استرسلنا مع اوس في وصفه لناقته ، هنا أو في مواضع اخرى من قصائده ، فاننا سنجده ، كما وجدناه في بقية موصوفاته ، **يحيطها بأوصاف كثيرة** يعجب الانسان بقدرته الفائقة في ايرادها .

وبالطبع فاننـا نلاحظ كما لاحظنا في الشكلين السـابقين من موصوفاته (المطر وعـــدة الحرب) تلك **المادية الشديدة وذلك الاغراب المخيف** (باستثناء وصف المطر . . فقـد كان مقبولاً) **في الألفاظ والتراكيب** ، حتى لكأن القارىء في بحر متلاطم الامواج لايخلص منه الا بمعجزة لابـــد له هنا من تحقيقها بمعجم ضخم حتى يفهم معانيها . . .

النجاة : السريعة،الشارف من الابل: المسن، ١ ـ الجمالية : الناقة الوثيقة الخلق التي تشبه الجمل ، الزميل : الرديف على البعير ، الرادف : التابع . ٢ ـ مجمرات : اشتدت الاخفاق واجتمعت . ٣ ـ السواهي :اللينة السير ، المربذ : خفة القوائم ، الخوانف التي تهوى بايديها ٤ ـ قتد خشب الرحل: الدأيات :الكواهل، المحرف : ميل السبر الجراحات .

وقـــد نجد لأوس العذر في اغرابه بانه شاعر جاهلي مادي الاتجاه ، إلا أننا نأخذ عليه هذه الشدة فيه التي تكبّد القارىء من الجهد ما تجعله يقلع عن فكرة متابعة القصيدة . . .

ومن جهة اخرى فإحاطتـــه بصفـــات الناقة تعد عملاً جيداً لاينقص منه كونه من الأعمال التي درج عليها غيره من الشعراء الجاهليين ، باعتباره قد لوّنها بما تتلاءم معه من ألفاظ وتعابير . . .

وصفه لآلامه الشخصية :

ومن الموصوفات الجيّدة التي نرى فيها رقة وشفافية وبعـداً عن الاغراب اللفظي ، قلما نراهـا لدى أوس (الذي أجهدتنا قراءة بقية موصوفاته) ، هذه الأبيات التي قالهـا عندما وقع عن ناقته بأرض بني أسد واندقت فخذه حتى أسعفه فضالة بن كلدة :

خـذلت على ليلة ساهرة ... بصحراء شـرج الى ناظره

تزاد ليالي في طولهـــا ... فليست بطلق ولا ساكره(١)

كأنّ أطاول شوك السّيال ... تشك بهـا مضجعي شاجره(٢)

أنوء برجل بهـــا ذهنهـا ... وأعيت بهـا اختها الصابرة

ان هذه الأبيات على قلّتها ترينا مقدرة أوس التصويرية ، سيما وانها متّصلة بنفسه ومصوّرة لآلامه الشخصية التي أحسّها عندما كسرت

---

١ - طلق : يوم معتدل الحرارة ٢ - السيال : نبات له شوك أبيض كالاسنان ، شاجره : طاحنه .

قدمه . . . وهي باختصار جيدة من جميع نواحيها : **الفكرية** وقد عبّرت بشكل جيد عن الموضوع الذي أراده . . **والعاطفية** ، وقد جسّدت آلامه أبلغ تجسيد وبصدق لايرقى الشك الى زيفه لاتصال الموضوع بنفسيّته... **والفنية** وقد وضع الموضوع في اطاره المطلوب بسلسلة من الصور الجيدة زاد جمالها ، الألفاظ والجمل والتراكيب التي امتازت فضلاً عن ذلك بشفافية نادراً ما نجدها في أشعار أوس . . وفوق هذا كله نلمح ذلك **الهدوء** الذي ساد الأبيات وأعطى لها ذلك الجو الخاص الذي أراد أوس تصويره وجعله يعبر عن حالته التي كان يحياها عقب الحادثة التي تعرض لها . . .

وصفه الأطلال :

وكما ان وصف الحيوانات من ضرورات أو شبه ضرورات سلّم القصيدة الجاهلية ، فكذلك وصف الاطلال ، وأوس على مالدينا من من قصائد له **نجده غير مكثر من هذا النوع من الموصوفات التي نجدها عند سواه وقد ملأت القصيدة** . وفيما يلي هذا النموذج :

تنكّر بعدي من أميمة صائف فبرك فأعلى تولب فالمخالف[1]
فقوٌ ، فرهبى ، فالسليل عازب مطافيل عوذالوحش فيه عواطف[2]

---

١ ـ صائف ، برك ، تولب : مخالف ، مواضع ٢ ـ قو : عازب،السليل : اودية، رهبى : بديار تميم ، العوذ المطافيل : الابل التي نتجت وتبعتها أطفالها .

فبطن السليّ ، فالسخال تعذرت فمعقله الى مطـــار فواحف
كأنْ جديد الدار يبليك عنهم تقيّ اليمين بعد عهدك حالف
بهـا العين والآرام ترعى سخالها فطيم ، ودان للفطام ، وناصف[1]»

لعل أوس بن حجر أراد في أبياته تلك وضعنا في الأماكن التي كانت تسكنهـا القبائل العربية التي تنتسب اليها أميمـة (محبوبته في القصيدة)، فاذا به يأتينا بأشعار كلها أسماء لايمكن أن تعطينا أية فكرة عن الأطلال اللهم الا ايراده البيتين الأخيرين ، حيث يصور حـــال تلك الامكنة وقد أصبحت مرتعاً لبقر الوحش والظباء ، ترعى بهـا مع أولادها . . . وبالطبـع فان هـذا النموذج يكمل فكرتنا عن وصف أوس المـادي الذي يستخـدم فيه الصور المتلاحقة لتجسيد موصوفاته .

---

٥ ـ ناصف : بين الفطام والدنو منه .

الخصائص العامة لوصفه

بعد ان استعرضنا نماذج عن وصف أوس للسحاب والمطر والعتاد الحربي والناقـــة والآلام الشخصية والأطلال يمكننا استخلاص الخصائص التالية :

١ - **ظهور طابع البيئة البدوية في جميع موصوفاته**

٢ - **شيوع المادية** في جميع الألفاظ والمعاني . . .

٣ - **شيوع الاغراب اللفظي** ، حتى ليجد القارىء نفسه مجبراً على مراجعة المعاجم لتفهّم معاني الألفـاظ وادراك مراميها ، اللهم الا أبياته في وصفه لآلامه الشخصية .

٤ **الاكثار من التشابيه** وخاصة في قصائده التي تناول فيها وصف المطر والسحاب والعتاد الحربي .

٥ - **كثرة الصور وتتابعها واحاطتها بجزئيات الموصوف وكافة النواحي فيه ، مع اشتراك الخيال في رسمها أحياناً .**

٦ – اتسام القصائد بهدوء نسبي مع بعض التوفز أحيانا .

٧ – شيوع الصدق في القصائد باعتبار انهـــا تمثل موصفات نليس الا .

٨ – اتسام القصائد بقوة التراكيب والجمل مع ابتعاد ظاهر عن الصراحة في الغالبية العظمى منها .

الهجاء

يعتبر الهجاء من أكثر الفنون الشعرية التي احتلّت مركزاً خطيراً في المجتمع العربي القديم الذي كانت العصبية القبليّة تلعب الدور الكبير فيه ، والسبب في ذلك انه (اي الهجاء) كان يمثل أهمّ وسيلة دفاعية وهجومية بين الخصوم ، حتى ان النبي (ص) قال مخاطباً شاعره حسان بن ثابت بمناسبة حربه مع المشركين « اهجم كأنك تنضحهم بالنبل » .

وديوان أوس بن حجر تغصّ جنباته بالقصائد الهجائية التي تقودنا للاعتقاد بأن هذا الشاعر كان على خصومة شديدة مع جمع كبير من الناس بدليل قوله :

وقدرام بجري بعدذلك طامياً ... من الشعراء كل عود ومقحم «١»
ففاءوا ، ولو أسطوا على أمّ بعضهم ... اصاخ فلم ينصت ولم يتكلم «٢»

---

١ ـ عود : البازل من الجمال وأراد في البيت فحول الشعراء وضعافهم .
٢ ـ اصاخ : سكت مفحماً .

وكيف لا يكون شعره الهجائي على هذه الغزارة وهو الذي عرف مقدرته الشعرية في هذا الفن ، فقال مفتخراً مزهواً بأقواله التي يصبّها على خصومه وكأنها السيوف الماضية :

بنيّ ومالي دون عرضي مسلّم وقولي كوقع المشرفيّ المصمّم

بواعثه :

ذكرنا عند استعراضنا لحياة الشاعر وما قاله ابو عمرو بن العلاء عنه : (كان اوس فحل مضر حتى جاء النابغة وزهير فأخملاه » اي ان شاعرنا كان على منزلة رفيعة بين قومه ينطق باسمهم ، ويذبّ عنهم بلسانه حتى طارت شهرته بين القبائل العربيه فقال عنه فضالة بن كلدة لابنته عندما جاءته بخبر اوس : لقد جئتني بمدح الدهر أو ذم الدهر .

على ان الأمر لا يقف عند حد علوّ منزلة هذا الشاعر بين قومه ، وانما يتعداها الى أمر آخر هو ذاتية اوس وتحفّز شعوره الذي ادى به لقول بعض القصائد التي لا تهمّ قبيلته او قومه وانما تهمه لوحده فقط بالاضافة لنصرته لآخرين استنجدوا به .

وعلى ذلك فهناك ثلاثة بواعث رئيسية لهجائه وهي :

١ ـ **العصبيّة القبليّة** : التي كانت تهزّه فتجعله يهجو القبائل والبطون المعادية لقبيلته وقومه .

٢ ـ **العصبية الذاتية** : التي دفعته لهجاء بعض الاشخاص لاشياء تتصل به شخصياً دون قومه .

٣ ـ **نجدته للآخرين الذين استغاثوا به .**

أهم مهجويه :

على الرغم من خلو ديوان اوس من الشروح الكافية لهجائه واسماء مهجويه ، إلا انننا نلمح من خلال ابيات قصائده ، بعض أسماء من هجاهم ، كبني لبينى وبني جديلة وبشر بن عمرو وقيس بن عاصم وام الحصين وبني سعد بن مالك بن ضبيعة ، وعوف بن مالك وعمرو بن مالك وبني عامر والحكم بن مروان بن زنباع العبسي وبني كاهل وبني الحارث بن سدوس بن شيبان وجميل بن الارقم وبني الابرص وام الردين . . الخ . . ممن سنتعرض لاكثرهم بعد ايرادنا المقومات الرئيسية للهجاء .

المقومات الرئيسية للهجاء

قبل ان نبدأ باستعراض هجاء اوس لا بد لنا من ذكر المقومات الرئيسيه التي يجب توفرها في الهجاء ليبلغ النجاح، وليصل الى مراميه التي من اجلها قيل .. وهذه المقومات يمكن اجمالها في النقاط التالية :

١ ـ انتهاج اسلوب الطعن والتعيير بالمثالب القبلية مع التجريد من :

آ ـ النسب الرفيع . ب ـ نبل المحتد والشجاعة . جـ ـ الجود والكرم . د ـ المروءة . هـ ـ حماية الجار .

٢ ـ اضافة السيئات والصاق النقائص بالمهجو كاللؤم والبخل .

٣ ـ انتهاج اسلوب التحقير والتفضيل والمقارنة المتحيزة .

٤ ـ انتهاج اسلوب التهكم والسخرية بالاشكال التالية :

آ ـ المعنوي . ب ـ الشخصي . جـ ـ الجسماني .

مع ضرورة استخدام وسائل الاضحاك والتشبيه بالحيوانات وكل ما من شأنه رسم الصور « الكاريكاتورية » للمهجو .

٥ - انتهاج أسلوب الافحاش الأدبي مع عدم ذكر العورات

٦ - ذكر ماضي المهجو ومن ينتسب اليهم وما في حياتهم من المخازي والهزائم في الوقائع .

٧ - التصريح باسم المهجو ونسبته مع التركيز على نقائصه .

٨ انتهاج البساطة والوضوح في ايراد الالفاظ والجمل والتراكيب ووضعها في الاماكن الملائمة لها في بنيان القصيدة ، مع كونها سهلة الفهم ، غير مهلهلة ، ولا مستكرهة على السمع .

٩ - الاستعانة بفنون البلاغة دون إسراف ، ولا تقتير ، وبشكل ترد فيه متلائمة مع مقتضى الحال .

١٠ - الصدق في الاداء ، وشيوع الانفعال في كافة الابيات . . .

وعلى العموم فان تواجد كل تلك المقومات ، ليس ضرورياً ، فلكل شاعر ابداعه الذاتي في مثل هذا المجال (مجال الهجاء) الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بنفسه ، باعتباره نتيجة حتمية لتوفّز احساساته وشعوره واهتزاز كوامن نفسه وتفتّحها وانفعالها .

هجاؤه لبني لبينى :

ان أول ما يلفت نظرنا ويستر عي انتباهنا في ديوان أوس ، ذلك التركيز الواضح على هجاء بني لبينى من بني أسد بن وائله . . ولكن

الشيء الهام في هـذا المجال ، افتقادنا لسبب هذا الهجاء الذي نرجعه للعصبية القبلية التي جعلت أوساً في قصائد اخرى من ديوانه ، يصب جام غضبه ويرسلها أبيات هجائيـة في بني أسد الذين ينتسب اليهم بنو لبينى .

وقـد هجا أوس بني لبينى بأبيات وردت في ثلاث مقطوعات سنستعرضها على التوالي لنبيّن ما فيها من مميّزات وما لنا عليها من ملاحظات :

أبني لبينى لم أجد أحداً في الناس ألأم منكم حسباً
وأحق أن يرمى بداهية ان الدواهي تطلع الحدبا[1]
واذا تسوئل عن محاتدكم لم توجدوا رأساً ولا ذنبا

الشيء البارز في هـذه الأبيات ، انها على قلتها تعبر بوضوح عن الأفكار التي أراد شاعرنا عرضها ، فبنو لبينى بنظره أناس لم يقاربهم في اللؤم الحسيّ أحد بل هم أحق الناس بالمصائب لأنهم لا أصل لهم « لم توجدوا رأساً ولا ذنباً . . »

أما الذي نلاحظه على هذا النموذج فيمكننا تلخيصه بما يلي :

١ — لقـد كانت أفكار الشاعر ومعانيه من الوضوح والسهولة بحيث لايحتاج القارىء لأي كدّ ذهني لفهمها ، خصوصاً وقد تعمّد الشاعر

---

١ ـ الحدب : الغليظ المرتفع عن الارض ، الداهية : أراد بها قصائده الهجائية.

الباسها ثوب الصدق والجدّية والصراحة .

٢ – وبالاضافة لوضوح وسهولة الافكار والمعاني ، فقد كانت طريقة عرضها منطقية ، فبنو لبينى الأم الناس حسبا فهم لذلك أحق الناس بالمصائب وكيف لا ، وهم لا أصل لهم . . أي أنه وضع المبدأ وفنده وبرهن عليه بشكل متسلسل ومترابط ، وبأدلّة دامغة لامجال فيها للريبة ، أو الشك ، أو حتى مجرد التردد في الاقتناع .

٣ – أما الالفاظ ، فقد كانت كالمعاني التي وضعت للتعبير عنها سهلة ، وفصيحة ، وجدية ، وغير خالية من التناغم الموسيقي الذي أكسبها ذلك التلاؤم ، والتعاطف مع الجمل والتراكيب من جهة ، والموضوع الهجائي من جهة اخرى .

٤ – وعلى الرغم من قلّة الأبيات الهجائية ، فقد ظهرت براعة أوس في ايراد أفكاره بصور ملوّنة فيها من الخيال والواقع الحسي المادي ماأعطى للموضوع الهجائي رونقه الخاص .

٥ – ولقد زاد في وضوح الأبيات تلك اللهجة الخطابية الشديدة التي سادتها ، والتي أسهم في ابرازها ما نلمس من شعورالشاعر الكرهي تجاه مهجوّيه الذين رماهم بأسوأ ما ترمي به العرب : اللؤم في الحسب وانعدام الأصل .

وزبدة الكلام فان أوساً قد قدم لنا بأبياته الثلاثة المثال الحي لهجائه الذي نكاد نلمحه في أغلب قصائده الهجائية الاخرى .

أما النموذج الثاني الذي يهجو به بني لبينى فانه يشابهه في جميع نواحيه الابيات الثلاثة التي استعرضناها مع بعض الامور الاخرى التي سنأتي على ذكرها بعد استعراض الأبيات:

أبني لبينى لستم بيد ... الا يداً ليست لها عضد
أبني لبينى لا أحقكم ... وجد الاله بكم لما أجد
أبني لبينى لست معترفاً ... ليكون ألأم منكم أحد
أبني لبينى ان أمكم ... أمة ، وان أباكم عبد
أبني لبينى ان أمكم ... دحقت فخرّق ثفرها الزند[1]
تنفون عن طرق الكرام كما ... تنفي المطارق ما يلي القرد[2]

لا نعتقد أن انساناً يخالفنا في الرأي بأن قصيدته هذه تشابه النموذج الذي استعرضناه ، فالوضوح والصدق والجدية والصراحة ، أهم سماتها . يضاف اليها عقلانية عرض الأفكار ووضوح الألفاظ ، وتلاؤمها مع المعاني والجمل والتراكيب . . ناهيك عن بروز الشعور الكرهي الذي يجسده بوضوح في تكراره اسم (أبني لبينى) في كل بيت ، وايراده أدوات النفي (لستم ، لا ، لست) على التوالي ليفيد التأكيد على الفكرة والتأثير على القارىء للتشبع بها . .

---

١ ـ دحقت : خرج رحمها بعد الولادة ، الثفر : حياء المرأة . ٢ ـ القرد : ما تلبد من الوبر والصوف أو رديء الصوف.

اما ما تميزت به هـــذه الأبيات عن تلك فيتجلى بالنقطتين التاليتين :

١ ـ التهكم الذي تجلى في هذا البيت :

أبني لبينى لا أحقكم وجـد الاله بكم لمـا أجد

أي ان حب الله لهم كحب أوس لهم سواء بسواء.. وبما انه يمقتهم، فالله أيضاً يمقتهم لتساويهما في الحب التهكمي الذي أورده من خلال ألفاظ البيت .

٢ التعرض لاصلهم العائلي ، بجعل أمهم أمة ، ووالدهم عبد ، وبشكل يؤدي بهم الى ان يكونوا هجنـاء ، خاصة وانهم ينتسبون لامرأة (لبينى) لا لرجل ، مما كان يعتبره العرب مهيناً ومعيباً على أقل تقدير . . أي أنه لم يكتف بالصاق المعائب والنقائص بهم (اللؤم ، وبغض الاله . .) وانما ألحقهم بر كب الخازي فجعل أمهم أمة فاجرة (دحقت فخرّق ثفرهـا الزند) وأبوهم عبد ذليل ، يبعدون عن طرق الكرام كما يضرب الندّاف الصوف والقطن ليبعد عنها الشوائب الضارة .

تنفون عن طرق الكرام كما تنفي المطارق ما يلي القرد

أما النموذج الثالث لهجائه لبني لبينى ، فلا نعتقـد انه يقلّ شأناً عن النموذجين اللذين استعرضناهما ، اضافـة لبعض الصور الجيدة التي أتى بهـا لتجسيد أفكاره وتقريبها من الاذهان ، مع

التأكيد على بعض الافكار التي رأيناها واضافة بعض الصفات الذميمة الأخرى كالبخل . . .

عددت رجالاً من قعين تفجّساً — فما ابن لبيني والتفجّس والفخر (١)
شأتك قعين غثّها وسمينها — وأنت السه السفلى اذ ادعيت نصر (٢)
معازيل حلاّلون بالغيب وحدهم — بعمياء حتى يسألوا الغد ما الأمر (٣)
فلو كنتم من الليالي لكنتم — كليلة سر لا هلال ولا بدر

وقبل أن ننتقل لنماذج أخرى هجائية لابد لنا من الاشارة الى الملاحظات التالية على هذا النص:

١ - استعمال اسلوب المقارنة والتفضيل ، اذ قارنهم مع قعين بن حارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد وهذا مايزيدهم ذلة . .

٢ - الصاق الصفات الذميمة بهم من خلال تصوير جسّده بتشبيههم بليلة ظلماء يفتقد فيها البدر . .

٣ - ايراده بعض الالفاظ التهكمية الجسمانية المفحشة ، التلميحية حيناً (أنت السه السفلى) والتصريحية حيناً آخر (مما نحجم عن ايراده لمنافاته حدود الادب) ،فاذا به يكسب موضوعه الصور والتلوينات الملائمة .

---

١ - التفجس : التعظم والتكبر . ٢ - شأه : سبقه ، السه : لغة في الاست .
٣ - معازيل : ج معزال : وهو الذي ينزل بارض غير معروفة (للدلالة على البخل)

وعلى العموم فقـــد تميّز هجاؤه لبني لبيني بوضوح شديد وباستعمال أسلوب التحقير والتفضيل والتجريد من المكرمات ، الذي جعل منهم أناساً منحطين لا قيمـة لهم ولا أصل ، ضعفاء ، أذلاء ، البخل ديدنهم ، واللؤم أبرز صفاتهم . . .

هجاؤه لبني برد :

وكما نوهنا فقد هجا اوس كثيراً من الناس غير بني لبيني ، لا بأس من البدء ببني برد الاياديين الذين هجاهم بقوله :

قد حلأت ناقتي برد وراكبها ... عن ماء بصوة يومـاً وهو مجهور (١)
فما تنادى بها المعروف اذ نفرت ... حتى تضمنها الأفـدان والدور
قوم لئـام وفي أعناقهم عنف ... وسعيهم دون سعي الناس مبهور (٢)
ويل امهم معشراً جماً بيوتهم ... من الرماح ، وفي المعروف تنكير (٣)
اذ يشزرون اليّ الطرف عن عرض ... كأن أعينهم من بغضهم عور (٤)
نكتبتها ماءهم لما رأيتهم ... صهب السبال بأيديهم بيازير (٥)
مخلّفون ويقضي الناس أمرهم ... غسّ الأمانة صنبور فصنبور (٦)
لولا الهمام الذي ترجى نوافله ... لنالهم جحفل تشقى به العور

---

١ - حلأت الناقة : منعتها من الورود ، بصوة : ماء بذي قار ، مجهور : خرجت حمأته فهو اغزر لمائه وأعذب . ٢ - عنف : غليظ ، مبهور : مغلوب . ٣ - جم البيوت : لا رمح فيها . ٤ - يشزر : ينظر عن عداوة . ٥ - صهب السبال : الاعداء ، البيزارة : العصا الغليظة . ٦ - الغس : اللئيم الضعيف وتصلح للمفرد والجمع .

لولا الهمام لقد خفّت نعامتهم   وقال راكبهم في عصبة سيروا[1]
يعلون بالقلع البصريّ هامهم   ويخرج الفسو من تحت الدقارير[2]
تناهقون اذا اخضرّت نعالكم   وفي الحفيظة أبرام مضاجير
أجلت مرمّاةُ الأخبار اذ ولدت   عن يوم سوء لعبد القيس مذكور[3]

يبدو أن شاعرنا في هذه الأبيات أراد الامعان في هجاء بني برد، فألصق بهم من المساوىء ما لو وزّعت على أحسن الناس لجعلتهم في الحضيض، ويلعنون الى يوم الدين، فهم لؤماء، لا خير يرجى منهم، ضعفاء، في نظرتهم للناس غير اللؤم، عداوة (لعلها ناتجة عن نبذ الناس لهم لانحطاط قدرهم، وتحكم الآخرين بهم . . .) وبشكل عام، فهم أذلاء أشبه بالدواب منهم للآدميين لدرجة أنهم لولا حماية الآخرين لهم لهلكوا . . .

لقد ركّز أوس في هذه القصيدة على أكثر الصفات السيئة التي سبق وأضفاها على مهجويه من بني لبينى، الا أنه هنا لمّح للسبب الذي من أجله هجاهم، فهم منعوه وناقته عن ورود الماء . . وبالطبع فانه يظلّ يساورنا الشك بان هذا السبب التافه لا يكفي لهذا الهجاء المر، ولكنه عند استرساله (بالهجاء) يصف نظراتهم اليه بشكل

---

١ ـ خفت نعامتهم : فروا من الخوف ٢ ـ القلع : نوع من السيوف العتيقة الشامية، الدقارير ج دقرار : التبان ٣ ـ اجلت : تكشفت ، مرمّاة : الاخبار غير الموثوقة .

يبعث على الضحك ، فيجعلنا لذلك ننظر لسبب هجائه نظرة جدية ، خاصة وان المنع عن ورود الماء بين الاعراب البداة، كان بسبب الكثير من المشاكل بين الأفراد والقبائل حتى أنه في بعض الأحيان كان يثير الفتن . .

اذن يمكننا الاستنتاج مما سبق أن سبب هجائه ، المنع عن ورود الماء والاصرار على ذلك بدليل انه وصف نظرتهم اليه بقوله :

اذ يشزرون الي الطرف عن محمد كأن أعينهم من بغضهم عور

وفي الواقع فاننا نلاحظ في هذه الأبيات النقاط التالية :

١ ـ التركيز على الصفات السيئة (كاللؤم والجبن والخسة والانحطاط) بالتصريح حيناً (قوم لئام . . سعيهم دون سعي الناس . . وبالتلميح أحياناً (مخالفون . . غس الأمانة . .) .

٢ ـ الاغراب اللفظي في بعض الأبيات ـ الذي قل في النماذج التي هجا بها بني لبينى (حلأت ـ مجهور ـ عنف ـ مهور ـ جم البيوت ـ صهب السبال ـ بيازير ـ غس الامانة . .) والذي هو غير مستغرب عن أوس ولكنه مستكره في الهجاء الذي يجب أن تأتي كلماته وجمله وتراكيبه صريحة واضحة ، سهلة ، يستطيع فهمها جميع الناس مهما كانت مستوياتهم الثقافية والفكرية .

٣ ـ البعد عن التسلسل والترابط بين جزئيات الأفكار ، اذ كان المفروض قبل ان يحدد صفاتهم السيئة ، ان يشرح السبب الهجائي ،

كلباً فيقول :

قد حلأت ناقتي برد وراكبها عن ماء بصوة يوماً وهو مجهور
اذ يشزرون اليّ الطرف عن عرض كأن أعينهم من بغضهم عور
نكبتها ماءهم لما رأيتهم صهب السبال بأيديهم بيازير
فما تنادى بها المعروف اذ نفرت حتى تضمنها الأفدان والدور
قوم لئام وفي أعناقهم عنف وسعيهم دون سعي الناس مبهور

لأن يبـــدأ بعرض السبب . . ثم يهجو . . ثم يتمم السبب . ثم يعود للهجاء ، لأن في هذا ما يبرز الصورة التي يحاول رسمها للمهجو . . وعلى كل الاحوال ، فربما جاءت القصيدة على هذا النحو بفعل الرواة والمحققين ، وان أوساً قد أوردها على النحو الذي أوردناه . . أو لربما ملأ السبب الذي من أجله هجاهم ، نفسه ومخيلته فراح يذكره مصوّراً في أكثر من بيت في القصيدة . .

٤ ــ الصدق في الاداء ، اذ تبدو القصيدة ملتصقة بالشاعر حتى انه لا ينسى ما لاقته نفسه منهم ، فاستعمل لذلك اسلوب الالتفات في الحديث عنهم مرة كغائبين وأخرى كمخاطبين (يعلون . . تناهقون اذا اخضرّت نعالكم) . . .

٥ ــ التصوير المادي المتصل بالخيال ، والعمد الى تجسيد الافكار ببعض التشبيهات والكنايات (اذ يشزرون . . كأن أعينهم من بغضهم عور . . خفقت نعامتهم . .

وقال يخاطب بشر بن عمرو قاتل المنذر بن ماء السماء (وفي رواية اخرى قالها في عمرو بن عبد العزى بن سحيم بن مرّة بن الدول قاتل المنذر بن ماء السماء يوم عين اباغ . .) . أو بني حنيفة :

هجاؤه لقاتلي المنذر :

نبّئت أن دماً حراماً نلته | فهريق في ثوب عليك محبّر[1]
نبئت أن بني سحيم أدخلوا | أبياتهم تامور نفس المنذر[2]
فلبئس ما كسب بن عمرو رهطه | شمر ، وكان بسمع وبنظر
زعم ابن سلمي مرارة انـــه | مولى السواقط دون آل المنذر[3]
منع اليمامة حزنها وسهولهـا | من كل ذي تاج كريم المفخر
ان كان ظني في ابن هند صادقاً | لم يحقنوها في السقاء الأوفر
حتى يلف نخيلهم وزروعهم | لهب كناصية الحصان الاشقر

ان الذي يبدو من هذه الابيات ان أوساً أراد بها تحريض عمرو بن هند على بني حنيفة ، أو بني سحيم . . الخ قتلة أبيه واصفاً فعلتهم ، ذاكراً ما كان للمقتول من قيمة في قومه منذراً القتلة بسوء المصيروانهم لن يكفوا عن أفعالهم الدنيئة حتى تحرّق بيوتهم ويلفها لهب متوهج كناصية الحصان الاشقر . .

والقطعة في واقعها لاتعتبر هجاء مراً ، نظراً لعـدم التركيز

---

١ – المحبر : الجديد المزخرف من الثياب . ٢ – التامور : الدم .

٣ – السواقط : من ورد اليمامة من غير أهلها .

على الصفات الهجائية باستثناء ايراده بيتاً يذم به القاتل . .

فلبئس ما كسب ابن عمرو رهطه   شمر وكان بمسمع وبمنظر

أي أنها تعتبر من قصائد المناسبات ، وهي أميل الى اللوم منها للهجاء ، عدا عن بعض اللفتات التي أبرز فيهـا قيمة المقتول وسوء صنيع القاتل وما ينتظره وقومه من سوء المصير . . .

وبوجه عام فالأبيات كلهـا ، واضحـة الأفكار ، جيدة السبك والعرض ، لا يجد فيها القارىء أي لبس أو غموض حتى أننا نعتقـد بعدم الحاجة لتسليط الاضواء عليها ، نظراً لسهولتها ووضوحها . . .

هجاؤه لبني حنيفة :

ذكرنا أن أوس بن حجر حرض عمرو بن المنذر بن ماء السماء على بني حنيفة قتلة أبيه ، فما كان من هؤلاء إلا أن تآمروا عليه وأخـذوا معزاه فاقتسموها مستغلين مجاورته اياهم مع بني سحيم . . فقال يهجوهم :

فان يأتكم مني هجاء فإنمـا   حباكم به مني جميل بن أرقمـا(١)

تجلل غدراً حرملاء وأقلعت   سحائبه لما رأى أهل ملهما(٢)

فهل لكم فيهـا اليّ فانني   طبيب بما أعيا النطـاسي حذيما

فأخرجكم من ثوب شمطاء عارك   مشهّرة بلّـت أسافله دماً(٣)

---

١ - حباكم به : جلبه عليكم . ٢ - حرملاء : موقع تلقاء ملهم ، وملهم بأرض اليمامه . ٣ - شمطاء : المرأة التي برأسها بياض الشعر يخالطه سواد .

ولو كان جار منكم في عشيرتي إذاً لرأوا للجار حقاً ومحرما

ولو كان حولي من تميم عصابة لما كان مالي فيكم متقسّما

ألا تتّقون الله اذ تعلفونها رضيخ النوى والعض حولاً مجرّماً[1]

وأعجبكم فيها اغر مشهّر تلاد اذا نام الربيض تغمغما[2]

تختلف هذه القصيدة عن سواها أن السبب الذي من أجله قيلت ، موضح فيها . . . الا ان مايلفت النظر اليها . اتباع أوس أسلوب المحاورة والمداورة ، واللطف ، مع التلميح بالهجاء . . .

ومختصر قصته أنه جاور بني حنيفة وبني سحيم ، فأخذوا معزاه فطلبها منهم لحاجته اليها واعداً اياهم بعدم الهجاء ، الا أنه في معرض ذلك يقارن بين تصرفه هو لو جاور عشيرته احدهم ، وفعلتهم هم عند مجاورته اياهم : وكيف انه يحترم الجاور وأمواله ، بينما هم استفردوه وأخذوا ماله واقتسموه . .

الأفكار واضحة .. والعرض جيد .. واسلوب المحاورة الذي اتبعه أوس حسن ومقنع وليس فيه أي اسفاف أو هلهلة .. بل ان سلوك هذا الاسلوب العقلاني قد أكسب موضوع قصيدته — على سخافته — جدية خصوصاً عندما اتبع اسلوب المقارنة العقلية المستمدة من بيئته التي

---

١ — الرضيخ : المدقوق ، العض : القت ، وقيل من نوع العلف ، مجرم : كامل . ٢ — الأغر الأبيض ، والتلاد : القديم من المال ، الربيض : الغنم ، مغمغم : لاينام .

توجب احترام الجوار وعدم استفراد الشخص بعيداً عن قومه (لو كان جار منكم في عشيرتي . . . ، لو كان حولي من تميم عصابة . . .

كما وأن السهولة التي جاءت عليها الالفاظ والتراكيب ، واللهجة الرصينة الصادقة الأداء ، التي خاطب بها مهجويه ، كلها أعطت لموضوعه ابعاده الضرورية . . وعلى العموم فهو نموذج جيد من شعر أوس المجائي ، الذي اقنعنا بلمسات هجائية بأحقيته في قضيته . . .

هجاؤه للحكم بن مروان :

وقال يهجو الحكم بن مروان بن زنباع العبسي ، وكان قد مدحه فلم يثبه :

اذا ناقة شدّت برحل ونمرق	الى حكم بعدي فضل ضلالها[1]
كأن بــه اذ جئته خيبرية	يعود عليه وردهـا وملالها[2]
كأني حلوت الشعر حين مدحته	صفا صخرة صمّاء يبس بلالها[3]
ألا تقبل المعروف منا تعاورت	منولةُ أسيافا عليك ظلالهـا
هممت بخير ، ثم قصّرت دونه	كما ناءت الرجزاء شدّ عقالها[4]

---

١ ـ النمرق : كساء يوضع على الناقـــة . ٢ ـ خيبرية : حمى منسوبة لخيبر ، ملال : حرارة الحمى . ٣ ـ حلوت : وهبت ، البلال : ما يبل به الحلق من الماء واللبن . ٤ ـ الرجزاء : الضعيفه العجز ، التي اذا نهضت لم تستقم .

منعت قليلاً نفعه وحرمتني قليلاً، فهيا بيعـة لاتقالها
تلقيتني يوم النجير بمنطق تروّح أرطى سعد منه وضالها[1]

ان هذه القصيدة لاتختلف في وضوحها عن النماذج الهجائية التي استعرضناها، إلا أنه هنا يبدو انساناً يستعمل هجاءه ليتكسب به ويربح من ورائه، فعاطفته إذن متأثرة بالزيف، وان كان الاطار الذى جاءت به يخدعنا فنعتقد انها صادقة، مع أنه ما قالها الا بعد ان خاب أمله في ممدوحه . . . ومع كل ذلك فالقصيدة جيدة العرض والسبك، خاصة وقد ظهرت مادية أوس في ايراد الصور وتقديم الموضوع ضمن اطار من المشاهد الملونة الجميلة أمثال : كأن به اذ جئته خيبرية . . . كأني حلوت . . . صفا صخرة . . . هممت بخير ثم قصّرت . . كما ناءت الرجزاء . .

هجاؤه لبني عامر :

وقال يخاطب بني عامر عندما قتلوا بني تميم يوم جبله :

زعمتم أن غولاً والرجام لكم ومنعجا، واذكروا والأمر مشترك[2]
وقلتم ذاك شلو سوف نأكله فكيف أكلكم الشلو الذي تركوا[3]

---

١ — النجير وسعد : موضعان ، الارطى : شجر ينبت في الرمل وله رائحة طيبة الضال : شجيرة من الدق ترتفع قدر الذراع باليمن . ٢ — غول : ماء للضباب ، الرجام : جبل منعج : موضع يلي الرجام. ٣ — الشلو : البقية .

هل سرّكم في جمادى ان نصالحكم   اذ الشقاشق معدول بها الحنك
أو سرّكم اذ لحقنا غير فخركم   بأنكم بين ظهري دجلة السمك
نفسي الفداء لمن أداكم رقصاً   تدمى حراقفكم في مشيكم صكك[١]

لاريب اننا لاحظنا حتى الآن، ذلك الوضوح في ايراد الافكار بشتى النماذج الهجائيـــة ، فهو في كل مرة تقريباً يعمـد الى الشرح فيقرّب الموضوع من الواقع ، وبذلك يضعه وجهاً لوجـــه أمام القارىء .

أما في هذا النموذج فانه يعمد الى أسلوب الرد التلقائي، راسماً من خلال ذلك صورة متكاملة للموضوع ، مستعملاً لذلك المؤثرات اللغوية ذات المدلول التأثيري « زعمتم ، قلتم ، سرّكم ، أداكم » النابعة من الواقع ، فاذا به يبلغ أقصى درجات التأثير . . .

وصفوة القول أن استمداد أوس صوره من الواقع قد أكسب أبياته صدقاً وجودة ، ساعده فيها ، المادية الحسية التي بدت متصلة ، دون اسراف ولا تقتير مع الخيال . . . ناهيك عن وسائل الاقناع التي اتبعها ، من سرد للموضوع أو التصريح بأهم نقاطه .

---

١ – الحرقفتان من الانسان وغيره ، رأسا الوركين اللذان يتصلان بالصلب وهما القرانان، الصكك : اصطكاك الركبتين .

وقلتم ذاك شلو سوف نأكله   فكيف أكلكم الشلو الذي تركوا؟
نفسي الفداء لمن أداكم رقصاً   تدمى حراقفكمْ في مشيكم صككُ

بل انه لم ينس إثناء سرده ايراد الصور الجدية حينـاً والساخرة الضاحكة احياناً (تدمى حراقفكم في مشيكم صكك) .

هجاؤه لبني مالك :

ولا يبرأ اوس في هجائه من الفحش فإذا به يورده بشكل خاص في هجائه لبني مالك بن ضبيعة بقوله :

طلس العشاء اذا ما جن ليلهم   بالمنديات الى جاراتهم دلف [1]
والفارسية فيهم غير منكرة   فكلهم لأبيه ضيزن سلف

انه من غير المرغوب فيه ايرادنا الابيات الفحش في هذا الكتاب لذلك نكتفي بالاشارة فقط ، سيما وان الابيات المتقدمة توضحه .

ان اوساً يرمي مهجويه باتيان الفواحش والمخزيات لدرجة ان الواحد منهم تبلغ به الخطة والدناءة حد مزاحمة ابيه في امرأتـه « ضيزن » بل ولا يستحي ايضاً من اتيان خالته « سلف » .

ووواضح انه لم يركز في قصائده الاخرى على هذه الناحية باستثنـاء تلميحه في احدى اهاجيه لبني لبينى عندما وصمهم ورمى امهم بفقدان الحياء .

---

١ – طلس : ج أطلس : وهـو الذي يرمى بقبيح ، المندبات : المخزيات دلف : مسرعون .

أبني لبينى إن أمكم دحقت فخرق ثفرها الزند

لا نرى بعد هذا التوضيح وتسليط الاضواء اي موجب للاستطراد فالمعاني واضحة وكذلك الالفاظ ، والخصائص العامه لهذا النموذج تكاد تكون مشابهة لسواه من النماذج الاخرى التي استعرضناها .

هجاؤه لأم الردين :

وما دمنا قد وصلنا في استعراضنا للنواحي الخلقية التي تعرض لها أوس في هجائه ، فلا بد لنا من التعرض للنموذج التالي الذي قاله في أم الردين :

فما ام الردين وان ادلت بعالمة باخلاق الكرام [1]
إذا الشيطان قفع في قفاها تنفقناه بالحبل التؤام [2]

والذي ركز فيه على الاخلاق ، غير مغفل ايراد التصوير المضحك (اذا الشيطان قفع في قفاها) الذي أدى المعنى المطلوب منه أداءً كاملا ، فجعل النموذج واضحاً لا حاجة لقول المزيد فيه .

وقبل الانتقال الى ذكر الخصائص العامة لهجائه ، لا بد من استعراض هذا النموذج الذي قاله عندما استنجد به شمث بن سهم بن محجن لاغارة قوم على إبله :

سائل بها مولاك قيس بن عاصم فمولاك مولى السوء ان لم يغير [3]

---

٢ – أدلت : وثقت بمحبته فأفرطت في دلها . ٣ – تنفقف : استخرج ، التؤام : المزدوج . ٤ – التغيير : الاصل اعطاء الدية .

لعمرك ما ادرى أمن حزن محجن شعيث بن سهم ام لحزن بن منقر
فما انت بالمولى المضيّع حقه وما أنت بالجار الضعيف المستر

ملاحظة

والآن يكفينا ما أوردناه من امثلة ونماذج عن هجائه ، الا أننا نود لفت النظر الى ان الشاعر قد قال أشعاراً اخرى تتصل بعصبيته القبليه بما لا يتضح فيها الهجاء ، وانما تبدو عليها مسحة العتاب واللوم فآثرنا لذلك عدم التعرض لها خشية الاطالة .

الخصائص العامة لهجائه

يمكننا الآن بعد ان استعرضنا النماذج المختلفة لهجائه ، ايراد الخصائص العامة التي نجملها فيما يلي :

١ ـ **وضوح الافكار الهجائية وصراحة أدائها .**

٢ ـ **الصاق الصفات السيئة بالمهجوين والتركيز على مثالبهم وما يؤخذ** عليهم من لؤم ودناءة أصل وبخل . .

٣ ـ **الاقلال من الفحش مع عدم الخلو منه تماماً** (هجاؤه لبني لبينى وبني مالك) .

٤ ـ **اعمال الوسائل العقلية** في سبيل الاقناع والبرهنة على صحة ما يلحقه بمهجويه من المخازي والمعائب .

٥ ـ **استعمال اسلوب المقارنة والتفضيل ، مع الامعان في سلب المهجو من الصفات الكريمة** التي يحبها العرب كقوله .

عددت رجالا من قعين تفجّساً فما ابن لبينى والتفجّس والفخر

٦ ـ اسلوب التهكم والسخرية والعمد الى تصوير مهجويه بابشع الصور مع انتهاج (الكاريكاتورية) في ذلك كقوله :

- واذا تسوئل عن محاتدكم لم توجدوا رأساً ولا ذنبا
- أبني لبينى لا أحقكم وجد الاله بكم كما اجد
- ولو كنتمُ من الليالي الكنتمُ كليله سر لا هلال ولا بدر
- اذيشزرون الي الطرف عن بغض كأن أعينهم من بغضهم عور
- نفسي الفداء لمن اداكم رقصاً تدمى حراقفكم في مشيكم صككك
- اذا الشيطان قفّع في قفاها تنفقناه بالحبـــل التؤام

٧ ـ اشتراك الخيال في تجسيد الافكار عن طريق بعض التشابيه والاستعارات والكنايات وبشكل يلحظ فيه الاستمداد من البيئة البدوية .

٨ - استعمال بعض الوسائل البلاغية الاخرى غير التشابيـــه والاستعارات والكنايات في سبيل تقريب المعنى ثم تأكيده :

آ ـ كتكرار العبارات مثال : « ابني لبني . . . » التي تكررت في قصيدة واحدة خمس مرات ، الا انها لم تعب الاداء كما كان الحال لدى الشاعر المهلهل ، وانما قوته ، وزوّدته بالتأثير الكافي .

ب ـ وكاستعمال اللهجة الخطابية حيناً ، ثم الكلام عن الغـائب احياناً : يخلفون ويقضي الله أمرهم . . ، تناهقون اذا اخضـــرت نعالكم . . .

جـ ـ وكاستعمال بعض الأدوات المؤكدة أو النافية (لستم ، لا لست) .

٩ ـ استعمال الالفاظ السهلة والتراكيب والجمل البسيطة التي لا تحتاج الى كد ذهني في سبيل فهمها واستيعاب المعنى الذي وضعت للتعبير عنه ، مع عدم الخلو تماماً من الاغراب اللفظي الذي جاء قليلا في الهجاء ، على عكس ما كان عليه في الوصف .

١٠ ـ ظهور المادية الشديدة في اشكال وتصاوير اكثر أبيات نماذجه الهجائية .

١١ ـ شيوع الصدق في أداء ، جميع أبيات النماذج ، باستثناء النموذج الذي هجا به الحكم بن مروان بن زنباع العبسي ، لكون الدافع له التكسب المدحي .

الرثـاء

تكثر في ديوان أوس قصائد الرثاء التي انصب اكثرها على فضالة بن كلده الذى سبق وذكرنا فضله على أوس عندما وقع عن ناقته في ارض بني أسد ، فاندقت فخذه وبات ليله حتى جاء فضالة بأهله ، فضرب خيامه واقام عليه حتى شفي ...

ويشارك فضالة في قصائد أوس الرثائية عمرو بن مسعود بن عدي الأسدي الذي قال فيه أوس قصيدة رثائية لا بأس باستعراضها بعد النماذج الرثائية لفضالة بن كلده .

بـواعثـه

ما من شك ان انسانا لا يرثي آخر ما لم يكن يحبه ، ويكن له من الاعجاب والوجد الشيء الكثير ، لذلك لا غرابة اذا رأينا أوساً يرثي بعـــدد وافر من قصائده فضالة بن كلده الذي اعتنى به مع أهله عندما كان في اسوأ الحالات ..

كما وأن عمرو بن مسعود فيما يحدثنا الرواة عنه انه أحد الاثنين اللذين قتلهما النعمان بن المنذر وبنى عليهما الغريين بظهر الكوفه ..

وقيل بل هما اللذان قتلهما المنذر ومن اجلهما اتخذ يوم البؤس ويوم النعيم .. في حين تأتي رواية ثالثة لتقول انهما عمّا اللذان قتلهما كسرى ...

والذي يهمنا من ذلك كله ، أن أوسا رثى عمرو بن مسعود ، الا اننا نفتقد في هذا السبيل الصلة التي كانت بين الشاعر والمرثي .. ولكن حسبنا من ذلك كله هذه المرثية الناجحة ...

وعلى ذلك فالباعث الرئيسي لرثاء أوس فضاله وعمرو اعجابه بهما وتأثره الشديد لفقد هما ....

المقومات الرئيسية للرثاء

لا بـد لنا ونحن بصدد استعراض رثاء أوس من التعرض لذكر المقوّمات الرئيسية التي يجب توفرها في المرثية لتكون ناجحة معبرة عن هذا الغرض الشعري الوجداني الذي يتصل مباشرة بعواطف الشاعر وانفعالاته ازاء مصابه بفقـد شخص عزيز عليه ..

وقبل أن نستعرض المقومات ، يجدر بنا التنويه بأن الرثاء يشبه الى حد بعيد المديح مع بعض الفوارق التي سنشير اليها في اماكنها :

أما المقومات الرئيسية للرثاء فيمكن تلخيصها بما يلي :

١ ـ ذكر الصفات الحسنة التي كان يتحلى بها الفقيد ، كالعقل والعفة

والشجاعة والجود مع ضرورة التركيز عليها بواقعية وصدق .

٢ ـ **الابتعاد التام عن التهويل** : وتكلف الحزن الذي من شأنه اظهار المرثي بشكل مضحك ويبعث على السخرية لا على التأثر والحزن.

٣ ـ **الالتزام التام بالأداء الصادق** : الذي يوحي بالاسى ويدل على مبلغ التأثر لفقد شخص عزيز .

٤ ـ **التركيز على ماخلفه موت الفقيد من آثار على الاخرين** وعلى المجتمع بشكل عام ...

٥ ـ **استعمال الالفاظ والجمل والتراكيب الملائمة للحزن** مع الابتعاد عن الالفاظ التي من شأنها الايحاء بغير الحزن .

٦ ـ **الابتعاد عن الصخب والضجيج عند الاداء** ، والعمل على اشاعة الهدوء والسكينة في اجواء الابيات .

٧ ـ **الابتعاد عن سلم القصيدة التقليدي** ، فلا يجوز للشاعر الوقوف على الاطلال والتغزل ووصف مشاهد الارتحال ثم الرثاء ، لأن اهتزاز اوتار القلب لفقدان شخص عزيز ، يجب ان يتبعه دفق عاطفي مؤثر لا أشياء اخرى كالغزل ووصف الاطلال ومشاهد الارتحال التي تجعل الرثاء متكلفا خاليا من العاطفة الصادقة .

٨ ـ **الاستعانة بالتصاوير المادية والمعنوية التي يشارك في تجسيد ايحاءاتها ، الخيال غير المسرف في البعد عن الواقعيه** ، باعتبار ان الرثاء ما هو الا تجسيد لفيضان العاطفة ، فالجفاف المادي يكسب موضوعه

خشونة لا تتحاكى معها النفوس ولا تنفعل بها الاحساسات ...

٩ ـ **الابتعاد عن كل مامن شأنه تصوير بعض الاشياء وقد بكت على الفقيد**، فلا يقال بكت الخيل على فارسها، لان في ذلك سبّة وعارا على الميت، بل ان الذي يبكي عليه عادة من كان يحسن اليه أو يوده في حياته.

وكما سبق ونوهنا في مناسبة اخرى، فانه من غير الضروري اجتماع كل هذه الدعائم في المرثية الواحده، فلكل شاعر دموعه وعبراته التي يذرفها على من يعز عليه فقدهم، خاصة وان هذه الامور تتصل ـ كالهجاء ـ بنفسية الشاعر، وشدة تأثرها بالمصاب الأليم ..

رثاؤه لفضالة بن كلدة :

لقد رثى شاعرنا فضالة بن كلده، با كثر من اربع قصائد سنستعرض بعضها لندل على ما فيها من مميزات وخصائص :

ايتها النفس اجملي جزعـــا	ان الذي تحذرين قـــد وقعا
ان الذي جمع السماحـة والنـ	ـجدة والحزم والقوى جمعـــا
الالمعي الذي يظن لك الظـ	ـن كأن قد راى وقد سمـــعا[1]
والمخلف المتلـــف المرزأ لم	يمتع بضعف ولم يمت طبـــعا[2]
والحافظ الناس في تحوط اذا	لم يرسلوا تحت عائذ ربعـــا[3]
وازدحمت حلقتا البطان باقـ	ـوام وطارت نفوسهم جزعـــا[4]

١ ـ الالمعي : الحديد اللسان . ٢ المرزأ : الذي تناله الرزئيات في ماله لما يعطي ويسأل، الامتاع : الاقامه . ٣ ـ تحوط وقحوط : اسمان للسنة المجدبة .
٤ ـ ازدحمت حلقتا البطان : مثل يقال اذا بلغ الامر في المكروه حده .

وكانت الكاعب الممنعة الـ حسناء في زاد أهلها سبعا
اودى وهل تنفع الاشاحة من شيء لمن قد يحاول البدعـا
ليبكك الشرب والمدامة والـ فتيان طرآ وطامع طمعـا
وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعـا[1]
والحي اذ حاذروا الصباح وقد خافوا مغيرا وسائرا تلعـا[2]

بعد ان اوردنا هذه الأبيات لا بد لنا من استعراض الملاحظات التالية :

١ - لقد وفق الشاعر أيما توفيق في هذا المطلع الذي يجلب العبرات الى أقسى قساة القلوب ، باعتباره يعبر عن حقيقة الانسان وكيف ان مآله الاول والاخير ، الموت .. كما وان الافكار التي أتى على ذكرها واضحة وتعبر بشكل صريح عن الصفات الحسنة التي كان يتمتع بها الفقيد : حزم ، سماحة ، نجده ، كرم ، مروءه . . . الخ

٢ - كما وفق أيضا في تصوير افكاره وتجسيدها وعرضها متسلسلة مرتبة لا إسفاف فيها ولا غموض .. فللفقيد صفات حسنة (عددها) وقد ولت مع صاحبها ، فليبك هؤلاء الذين كان الفقيد يودهم ويحسن اليهم لانه لن يعود .

٣ - لقد غلبت المادية أوسا ، حتى في معرض رثائه ، ولكن ما

---

١ - النواشر : ج ناشرة عصب الذراع ، التولب : ولد الحمار ، الجدع : السيء التغذية . ٢ - التلع : الذي يطلع عليهم مغيراً .

تجدر الاشارة اليه هنا ان هذه المادية جاءت ملائمة لواقع الحـــال باعتبارها مجسدة على هيئة صور حية من واقع البيئة التي كان الشاعر يعيش فيها : الحافظ الناس في تحوط ... ازدحمت حلقتا البطان .. الكاعب الممنعة الحسناء .. ذات هدم عار نواشرها..الخ

٤ـ لقد ظهر الصدق في الاداء والهدوء في اجواء القصيدة منذ المطلع والى النهاية ، حتى ليشعر القارىء بفيض من العبرات تترقرق بها عيناه حزنا على هذا الفقيد الكريم المحسن المنجد الناس في كل المناسبات ..

٥ ـ لقد تميز النموذج بكثرة الصور الحية التي شارك خيال اوس في صنعها .. والتي قربها من الواقع تجسيدها بواسطة سيل من التشابيه والصور المادية ..

٦ ـ كما ان ما زادها قربا من النفوس سهولة الفاظها ووضوحهـــا وجدنها وتلاؤمها مع الموضوع الرثائي الذي نظمت فيه ..

٧ ـ اما السمة الرئيسية فهي الصدق العاطفي الذي برز في كل جزئيات القصيدة فاكسبها حلة جميلة ورسخ الفكرة القائلة بان اوسا قد وفى فقيده حقه من الرثاء بل لا نغالي اذا قلنا بانه ذرف عليه دمعات حرى سنعود لملاحظتها في النماذج الاخرى ..

وقد نجد مثل هذه الملاحظات في نماذجه الأخرى التي قالها في رثاء فضالة مع بعض الفروق :

ألم تكسف الشمس والبدر والـ ... ـكواكب للجبل الواجب[1]
لفقـــد فضالة لاتستوي الـ ... ـفقود ولا خلـة الذاهب[2]
ألهفـا على حسن أخلاقـــه ... على الجابر العظم والحارب[3]
ورقبتـــه حتمات المـــلو ... ك بين السرادق والحاجب[4]
ويحبو الخليل بخير الحبا ... ء ، غير مكب" ، ولاقاطب
ويكفي المقـالة أهل الرجا ... ل ، غير معيب ، ولا عائب
فمن يك ذا نائل يسع من ... فضـالة في أثر لاحب[5]
هو الواهب العلق عين النفيـ ... ـس والمتعـلي على الواهب[6]
نجيـح ، مليـح ، أخـو مأقط ... نقاب يحـدّث بالغائب[7]
فأبرحت في كل خير فمـــا ... يعاشر سعيك من طالب[8]

يتضح لنا من استعراض هذه الأبيات ماسبق ورأيناه في النموذج السابق باستثناء الفارقين التاليين :

---

١ ـ الواجب : الساقط : الذاهب : الغائب . ٢ ـ الفقود : المصائب . الخلة : أصلها الثلمة . ٣ ـ الحارب : المحارب أو الذي يسلب الناس أموالهم في الغزو وكان العرب يتمدحون بذلك . ٤ ـ رقبته : انتظاره اذن الملوك . ٥ ـ اللاحب : الواسع الذي لاينقطع . ٦ ـ العلق : النفيس الكريم من كل شيء . ٧ ـ رجل نجيح : منجح الحاجات ، المأقط : موضع مجتلد القوم ، نقاب : منقب في الأمور . ٨ ـ أبرح : زاد وتفوق .

١ - **المطلع** : الذي غلب عليه طابع التهويل المستكره في غرض يرتبط بالانفعالات والتأثرات كالرثاء . . .

٢ - **الايجاز** الذي بدا عند ايراد المعاني العامة للنموذج الرثائي .

أما ما تبقى من القصيدة فيسوده الصدق العاطفي ، والسهولة اللفظية ، والمادية الشديدة ، بحيث جاءت كافة جزئيات النموذج جيّدة ، ولكن ليست بنفس المستوى الذي وردت عليه قصيدته السابقة . . .

غير أن أوساً ، وان كان قد أتى في مرثيتيه السابقتين بأكثر الخلال الحميدة ، الا انه لم يجمعها الا في النموذج التالي :

عينيّ لابدّ من سكب وتهمال	على فضالة جلّ الرزء والعالي(١)
جمّا عليه بماء الشأن واحتفلا	ليس الفقود ولا الهلكى بأمثال(٢)
أما حصان ،فلم تحجب بكلتها	قدطفت في كل هذا الناس أحوالي(٣)
على امرىء سوقةٍ ممن سمعت به	أندى وأكمل منه أي إكمال(٤)
أوهب منه لذي أثر وسابغة	وقينة عند شرب ذات اشكال(٥)

١ - العالي : الأمر العظيم ، جل الرزء : عظيمه . ٢ - جم : اكثر ، الشأن : عرق الدمع من الرأس الى العين . ٣ - الكلة : الحجاب أو ما تستر به المرأة خيمتها أو على هودجها . ٤ - السوقة : كل من كان دون الملوك عند العرب . ٥ - الأثر : فرند السيف ورونقه ، السابغة : الدرع .

أبا دليجة من يوصي بأرملة ؟ ؟   أم من لأشعث ذي طمرين طملال [1]
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا   لدى ملوك أولي كيد وأقوال
أم من لقوم أضاعوا بعض أمرهم   بين القسوط وبين الدين دلدال [2]
فرّجت غمهم وكنت غيثهم   حتى استقرت نواهم بعد تروال
أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ   أمسوا من الأمر في لبس وبلبال [3]
أم من لأهل لواء في مسكّمة   في أمرهم خالطوا حقا بإبطال [4]
أم من لعادية تردى ململمة   كأنها عارض من هضب أوعال [5]
يوماً بأجود منه حين تسأله   ولا مغب بترج بين أشبال [6]
ليث عليه من البردي هبرية   كالمرزباني عيّال بآصال [7]
يوماً بأجرأ منه حد بادرة   على كمي بمهو الحد قصّال [8]
لازال مسك وريحان له أرج   على صداك بصاف اللون سلسال [9]
ورثتني ود أقوام وخلتهم   وذكرة منك تغشاني بإجلال [10]

---

١ – الأشعث : المتغير اللون والهيئة من الجوع والهزال ، الطملال : الفقير ، الثوب البالي
٢ – القسوط : العصيان ، دلدال : متذبذبون . ٣ – اللبس : الاختلاط ، البلبال : الفوضى . ٤ – المسكمة : المضلة من المصائب التي لا يهتدى فيها لوجه الأمر ، الهوي : ما جف وذبل من الزرع ، ٥ – العادية : الكتيبة ، ململمة : مجموعة ، ذات أوعال : هضبة في ديار بني تميم . ٦ – المغب : الأسد الذي يفترس يوما ويترك يوما ، ترج : مأسدة من بلاد خثعم . ٧ – الهبرية : ما تساقط عليه من أطراف البردي ، المرزباني : رئيس من العجم ، عيال : متبختر ، الآصال : ج أصيل : ما بين العصر والمغرب . ٨ – البادرة : شباة السيف ، المهو : السيف الرقيق . ٩ – الأرج : الرائحة الذكية . ١٠ – الخلة : (بضم الخاء) : الصداقة .

فلن يزال ثنائي غير ما كذب قول امرىء غير ناسيه ولا سالي
لعمر ما قدر أجدى بمصرعه لقد أخل بعرشي أي اخلال
قد كانت النفس لو ساموا الفداء به اليك مسمحة بالأهل والمال[1]

لقد جمع في هذه القصيدة كل الفضائل ، فجعل فضالة اكثر الناس كمالا وعفة وعقلا ورأيا وبذلا وسماحة وجودا وشجاعة .. بل أن التوفيق حالفه اذ استطاع اظهار هذه الامور متجانسة متلائمة لا يدخل المرء اي شك في فضائل المرثي ، خصوصا وقد ختمها بأبيات تدل على مبلغ حزن الشاعر لفقد هذا الانسان العظيم ..

وتتميز : هذه القصيدة عن النماذج الأخرى الرثائية بالنقاط التالية :

١ ـ استطاعة أوس جمع كل الفضائل واكساء شخصية فضالة بها .

٢ ـ العمق النفسي الذي حوته الغالبية العظمى من الابيات والاندفاع العاطفي الذي تجلت به .

٣ ـ ظهور الشاعر بمظهر الشخص المرزأ الفاقد لأعز الناس الذي يستحق ان تفدى به الانفس مهما غلت .

٤ ـ استعمال الألفاظ والجمل والتراكيب الملائمة للرثاء عامة ، وللأفكار التي وردت في القصيدة بشكل خاص : سكب وتهال ، جل الرزء ، أم حصان ، فرجت غمهم . . . الخ . .

---

١ ـ مسمحة : جائدة مضحية .

٥ ـ الإكثار من الصور الملونة . في سبيل ابراز أثر المصيبة على قومه ومجتمعه والناس أجمعين : أم حصان ، أرمله ، من يكون خطيب القوم ، من لقوم أضاعوا بعض أمرهم . . فرجت غمهم ؛ وكنت غيثهم . . من يكفي العشيرة ؟ من لأهـل لويّ في مسكّعة . . ؟ ليث عليه من البرديّ هبرية . . . الخ . .

٦ ـ الاكثار من أدوات النـداء والاستفهام : عينيّ . . أبا دليجة . . من يوصي بأرملة . . أم من يكون خطيب القـوم . . ؟ ؟ من لقوم . . ؟ . . من يكفي العشيرة . . من لأهل لواء . . ؟ . . الـخ .

٧ ـ شيوع الهدوء الانسيابي المترافق مع صدق الأداء في كل أبيات القصيدة بحيث تمتعت بفضل ذلك بأجواء جعلتها من قصائده الرثائية الناجحة .

٨ ـ وعلى الرغم من عـدم خلوّها من بعض الألفاظ الغريبة ، إلا أنها كانت ناجحة ومعبّرة عن حزن الشاعر وتأثره لموت فضالة ، الى جانب ما خلّفه في المجتمع من أسى وألم وحرمان . . .

٩ ـ وبالاضافـة لمـا ذكرنا فقد حفلت القصيدة بسيل من التشابيه الجميلة التي سيطرت عليها المادة المقتبسة من البيئة البدوية . . .

رثاؤه لعمرو بن مسعود :

في الحقيقة ان رثاء أوس لعمرو بن مسعود يشبه الى حد بعيد مارثي به فضالة بن كلدة ، فهو يسبغ عليه سائر الصفات والمناقب الحسنة :

ياعين جودي على عمرو بن مسعود	أهل العفاف وأهل الحزم والجود
أودى ربيع الصعاليك الألى انتجعوا	وكل مافوقها من صالح مودي(١)
المطعم الحي والأموات ان نزلوا	شحم السنام من القوم المقاحيد(٢)
والواهب المائة المعكاء يشفعها	يوم النضال بأخرى غير مجهود(٣)
ان من القوم موجوداً خليفته	وماخليف أبي وهب بموجود

وقبل الانتقال لايراد الخصائص العامة لرثاء أوس ، لابد من القول بأن **قصيدته هذه في رثاء عمرو بن مسعود لم تكن بمستوى الجودة الذي لاحظناه في النماذج الرثائية التي قالها بفضالة** ، ولعل السبب ، شدة تأثر أوس وحزنه على فضالة بن كلدة الذي وقف الى جانبه عندما كان بأمس الحاجة لمن يساعده ويعتني به بعد أن اندقت فخذه .

---

١ - اودى : هلك واسم الفاعل مود ، الصعلوك: الفقير . ٢ - الكوم : ج كوماء الناقة السمينة ، المقاحيد : ج مقحاد : الناقة العظيمة السنام . ٣ - المعكاء (بكسر الميم) : الابل الغلاظ الشداد ، النضال : المحاربة بالسهام .

الخصائص العامة لرثائه

لاريب ان قصائد أوس في الرثاء، جيدة على وجه العموم (وان تفاوتت في مقدار الجودة)، ومما زاد في ذلك كونها معبّرة بوضوح عن صدق عاطفة الشاعر ازاء من رثاهما، واستطاعته التعبير عن مشاعره بسهولة ويسر وبشكل يحمل طابع شخصيته الشعرية، لذلك لا نجد مناصاً من القول بأن نماذجه الرثائية ناجحة، وتجمع الغالبية العظمى من المقوّمات الاساسية للرثاء الناجح، وعلى وجه الخصوص:

١ – **الصدق في التعبير عن الحزن والألم**: لفقدان عزيز ونجاحه بإبراز ذلك شكلاً وموضوعاً.

٢ – **البراعة في ايراد الخلال الحسنة**: والمناقب العظيمة والباسها بتفنن ملحوظ شخصية المرثي.

آ – بذكر غالبيتها الكبرى في قصيدة واحدة كما رأيناه يفعل في التي مطلعها.

عينيّ لابدّ من سكب وتهمال   على فضالة جلّ الرزء والعالي

ب - بتكرار ذكر الصفة نصاً أو معنى، تصريحاً أو تلميحاً في في أكثر من قصيدة، ولكن بالباسها في كل مرة تقريباً حلةجديدة تتلاءم مع الجو العام للقصيدة كقوله:

- لازال مسك وريحان له أرج   على صداك بصافي اللون سلسال
- لازال ريحان وفغو ناضر   يجري عليك بمسبل هطّال
- أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ   أمسوا من الأمر في لبس وبلبال
- وقوارص بين العشيرة تتقى   داويتها وسملتها بسمال
- فرّجت غمّتهم، وكنت غيثهم   حتى استقرت نواهم بعد تزوال
- فلنعم رفد الحي ينتظرونه   ولنعم حشو الدرع والسربال

٣ - **الجنوح لتجسيد الأفكار وخاصة المتضمنة ابراز أثر موت المرثي عليه وعلى قومه وأبناء مجتمعه، بايرادها على شكل صور ملونة**، مؤثرة، واقعية: من يوصي بأرملة..؟..أم من لأشعث ذي طمرين طملال..أم يكون خطيب القوم اذا حفلوا..أم من لقوم أضاعوا بعض أمرهم..من يكفي العشيرة..من لأهل لواء..الخ..؟؟

٤ - **الجنوح للعاطفة أكثر من الاعتماد على العقل في عرض الأفكار** بدلالة ندرة الحكم، أو عدم وجودها تقريباً في نهاية المراثي، إضافة لتعمد الاتيان بجميع الصور التي تستدر العطف والشفقة

كقوله: الكاعب .. ذلك هدم عار نواشرها.. من يوصي بأرملة ..؟؟ ولدرجة أن المرأ يشعر بأن هؤلاء الناس سيموتون بعد أن مات ذلك الشخص الكريم ..

٥ - النجاح في إيراد الألفاظ والجمل والتراكيب متوافقة ومواضيع التألم والحزن والتفجع مع العناية الظاهرة بتأديتها:

آ - باستعمال أدوات النداء والاستفهام في الأماكن الملائمة لها (يا عين جودي .. عيني لابد .. أبا دليجة .. من يكفي العشيرة .. أم من لأهل ؟؟) وبشكل ساهمت فيه بابراز ابعاد القصيده، وخاصة من ناحية تقريب الموضوع الى القاري ولفت انتباهه الى المعاني التي تتضمنها.

ب - العمد الى تقديم التعابير المجسّدة للأفكار بشكل تلقائي صريح يسمح للقارىء تفهم ما أراده الشاعر بسرعة وبدون أي جهد عقلي يذكر.

ج - العناية بايراد الالفاظ والتراكيب بما يتوافق مع الاوزان والقوافي باعتبار أن معظمها تغلب عليه الرنّة الموسيقية، بالاضافة لايقاعية القافية ..

٦ - الحرص على المادية في تجسيد الأفكار وطبعها بطابع البيئة البدوية، مع اشراك الخيال معها في سبيل تجسيد الصور وجعلها معبّرة عن مواضيع الحزن والالم دون ابتعاد عن الموضوع

أو خروج عن الاعتبارات الانفعالية التي يجب ان تتوفر فيه . .

٧ - **التركيز على اظهار أثر موت المرثي على المجتمع بشكل عام وعلى الشاعر بشكل خاص** (وهو ما ظهر بوضوح في المقطع الاخير من القصيدة اللامية :

لعمر ما قدر أجدى بمصرعه لقد أخلّ بعرشي أيّ اخلال

٨ - **البعد عن السلّم التقليدي في قصائد الرثاء مع النجاح الساحق في مطالع القصائد** بحيث جاءت مؤثرة ومعبّرة بوضوح وعاطفية عن أثر فقدان المرثي على الراثي باستثناء هذا المطلع :

ألم تكسف الشمس والبدر والكواكب للجبل الواجب

الذي غلب عليه طابع التهويل الظاهر بكل وضوح في الكلمات وطريقة الاداء . . .

٩ - **الاعتماد بشيء من الاعتدال على بعض الفنون البلاغية في** تقريب الصور الى القارىء وجعلها مؤثرة فيه ، وذلك بالاتيان ببعض التشابيه والكنايات والاستعارات التي برزت فيها المادية والاقتباس من المحيط البدوي .

الفخر

يترافق الفخر في اغلب الأحيان مع بعض الأغراض الشعرية كالهجاء والمدح ، الا اننا نراه لدى أوس وقد ورد بمعزل عن هذين الغرضين تقريباً باستثناء بعض القصائد التي جاءت فيها أبيات الفخر بمعرض المقارنة أثناء المعاتبة القبلية .

والفخر لدى اوس ليس قليلا ، بل انه أميل الى الغزارة، مما يدلنا على أن هذا الشاعر كان معتداً بنفسه وقومه لدرجة الزهو والخيلاء .

بواعثـــه :

من استطلاعنا حياة اوس ونشأته ومكانته ، وبعد العودة الى ديوانه يمكننا اجمال البواعث التي ادت الى قصائده الفخرية بالنقاط التالية:

١ ـ العصبية القبلية : التي لعبت اكبر دور في تبلور شخصيته وشخصيات

الشعراء الجاهليين (وحتى بعض الأمويين) وخاصـــة الذين برعوا في الهجـــاء .

٢ ـ علو المكانة ، وذيوع الصيت بين قومه ، بالاضافة لعراقة أصله الذي يعود الى تميم (أو بشكل أعم الى مضر التي لقب بفحلها)

حتى تبغ عزى في تميم ومنصبي تجد لي خالا غـير مخز ٍ ولاعم

٣ ـ فحولته الشعرية :التي جعلته يزهو بها جهراً:

وقد رام بحري بعد ذالك طامياً من الشعراء كل عود ومقحم

بني ، ومالي دون عرضي مسلم وقولي كوقع المشرفي المصمم

المقومات الرئيسية للفخر

تمشيا مع المخطط الذي اتبعناه في الاغراض الشعرية الأخرى، لابد لنا قبل استعراض قصائد أوس في الفخر من ايراد المقومات الاساسية العامة التي يجب أن يتجسد بها هذا الفن ليبلغ النجاح المطلوب ،مجسدة بالنقاط التالية :

١ ـ **التركيز على عراقة الأصل ونقاء النسب وعلوه واتصاله بالملوك** أو الأشراف أو الساده ..

٢ ـ **ايراد المآثر العامة التي يتحلى بها المفتخر وأهله ، كالجود** والكرم والشجاعة والاقدام والعقل والعفة والعدل .

٣ ـ **ذكر علو المنزلة التي يحتلها المفتخر بين قومه ، وبقية الاقوام وفي المجتمع** عامة ...

٤ ـ **تقصّي تاريخ المفتخر وقومه ، وما قدموه من مآثر** وحسنات وتضحيات لمجتمعهم ،مع ضرورة ذكرها صراحة أو الاشارة اليها على اقل تقدير .

٥ ـ ايراد الألفاظ الضخمة ، والجمل والتراكيب الفخمة ، التي تتناسب مع الأفكار الفخرية .

٦ ـ اعتماد القوة في الأداء ، والصدق في الوصف مع مراعاة الواقعية حتى لا يوصم المفتخر بالادعاء ، واضافة ماليس له اليه .

ولا نريد هنا تكرار ما سبق واوردناه ، بأن لكل شاعر أسلوبه الخاص الذي يقدم به افكاره ، لذلك سنستعرض بشيء من الايجاز نماذج من فخره المتنوع الأهداف ، والذي انصب في قصيدته التي مطلعها :

تنكرت منا بعد معرفة لمي وبعد التصابي والشباب المكرم

افتخاره بأبيه وصفاته :

ان أكثر ما يشغل بال الشاعر ويعتمل في نفسه حين الافتخار ، اظهار نفسه وأهله على أحسن الصور ، لذلك فان شاعرنا ماأن بدأ في قصيدته بالغزل وعتاب الحبيبة حتى وصل الى الفخر بنفسه وأبيه فقال :

لعمري لقد بينت يوم سويقة لمن كان ذا أب بوجهة منسم (١)
فلا والهي ما غدرت بذمة وان أبي قبلي لغير مذمّم
يجرّد في السربال أبيض صارماً مبيناً لعين الناظر المتوسّم (٢)

---

١ ـ المنسمان : ظفران في خف البعير يستبان بهما أثره اذا ضل . ٢ ـ الابيض : نقي العرض من الدنس .

يجود ويعطي المال من غير ضنة ٍ ويضرب أنف الأبلخ المتغشّم (١)
يحل بأوعار وسهل بيوتـه لمن نابه من مستجير ومنعم (٢)
محلا كوعساء القنافذ ضارباً به كنفا كالمخـدر المتأجسم (٣)

★ ★ ★

لقد حرص الشاعر على تصوير نفسه وأبيه بأحسن الصور فاذا بـه يضيف من المكرمات الشيء الكثير .. انه ووالده لا يغدران بالذمة كما ان أباه نقي من الدنس ، يجود على الآخرين بدون منة ، ويضرب المتكبر الظالم بدون خوف ، ويؤوي من استجار به بكل رحابة صدر .

ولكن ماذا نطمع بعد هذا العرض للافـكار .. لندع شاعرنا مع المكرمات التي يضيفها لنفسه وأبيه ، ولنسلط الأضواء على هذا النموذج من فخره لنرى ما فيه من خصائص :

١ ـ لقد ظهر منذ البداية ، وضوح الافـكار وصراحتها حتى أن أبسط الناس ادراكا يتفهمونها بدون أي جهد أو عناء .

٢ ـ لقد اوجز الشاعر في ايراد الصفات ، ولكنه لم يخـل بتوازن الافـكار الموزعة في الابيات بحيث جاءت وفق مقتضى الحال .

---

١ ـ الضنة : البخل ، الابلخ : المتكبر ، المتغشم : الظالم .
٢ ـ نابه : قصده ، المنعم : وهو الذي يأتي القوم على قدميه حافياً . ٣ ـ وعساء القنافذ : الرمل اللين الذي تشق القنافذ تحته بيوتها ، الكنف : الجانب والناحية المخدر : الأسد في بيته : المتأجم : الذي سكن الاجمه .

٣ ـ لقد أحسن الشاعر في عرض الأفكار فاستعمل لذلك بعض الوسائل :

آ ـ كالقسم (لعمري ، والهي ..) الذي أفاده في تأكيد افكاره.

ب ـ الجنوح للعقل في سبيل اثبات أفكاره عن طريق الاستشهاد بحادثة معينة غير مشكوك فيها :

لعمري لقد بينت يوم سويقة لمن كان ذالب بوجهة منسم

فيوم سويقة الذي ذكره ، برهان لا مجال للطعن فيه على صحة ما ذكره لنفسه ولابيه من مكرمات.

٤ ـ لقد كان أداء المعاني ناجحاً ، خصوصاً عندما استعمل الالفاظ والتراكيب الموحية بالمعاني المرصودة للتعبير عنها : ما غدرت بذمة ، يجود ويعطي .. من غير ضنة ..

٥ ـ لقد ظهرت في الأبيات ـ على قلتها ـ شخصية أوس الشعرية باعتبار أن المادية سيطرت على الأبيات ، والتصوير جسد المعاني .

ولا نود الاستطراد ، فالابيات ناجحة فكرا ، وعاطفة ، وأسلوبا ومعنى ، وما علينا بعد أن اوضحنا ما أوضحناه الا استعراض بقية النماذج التي احتوتها قصيدته .

افتخاره بقومه :

بعد أن أضاف أوس لنفسه وابيه من المكرمات مايكفي لارضاء غروره ، كان عليه أن يكمل الصورة ، اذ أن تمتعه ووالده بالصفات

الحسنة ، لا يكفي لعلو منزلته ، بل لا بد له من دعمها بعلو منزلة قومه ، هؤلاء الذين يعيش واياهم ضمن مجتمع تسوده العصبية القبلية ولا يحسب فيه الا حساب القوة والمنعة والشرف والعادات الكريمة.. فليضفها كلها او بعضها على قومه ليزيد اعتزازه وفخاره ...

صبحن بني عبس وأفناء عامر بصادقة جود من الماء والدم (١)
لحينهم لحي العصا فطردنهم الى سنة جرذانها لم تحلّم (٢)
بأرعن مثل الطود غير اشابة تناجز أولاه ولم يتصرّم (٣)
لعمرك انا والأحاليف هؤلا لفي حقبة أظفارها لم تقلم
ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم (٤)
فانا وجدنا العرض احوج ساعة الى الصون من ريط يمان مسهم (٥)
أرى حرب أقوام تدق وحربنا تجل فنعروري بها كل معظم (٦)
ترى الأرض منا بالفضاء مريضة مفضلة منا بجمع عرمرم (٧)
وأن مقرم منا ذرا حد نابه تخمط فينا ناب آخر مقرم (٨)

---

١ ـ الافناء : الجماعات من الناس التي لا تعرف ، ٢ ـ لحينهم لحي العصا : قشرنهم كما يقشر لحاء العصا ، لم تحلم : لم تسمن لانها في سنة جدب ، ٣ ـ الأرعن : الجيش الكثير العدد والرعن أنف يتقدم من الجبل فينسل في الارض ، الطود : الجبل ، غير أشابة : غير أخلاط ، تناجز أولاه : يمضي أوله لا ينقطع لكثرته .

٤ ـ زبنته : دفعته ، ترمرم : تحرك ، ٥ ـ مسهم : مخطط ، ٦ـ نعروري : نركبها عرياً للدلالة على تحمل مصاعبها . ٧ ـ المفضلة : التي نشب ولدها في بطنها .

٨ ـ ذرا حد نابه : انكسر .

لنا مرجم ننفي به عن بلادنا وكل تميم يرجمون بمرجم (١)
أسيّد أبناء له قـد تتابعوا نجوم سماء من تميم بمعلم (٢)
نبيح حمى ذي العز حين نريده ونحمي حمانا بالوشيج المقرم (٣)
يرى الناس منا جلد أسود سالخ وفروة ضرغام من الاسد ضيغم (٤)

يتابع أوس رسم الصورة في قصيدته مفتخراً بقومه بعد أن ابتدأ بالافتخار بنفسه وأبيه فماذا فعل وأية صفات أضافها لهم ؟

١ ـ ان ما نلاحظه هنا ، هو ضجيج نفسه وزهوها بقوة قومه ومنعتهم وشجاعتهم ، وتفوقهم على أعدائهم . . وهو في سبيل ايراد ذلك ، والبرهنة عليه ، جسدهم في سلسلة من الصور المتلاحقة التي أظهرت كثرة عددهم وانتصارهم الأبدي على أعدائهم .

٢ ـ ولقد لاحظنا في القسم الاول الذي افتخر فيه بنفسه وأبيه ، البساطة والايجاز ، في حين نجد هنا الاسهاب الشديد ، الذي نرده الى امتلاء مخيلته بقوة قومه وكثرة عددهم « جمع عرمرم ، أرعن » في حين نأخذ عليه ايراده بعض الجمل والتراكيب التي لا يمكن فهم بعضها دون تدقيق وامعان نظر خصوصاً وأنه كان بامكان الاستغناء عنها أو تبسيطها .

---

١ ـ المرجم : مكان الرجم وهو الدفاع والمنافحة ، ٢ ـ أسيد : ابن عمرو بن تميم ، المعلم : مظنة الخير والمشهور من كل شيء . ٣ ـ الوشيج : الرمح.
٤ ـ الأسود : العظيم من الحيات ، ويقال سالخ لان الحية تسلخ جلدها كل عام .

٣ ـ وبالاضافة لما ذكرنا ، فان ايمانه بقوة قومه جعله يذكرهم بمعنى واحد في اكثر من موضع ، مع تغيير بالاداء والتزام لجدية المضمون .. الا أننا أيضاً **نأخذ عليه** .

آ ـ **كثرة التوزيع للفكرة الواحدة في عدة مواضع** ، لانها وان أديت بأشكال ومضامين مختلفة ، الا أنها تخل بتوازن الافكار ، وتؤثر على الخط التسلسلي لها ولمعاني القصيدة (ككل) من جهة ، وجزئيات الغرض الذي لأجله قيلت من جهة أخرى .

ب ـ **الفوضوية في ايراد جزئيات الأفكار** لدرجة أن القصيدة فقدت الخط التسلسلي لافكارها العامة .. ولولا خشية الاطالة في السرد لاعدنا ترتيب الابيات وفق المنطق التسلسلي للأفكار ، ولكن حسبنا ما عرضناه . وبامكان القارىء أن يعود للديوان ، للقيام بذلك بنفسه فيما لو آثر عدم الاكتفاء بالنموذج الذي أوردناه . مع اعتقادنا بأن السبب يعود اما لكثرة توزيع الفكرة الواحدة ، أو للرواة والمحققين .

٤ ـ أما ما نجح به في هذا النحو من فخره ، فهو ايراده كثيراً من الكنايات والاستعارات والتشابيه ووضعها في الاماكن الملائمة لها من القصيدة : أرى حرب أقوام تدق وحربنا تجل فنعروري .. بأرعن مثل الطود .. لعمرك أنا والاحاليف هؤلاء لفي حقبة أظفارهـا لم تقلم .. ترى الارض منا بالفضاء مريضة .. صبحن .. بصادقة جود من الماء والدم ..

يرى الناس منا جلد أسود سالخ ... وفروة ضرغام من الاسد ضيغم

٥ ـ ويبدو أن شاعرنا لا يمكنه الا أن يطبع أشعاره بكافة أغراضها، بالمادية، اذ انه حتى في هذا المجال ـ مجال الفخر ـ فانه أدى معانيه بشكل محسوس وبقوة وفخامة تتناسب مع هذا الموضوع ..

وبما تجدر الاشارة اليه أن الشاعر لم يركز في مديحه قومه الا على القوة، ملمحاً بعض الشيء الى بعض الصفات الحميدة الاخرى كالأناة وحماية العرض .. مع انه كان من واجبه الاكثار من ذلك لا الاسهاب في بيان القوة وعرض العضلات فقط.

افتخاره بنفسه وشخصيته الشعرية :

ليس من المغالاة في شيء اذا قلنا بأن أوس بن حجر، قد بلغ اكبر نجاح عندما افتخر بنفسه وبشخصيته الشعرية، ولا عجب في ذلك، فالحافز الشخصي له دوره الهام، كما ان الاعتداد الشخصي، وعلو المكانة ؛ والشعور بالتفوّق، كل ذلك يؤثر على الانسان العادي، فما بالنا بشاعر تحفل ساحة شعوره بكل هذا المزيج من المؤثرات ... ان النتيجة الحتمية لذلك، الفخر لحدّ الغرور . . ولكننا هنا لا نلمح هذه النتيجة دائماً، اذ أننا لا نجد الا شكلين من الفخر :

١ ـ فخر ذاتي يتناول شخصية الشاعر ككل .

٢ ـ فخر نفسي بشخصيته الشعرية .

لذلك نجد من واجبنا استعراض كل نموذج على حدة .

افتخاره بنفسه ومنزلته :

لم تكن الأبيات التي افتخر فيها بنفسه ، كثيرة بالقياس لبقية أشكال فخره ، وانما كانت محدودة ، ولكنها معبرة وجيدة :

تركت الخبيث لم أشارك ولم أدق ... ولكن أعف الله مالي ومطعمي (١)
فعندي قروض الخير والشر كله ... فبؤسي لدي بؤسي ونعمي لانعم
فقومي وأعدائي يظنون أنني ... متى يحدثوا أمثالها أتكلم (٢)
رأتني معد معلماً فتناذرت ... مبادهتي أمشي براية معلم (٣)
فتنهى ذوي الاحلام عني حلومهم ... وأرفع صوتي للنعام المصلم (٤)
متى تبغ عزي في تميم ومنصبي ... تجد لي خالا غير مخز ولا عم
تجدني من أشرافهم وخيارهم ... حفيظاً على عوراتهم غير مجرم

في اعتقادنا أن الافكار واضحة ، والاسلوب متين مشرق ، والعاطفة غير مشوبة بالجنوح عن جادة الصدق ، لان ما يذكره من صفاته لشخصه ومنزلته بين قومه ، قد حدثنا عنه الرواة ، أما مادية أبياته

---

١ ـ لم أدق : لم أدن . ٢ ـ يظنون : أراد بها اليقين وليس الشك . ٣ ـ المعلم المشهور الذي دل على مكانه في الحرب برفع العلم ، تناذرت : جعلت مفاجآتي ومقارعتي في الحرب نذراً بينها . ٤ ـ المصلم : القصير الاذن .

فتلك سمة مسلم بها وملحوظة ليس في هـــذه القصيدة ـ ككل ـ فحسب ، وانما تكاد تكون مسيطرة على كل أشعاره .. يضاف اليها هذا الاداء الجيد والاطار البديع الذي جاءت عليه الابيات فجعلتها ناجحة مبنى ومعنى .

افتخاره بقدرته الشعرية :

وبلغ أوس الأوج في فخره عندما يتعرض لذكر مقدرته الشعرية وسلاطة لسانه وتفوقه على كثير من الشعراء :

وإن هزّ أقوام الي وحـــددوا	كسوتهم من حبر بزّ متّحم (١)
يجيل في الاعناق منــا خزايــة	أوابدها تهوى الى كل موسم (٢)
وقد رام بحري بعد ذلك طامياً	من الشعراء كل عـود ومقحم
فجاءوا ولواسطوا على أم بعضهم	أصاخ فلم ينصت ولم يتكلـــم
على حين أن تم الذكاء وأدوكت	قريحة حسي من شريح مغمم (٣)
بني ومالي دون عرض مسلم	وقولي كوقع المشرفي المصمّم

١ ـ حبر حسن : يقال رجل به حبر الشباب أي حسنه ، والبز الاتحمي نوع من برود اليمين وأراد هنا أن هجاءه يشتهر كما يشتهر صاحب هذا اللباس .
٢ ـ الخزاية : ما يوجب الشين والعار ، الاوابد : المشتدة الضاربـــة في الآفاق وأرادبها القصائد ، ٣ ـ الذكاء : انتهاء السن واستحكامه ، شريح : ابن اوس ، القريحة : يقال قريحة الماء : اول خروجه من البئر ، المغمم المغطي .

ليس لدينا ما نضيفه من ملاحظات عمـــا سبق وأوردنا ، اللهم الا التنويه بأن **هذا النموذج يعد من أجود شعره وأقواه أداء وفكرة وأسلوباً وعاطفة وفناً** ، ناهيك عن هذا التسلسل في عرض الافكار وتلك العبارات المتينة القوية المعبرة التي أكسبت مع حسن العرض موضوعه النجاح .

وبعد .. فلقد استعرضنا أكثر أبيات القصيدة الميمية لاحتوائها عدة انواع واشكال من فخره ، ولم يبق لدينــا الا ايراد بعــض الأمثلة الأخرى من فخره ، انما بدون تعليق أو تحليل أو شــرح ، باعتبار أننا فعلنا ذلك بما فيه الكفاية في الأقسام السابقة .

قال يفتخر بأخلاقه الشخصية :

عليّ أليّة عتقت قديمـــاً فليس لها وان طلبت مرام (١)
بأن الغدر قد علمت معـــد علي وجارتي مني حرام
وليس بطارق الجارات مني ذباب لا ينيم ولا ينام (٢)
ولست بأطلس الثوبين يصبي حليلته اذا هجـــع النيام (٣)
يقرع للرجال اذا أتوه وللنسوان اذ جنّ الـــظلام

١ ـ الألية : اليمين ، عتقت : قدمت ووجبت ، ٢ ـ الذباب : أراد به هنا السوء، والفاحشة ، ٣ ـ الطلسة : الكدرة في الغبرة واراد بها دنس الثياب من كثرة الفواحش .

ولست بجابيء أبداً طعاماً حذار غد لكل غد طعام

• • •

وقال يفتخر بنفسه وقومه :

وذلك من جمعي وبالله نلتـه وان تلقني الاعداء لا ألق أعزلا
وقومي خيار من أسيِّد شجعة كرام اذا ما الموت خبَّ وهرولا[1]
ترى الناشيء المجهول منا كسيِّد تبجَّح في أعراضـه وتأثَّلا[2]

---

١ ـ الشجعة : ج شجاع ، خب وهرول : اسرع في السير .
٢ ـ الاعراض : ج عرض وهو المال والثراء والمتاع ، تأثل : تزيد .

الخصائص العامة لفخره

بعد أن قمنا باستعراض سريع لفخر أوس من خلال قصيدته الميمية التي احتوت ـ عدا عما أوردناه من أبيات دون شرح من قصيدتين أخريين ـ على الجوانب والاشكال الثلاثة لفخره (بأصله وقومه ونفسه وشخصيته الشعرية) ، لابد لنا من استعراض الخصائص العامة لفخره التي نوردها بايجاز شديد في النقاط التالية :

١ ـ **لم يكن فخره بمستوى واحد** ، فقد برّز فيما يتعلق بشخصه وشعره ، وقارب الجودة التامة بالنسبه لأبيه وصفاته ، في حين قصر قليلا تجاه قومه فلم يعطهم حقهم مع أنهم أصله الأول والاخير . . ولكن الذي يجدر ذكره أنه ربما قال أشعاراً كثيرة في فخره بقومه ولكنها لم تصلنا . .

٢ ـ **سادت نماذجه الفخرية ، المنطقية والعقلانية في ايراد الافكار وعرضها والبرهنة عليها** ؛ ولكن خانه التوفيق في تسلسل أفكار بعضها (فخره بقومه) .

٣ ـ **سادت نماذجه قوة في الأداء** تناسبت الى حد بعيد مع فن الفخر وتناغمت مع بساطة الألفاظ المعبرة والتراكيب القوية .. اللهم الا فيما ندر .

٤ ـ **تميزت نماذجه بالصدق وقوة العاطفة** باعتبار ان الفخر لا يهدف منه الشاعر الكسب المادي ، وانما اظهار المناقب الحسنة والخلال الحميدة ، والزهو بها .

٥ ـ **سادت صور أفكار نماذجه ، المادية** فأبرزت المعاني وقربتها من الاذهان خلال صور ملونة ناجحة لم يشط الخيال فيها ليخرجها عن حدود الواقعية والصدق في الاداء .

٦ ـ **كثرت في نماذجه الفخرية الفنون البلاغية وخاصة التشابيه والاستعارات والكنايات** التي يعد من أروعها هذه الابيات :

● لعمرك انا والأحاليف هؤلا　　لفي حقبة أظفارها لم تقلم
يرى الناس منا جلد أسود سالخ　　وفروة ضرغام من الاسد ضيغم
● ولست بطارق الجارات مني　　ذباب لا ينيم ولا ينام
● واني امرؤ أعددت للحرب بعدما　　رأيت لها ناباً من الشر أعصلا

٧ ـ **توافقت أبيات نماذجه الفخرية بعنصر الحركة الانفعالية** التي ساهمت في تحقيق العنصر التأثيري فيها .

أغراض الشعرية الاخرى

ذكرنا سابقاً أن النماذج القليلة المتوفرة لدينا من اشعار اوس يشغل غالبيتها : الوصف ، والهجاء ، والرثاء ، والفخر ... وقد أتينا على ذكر هذه الأغراض بالتفصيل حينا . وبالايجاز أحيانا ، وبشكل نعتقد معه اننا وفيناها حقها من الدراسة والتحليل والنقد ، ولم يبق علينا الا استعراض الأغراض الأخرى ، التي اقل فيها اوس لدرجة لا تمكننا من استعراضها على النحو الذي سلكناه بالنسبة لبقية الاغراض.

اما هذه الاغراض فهي :

١ - **المديح** : الذي فوجئنا بقلته ، نظرا لتضخم الرثاء على حسابه.

٢ - **الغزل** : الذي جاء تقليدي المنحى ، جافا ، لا ينم عن أية عاطفة .

٣ - **الحكمة** : التي كانت قليلة ، ولكن عميقة وناجحة .

المديح

الشيء المستغرب لدى اوس ، انه لم يكثر من المديح على الرغم من وجوده في مجتمع تسوده العصبية القبلية والاعجاب بالاشخاص وصفاتهم وأفعالهم ، الا أن ما يبرر ذلك ، وجود هذا الغرض من الشعر واندماجه في غرض آخر هو الرثاء .

فالرثاء اذن توسع لدى أوس على حساب المديح ، ولا غرابة في ذلك ، فالمعاني والأفكار التي يجسدها الرثاء هي نفسها على وجه التقريب في المديح ، مع تغيير في الالفاظ وادخال كان أو قضى نحبه ، على الجمل والتراكيب التي تتألف منها الأبيات ذات الطابع الرثائي .

وعلى الرغم من ندرة ابيات المديح فاننا سنتعرض لنموذجين من مدحه ، قال أحدهما في الثناء على حليمة بنت فضالة بن كلدة ، والأخرى في حاتم طيء .

قال يمدح حليمة بنت فضالة بن كلدة التي اعتنت به عندما وقع بارض بني اسد فاندقت فخذه وتألم :

لعمرك ما ملّت ثواء ثويّها حليمة اذ ألقت مراسي مقعد (★)
ولكن تلقت باليدين ضمانتي وحلّ بشرج م القبائل عوّدي
وقد غبرت شهري ربيع كليهما بحمل البلايا والحباء الممدد
ولم تلههما تلك التكاليف انها كما شئت من اكرومة وتخرد
هي ابنة اعراق كرام نمينها الى خلق عف برازته قد
سأجزيك أو يجزيك عني مثوّب وقصرك أن يثنى عليك وتحمدي

بالطبع ، القصيدة واضحة وقد استغرق السرد ووصف ما قامت به الممدوحة أكثر من نصفها ؛ ليمدحها بأبيات ثلاثة ، هي على قلّتها ، تجسّد معاني الكرم وعراقة النسب والعفّة والعقل .

ولولا خشية الاطالة لسلطنا الأضواء ، ولكن يكفينا مافصلناه في فن الرثاء مما ينطبق هنا على المديح ، خاصة وقد جاءت هذه القصيدة بسيطة في افكارها ، سهلة وقوية في تراكيبها وجملها وألفاظها ؛ ناهيك عن الاشراق الكلي الذي سيطر عليها فجعلها مفهومة ولا تحتاج الى أي تفصيل .

اما مدحه لحاتم طيء فيتلخص في بيتين

فان تنكحي ماوية الخير حاتما فما مثله فينا ولا في الاعاجم(١)

★ ـ سبق أن تقدم شرح جميع كلمات النموذج في الصفحة رقم «٧٢» .

١ ـ ماوية : ابنة عفزر التي تروى عنها وعن حب حاتم لها أخبار اشبه بالاساطير ، وله فيها شعر كثير .

فتى لا يزال الدهر أكبر همه ... فكاك أسير أو معونة غارم

يلاحظ انه لا حاجة للشرح لانه ما من انسان الا ويعرف عن كرم حاتم طيء وافعاله في فك الاسرى ومعونة المحتاجين الشيء الكثير ، ناهيك عن النجاح الذي تحلى بهما البيتان من جميع النواحي.

بعد عرضنا لهذين النموذجين نرى لزاما علينا ايراد النقاط التاليه التي لا حظناها على مدحه :

١ ـ **العناية بابراز الصفات الحميدة لممدوحيه** بألفاظ وتراكيب واضحة وسهلة وجميلة .

٢ ـ **البساطة والوضوح في الافكار ، والتوفيق في العرض** ، الذي استخدم في سبيله الطريق العقلاني دون الطريق العاطفي . .

٣ ـ **الصدق في الاداء والحرارة في العاطفة** بجميع أبيات هذين النموذجين ، مع التنويه باننا لا حظنا ، اثناء استعراضنا لهجائه للحكم بن مروان بن زنباع العبسي اشارة لمديحه له مما استنتجنا بانه متكسب :

كأني حلوت الشعر حين مدحته ... صفا صخرة صماء يبس بلالها
هممت بخير ثم قصرت دونه ... كما ناءت الرجزاء قد عقالها

ولكن الشيء المحير في هذا المجال ، افتقادنا لهذه القصيدة التي

التي مدحه فيها ، ثم وجود القصيدة التي هجاه بها لأنه لم يثبه . . .

ومهما يكن من أمر ، فإن النموذجين اللذين أتينا على ذكرهما ، يخلوان من كل أثر للتكسب ، لأنهما انصبّا على شخصين لم تكن للشاعر أية مصلحة مادية عندهما ، بل ان مدحه لهما كان بدافع الاعجاب والعرفان بالجميل لاغير .

الغزل

لم يخل شعر أوس من بعض الأبيات الغزلية التي وردت في مطالع قصائده بماشاة لسلّم القصيدة الجاهلية، مع خلو ظاهر من العاطفة ، اللهم إلا من بعض اللمسات الشاعرية التي ظهرت فيها والتي لاتدلّ على أنه أحب ، وانما لتبرهن على تفتح شاعريته ، ورقة احساساته . . .

ولقد وردت في قصائده أسماء نسائية كثيرة : كتماضر، وليلى ، وأم عمرو ، وزينب ، ولميس ، وأميه ، مما يعزز قولنا بأن الشاعر لم يحبّ ، ولو حدث له ذلك لأعطانا الكثير الكثير من الأبيات الغزلية ذات الفيض العاطفي الذي يدخل القلب دون استئذان . . .

وغزليات أوس ، على تقليديتها ، متنوعة ، فهو يصف خيالها وذكراها :

● ألمّ خيال موهنا من تماضرا … هدوءاً ولم يطرق من الليل باكرا[1]
وكان اذا ما التمّ منها بحاجة … يراجع هـتراً من تماضر هاترا[2]
● صحا قلبه عن سكره فتأملا … وكان بذكرى أمّ عمرو موكّلا
وكان له الحين المتاح حمولة … وكل امرىء رهن بما قد تحملا

أو يصف ميله للنساء :

وقد أنتحي للجهل يوماً وتنتحي … ظعائن لهـو ودّهن مساعف[3]
نواعم مايضحكن الا تبسّما … الى اللهو قد مالت بهنّ السوالف

أو يصف أجسام معشوقاته :

إذ تستبيك بمصقول عوارضه … حمش اللثات عذاب غـير مملاح[4]
وقد لهوت بمثل الرئم آنسة … تصبي الحليم عروب غير مكلاح[5]

---

١ ـ الموهن : نحو من نصف الليل ، الهدو : بعد هدأة من الليل . ٢ ـ الهتر : السقط من الكلام ، وهتر هاتر : هذيان شديد .

٣ ـ مساعف : مساعد ومؤات . ٤ ـ العوارض : ج عارض ، وهـو الفم الذي يعرض الاسنان ، وهو ما كان بين الناب والفرس ، لثة حمشة : قليلة اللحم وكانت عند العرب مستحبه . ٥ ـ الرئم : الظبي الخالص البياض ، آنسة : فتاة طيبة النفس ، العروب : الضحوك والمحببة الى زوجها ، مكلاح : عابسة .

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت   من ماء أصهب في الحانوت نضّاح[1]
أو من معتّقه ورهاء نشوتها   أو من أنابيب رمّان وتفّاح[2]

أو يصف ملابسهن وأخلاقهن :

غرّ ، غرائر ، أبكار ، نشأن معاً   حسن الخلائق عمّـا تتقى نور[3]
لبسن ريطاً وديباجاً وأكسية   شتى بها الصوف، إلا انها فور
ليس الحديث بنهبى ينتهبن ولا   سرّ يحدّثنه في الحيّ منشور[4]

أو يذكر كبر سنه وقد كسا رأسه الشيب فيتحسّر على شبابه :

صبوت وهل تصبو ورأسك أشيب   وخانتك بالرهن المفارق زينب[5]
وغيّرها عن وصلها الشيب إنه   شفيع الى بيض الخدود مدرّب

أو يتحسّر على شبابه الذي ولى فأصبح التنكّر ديدن الحبيبة :

---

١ ـ الريقة والريق : الرضاب وماء الفم ، اغتبقت : شربت الغبوق وهو شراب العشي ، الحانوت : دكان الخمار ، نضاح : راشح او الذي يروي الشرب .

٢ ـ الورهاء : الحمقاء ، الانابيب : الطرائق التي في الرمان .

٣ ـ الغر : ج غراء وهي البيضاء الشريفة ، الغرائر : ج غريرة : الشابة الحديثة السن ، النور : ج نوار ، وهي الفتاة التي تفر من الريبة .

٥ ـ النهبى : اسم النهب واراد هنا كتمان الحديث . ٤ ـ الرهن المرامق : وهو الرهن الذي ليس بموثوق به ،وهو قلب أوس، المرامق : المداري والمعايش .

ما من شك بأن غزل أوس مغرق في تقليديته (كما لاحظنا لدى استعراضنا النماذج) كما وأن المادية التي لاحظناها في بقية الأغراض الأخرى لم تختف في هذا الفن الجميل أيضاً ناهيك عن جفاف العاطفة حتى أن القارىء يشعر لدى استعراضه ، انه يقرأ شعراً ما قاله صاحبه الا لغرض افتتاح القصيدة .. والشاعر في رأينا لم يشذ عن طريقته التي صاغ بهـــا كافة أشعاره وهي اخضاع اشعاره لأفكاره لالعواطفه ..

الحكمة

عرفنا أن أوس بن حجر كان يحتل منزلة رفيعة بين قومه وأنه عاش أحداث مجتمعه ، فجسد بعضها في أشعاره وبالتالي استخلص منها بعض النماذج التي جسدها على شكل حكم حملت آراءه والمدى الذي بلغه تفكيره . . .

وقد برزت في بعض أشعاره آثار تجاربه في الحياة حتى جعلته يعطي من النصائح والارشادات وضرب الامثال الشيء الكثير . . .

قال يشرح التجارب التي مرت به في حياته ويستخلص منها العبرة التي يجدر بالمرء الاستفادة منها :

فإني رأيت الناس الا أقلهم   خفاف العهود يكثرون التنقلا(١)
بني أم ذي المال الكثير يرونه   وان كان عبداً سيد الامر جحفلا(٢)

---

١ ـ التنقل : التحول عن المودة . ٢ ـ السيد الجحفل : الكثير الاتباع .

وهم لمقل المال أولاد علة | وان كان محضاً في العمومة مخولا[1]
وليس أخوك الدائم العهد بالذي | يذمك إن ولى ويرضيك مقبلا
ولكن أخوك النائي مادمت آمناً | وصاحبك الادنى إذا المرء أعضلا[2]

وقال يضرب الأمثلة المأخوذة من واقع الحياة :

- وما ينهض البازي بغير جناحه | ولا يحمل الماشين الا الحوامل
ولا سابق الا بساق سليمة | ولا باطش ما لم تعنه الأنامل
- وليس يعاب المرء من جبن يومه | وقد عرفت منه الشجاعة بالأمس
- اذا الحسب الرفيع تواكلته | بناة السوء أوشك أن يضيعا
- اذ الناس ناس والزمان بعزة | واذ أم عمار صديق مساعف

وقال في معرض النصح والارشاد :

- لا تظهرن ذم امرىء قبل خبرة | وبعد بلاء المرء فاذمم أو احمد
- فقومك لا تجهل عليهم ولا تكن | لهم هرشاً تغتابهم وتقاتل[3]

ان القارىء لأبيات الحكمة هذه ، لا بد له من الخلوص للنتيجة التالية التي تتلخص : بأن **اوس بن حجر كان على جانب كبير من رجاحه العقل ، فعلى** الرغم من قلة الحكمة في أشعاره نسبياً فقد جاءت الابيات المجسدة لها عميقة الاغراض ، لا تتطرق اليها السطحية من قريب أو بعيد ، اللهم الا من بعض الحكم التي جاءت كتحصيل

---

١ ـ المحض : الخالص النسب ، مخول (بفتح الواو) كثير الاخوال .
٢ ـ أعضل : اشتد . ٣ ـ الهرش : المائق الجافي .

حاصل لتجاربه وخلاصة ارائه . . ، **والذي يثبت لنا هذه النتيجة النقاط التالية :**

١ – ظهور اثر التجارب الشخصية المستمدة من الحوادث التي عايشها في مجتمعه .

٢ الاتسام بالعقلانية التي جسّدت بأفكار تحمل في طياتها نفحات عاطفية بسيطة .

٣ – الاكثار من الامثال واتباع طريقة الارشاد والنصح .

٤ الانطباع بالعموم ، وعدم الجنوح للخصوص ، بحيث انها تصلح لكل زمان ومكان وعلى مرور الايام . .

٥ – الاتسام بالسهولة والوضوح والصراحة ، سواء في الالفاظ او الجمل او التركيب .

٦ – الخلو من الارشاد الديني مع وجود الارشاد الاخلاقي والانساني العام .

٧ – الخلو من الخيال مع الاستمداد من واقع الحياة ، لا البدوية فقط وانما العامة ايضا .

وعلى كل الاحوال ، فاننا مهما قلنا في جودة حكمة أوس ، فان زهير بن ابي سلمى – كما سنرى – قد سبق كافة الشعراء الجاهليين بالحكمة ، ابداعاً وعمقا وتفنناً وابتكاراً حتى استحق على ذلك لقب الشاعر الحكيم .

الخصائص العامة لشعره

اما وقد انتهى طوافنا مع أغراض أوس الشعرية، فقد آن لنا أن نلقي عرساتنا ، لنأخذ قسطاً من الراحة ، نستعرض اثناءه الخصائص العامة لشعره ، لنشد الرحال بعده لرحلة اخرى مع الشاعر زهير بن أبي سلمى.

اما هذه الخصائص فيمكن ايجازها - بعد ان فصلنا في كافة الاغراض - بما يلي :

١ - **اتسام جميع اشعاره** - باستثناء المختلط منها مع اشعار غيره - **تقريباً بطابع واحد مميز عن بقية الشعراء** ، حتى لقد عد بسبب ذلك زعيماً لمدرسة شعرية من روادها واتباعها شعراء فحول امثال زهير بن أبي سلمى (وربما النابغة الذبياني) وكعب بن زهير والحطيئة وسواهم ..

٢ - **اتسام هيا كل قصائده بالجودة على وجه العموم** وقد ادى لذلك :

آ - حسن المطالع التي عدت من النوع الجيد بالنسبة لباقي الشعراء صحا قلبه .. ودع لميس .. ايتها النفس .. الخ

ب ـ حسن الانتقال من غرض لآخر في أغلب قصائده .

جـ ـ شدة ارتباط الابيات بعضها ببعض من جهة وبمحور القصيدة العام من جهة أخرى .

د ـ الاستعانة بالاسلوب القصصي ، ولكن على نحو قليل بعكس ما سنراه لدى زهير مثلا ..

٣ ـ انطباع جميع اشعاره تقريبا بالمادية الشديـــدة (وحتى في المواضيع التي يشوه جمالها هذا الطابع) مع اتصالها بخيـــاله في اغلب الاحيان ولدرجة عدم الانفصال عنه .

٤ ـ شيوع الاغراب اللفظي في اكثر قصائده ؛ حتى لينِدفع المرء للاقلاع عن متابعة القصيدة باستثناء بعض القصائد في الهجـــاء والرثاء والفخر ... الـخ .

٥ ـ تصوير البيئة البدوية من جميع نواحيها بدقة وأمانة تقرب احياناً من التصوير (الفوتوغرافي) مع عدم التطرق للبيئـــة الحضرية الا نادراً ..

٦ ـ اتسام اشعاره بالطابع العقلي البعيد عن النحو العاطفي .

٧ ـ اتسام اشعاره بالروية والصنعة الفنية ، وهذا نتيجة طبيعية للطابع العقلي الذي سيطر على أشعاره وجعله لايخرجها للآخرين الا بعد اخضاعها للمراقبة الذاتية .

٨ – النجاح في اختيار الألفاظ ذات المدلولات الحسية والرنة الموسيقية (أحياناً) ووضعها في الأماكن الملائمة لها .

٩ انتشار بعض الفنون البلاغية في اشعاره على نطاق واسع وخاصة الاستعارات والتشابيه ، مع ظهور العناية بجودتها وقربها من الواقع أمثال :

● يامن لبرق أبيت الليل أرقبه ... في عارض كمضيء الصبح لمّاح
كأنما بين أعلاه وأسفله ... ريط منشّرة أو ضوء مصباح
ينزع جلد الحصى أجشّ مبترك ... كأنه فاحص أو لاعب داحي

● اذا ما استقبلته الشمس صدّ بوجهه ... كما صد عن نار المهوّل حالف

● لنا صرخة ثم اسكاتة ... كما طرّقت بنفاس بكر

١٠ – القوة في الاداء ، والمتانة والرصانة في الجمل والتراكيب .

١١ – الولع الشديد باحاطة الموصوفات من جميع نواحيها ، ولدرجة ذكر أدق الجزئيات فيها .

١٢ – العناية باعطاء المواضيع الأجواء الخاصة بها، مستخدماً في سبيل ذلك الهدوء حيناً والانفعال والتوفز لدرجة الصخب الضوضائي أحياناً أخرى .

مَـنزلتُـه

أشرنا في أكثر من مناسبة ، الى أن أوس بن حجر يعتبر في نظر بعض النقـاد والمهتمين بالأدب صاحب مدرسة شعرية متينة الجذور ، كثيرة الأغصان والفروع ، اتبعها فحول الشعراء ، أمثال زهير بن أبي سلمى ، فطوّروهـا حتى أصبحت من أهم المدارس الشعرية . .

ورغم قلة النماذج التي بين أيدينا من أشعار أوس ، فانها تتسم بخط واحد ، الا أننا نجـد فيها كثيراً من الأبيات التي تنسب له ولسواه من الشعراء أمثال هذا البيت الذي نجـده في ديواني أوس وزهير بن أبي سلمى :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا أصبت حليماً أو أصابك جاهل

وهذا البيت الذي نجده في ديواني أوس والنابغة :

ولست بخابىءٍ أبـداً طعاماً حذار غدٍ لكل غدٍ طعام

وهذا البيت الذي نجده في ديواني أوس وعبيد الأبرص :

ودّع لميس وداع الصارم اللاحي إذ فنكت في فساد بعد اصلاح

وهذه الأبيات التي نجدها في ديواني اوس وبشر بن الخازم :

ان الذي جمع السماحة والنجدة والبر والتقى جمعاً

الألمعيّ الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

والحافظ الناس في تحوّط اذا لم يرسلوا تحت عائذ ربعا

فهل نضيفها لأوس ، أم للشعراء الآخرين الذين تنسب اليهم أيضاً . . ؟ اننا بلا شك أمام معضلة تدفعنا للاعتقاد بأن اكثر اشعار هذا الشاعر قد ضاعت ، وأن للرواة يداً في هذا الأمر .. الا أن كل ذلك لايحول دون اعتبار أوس بن حجر من فحول الشعراء، بل من أوائلهم ، بدليل أن كبار الشعراء أمثال زهير والنابغة . . قد تأثروا به وخاصة بقصيدته الميمية ، وبوصفه للصيد والصراع بين الكلاب والثور الوحشي ، فقال زهير بيته المشهور في معلقته :

لدى أسد شاكي السلاح مقذّف له لبد أظفاره لم تقلّم

أخذه عن بيت أوس المعروف :

لعمرك إنا والأحاليف هؤلا لفي حقبة أظفارها لم تقلّم

وقال النابغة البيت التالي ، آخذاً اياه من نفس بيت أوس السابق :

وبنو قعين لا محالة انهم آتوك غير مقلمي الاظفار

.. وبالاختصار ، فاننا نعود فنؤكد أن أوس بن حجر شاعر فحل ، عرف القدماء قدره فقال فيه **ابن العلاء** (كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه) كما عدّه **ابن سلام الجمحي في** الطبقة الثانية بعد امرىء القيس والنابغة وزهير والاعشى ، كما قدّره المحدثون فقال فيه **الدكتور طه حسين** انه صاحب مدرسة شعرية ..

عيوب شعره

ما من شاعر الا ويؤخـــذ عليه وقوعه في بعض الهفوات التي لايمكن ان يسلم منها أحد.. وفيما يلي استعراض سريع لبعض المآخذ على شعره :

١ ـ **المعاظلة** : وهي من عيوب اللفـظ ، وتنتج عن مداخلة الشيء بالشيء الذي ليس فيـه ولا من جنسه ، ولا يليق بنسبته اليه كقوله :

وذات هِدْمٍ عارٍ نواشرها   تصمت بالمـاء تولباً جدعا

فقد أورد كلمة (تولب) مكان اسم الصبي فعاظل في ذلك لان كلمة تولب تعني ولد الحمار .

٢ ـ **التصريع** : وهـــو الذي يغيّر العروض زيادة أو نقصاً ليوافق الضرب في الوزن . وقد صرّع أوس في قصيدته الحائية فقال في المطلع :

ودّع لميس وداع الصارم اللاّحي   اذ فنّكت في فساد بعد اصلاح

ثم صرّع بعد ذلك في بيتين متلاحقين :

هبّت تلوم وليست ساعة اللاحي   هلا انتظرت بهذا اللوم اصباحي

اني أرقت ولم تأرق معي صاحي   لمستكفّ بعيد النوم لوّاح

٣ ـ **التكسب** : فقد جاء في هجائه للحكم بن مروان بن زنباع العبسي قوله الذي يدل على أنه مامدحه الا لنيل عطائه :

كأني حلوت الشعر حين مدحته   صفا صخرة صمّاء يبس بلالهــا

هممت بخير ثم قصّرت دونـه   كما ناءت الرجزاء شدّ عقالهــا

منعت قليلا نفعه وحرمتني   قليلا فهبها بيعة لاتقالهــا

٤ ـ **التهويل** : فقد جاء في رثائه لفضالة بن كلدة :

ألم تكسف الشمس والبدر والكواكب للجبل الواجب

٥ ـ **الافحاش** : وقد ظهر عندما هجا بني سعد بن مالك اذ قال فحشاً لا نذكره لخروجه عن جادة الاخلاق والادب .

٦ ـ **الاقواء** : الذي ظهر في بيته :

يعلون بالقلع البصري هامهم   ويخرج الفسو من تحت الدقارير

باعتبار أن حرف القافية (الراء) جاء في القصيدة مضموماً لا كما جاء في هذا البيت .

زهير بن أبي سلمى

حياتُه

أهميته

لم يحظ شاعر جاهلي بشهرة وتقدير كما حظي زهـــيرُ بن أبي سلمى ، الذي بلغ من اعجاب البعض وتقديرهم لشعره ان أطلقوا عليه : شاعر الجاهلية أو شاعر الشعراء فيها .

ولادته :

وكبقية الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، وحتى بعض من نشأوا في صدر الاسلام ، لا نجد تاريخاً محدداً لولادة زهير ، ولكن من المعتقد أنها كانت حوالي عام (٥٢٠ ـ ٥٣٠) ميلادية ، في بيت من مزينة .. ثم شبَّ وقضى بقية حياته في بني غطفان ، أهل أمه ، حتى حضرته الوفاة حوالي ٦١٠ ميلادية .

العوامل التي أثرت في شخصيته الشعرية:

لقد تكاملت شخصية زهير الشعرية بنتيجة عوامل شتى لعل أهمها:

١ ـ **النفسية المتفتحة الشفافة؛ والفكر المتقد، والملاحظة الدقيقة** التي كان يتمتع بها.

٢ ـ **الأخلاق الشخصية**: التي تمثلت في أفكاره السامية، وعفته الذاتية، وتحنفه الشديد، وحبه للخير، والدعوة له، والثناء على فاعليه.. وبالاختصار تمتعه بشتى الصفات الحميدة.

٣ ـ **البيئة العائلية**: التي شب في أحضانها العابقة بالأريج الشاعري من كل جانب، فأبوه ـ كما يروى ـ شاعر، وأختاه سلمى والخنساء شاعرتان أيضاً، وكذلك خاله بشامة بن الغدير شاعر غطفان ومستشارها وكبير حكمائها، الى جانب زوج أمه أوس بن حجر شاعر مضر الكبير، الذي تنسب اليه المدرسة الشعرية المعروفة باسمه.

٤ ـ **البيئة القبلية**: التي نشأ فيها، في أواخر العصر الجاهلي، والتي كانت تمثل انحطاطاً فكرياً، واضطراباً اجتماعياً وسياسياً، لعل أبرز مظاهرهما، تلك المنازعات القبلية، والحروب، والغزوات والثارات، التي بلغت من الشدة والضراوة حد الانجراف بالمجتمع العربي آنذاك الى الدمار والانقراض، لولا ما برز في تلك الحقبة من أفكار تدعو للسلم والاخاء، مقترنة لدى البعض بالأفعال ودفع

الاموال ، فوضعوا بذلك حداً فاصلا لتلك المآسي ،وأثروا بشكل مباشر في شاعرنا زهير ، وأثاروا اعجابه ، فأثنى عليهم بأماديح خلدتهم وخلدت فعل الخير الى الابد .

أنه لا عجب اذا تكاملت شخصية زهير الشعرية ، وصقلت بفضل تلك المؤثرات ، فالموهبة الشعرية عندما تنهل اصول الشعر والتوجيه من شاعرين كبيرين كأوس بن حجر وبشامة بن الغدير اللذين روى شعرهما على التوالي. ثم تتواجد في مجتمع ملء وجوهه وحكماؤه انحطاطه وانحداره الشديد نحو الهلاك ، فقاموا بالدعوة للسلم وحقن الدماء ، لا بد وأن يكون صاحبها ، ذلك الشاعر الفحل الذي من شأنه اغناء الشعر العربي بقصائد جيدة تضاف الى مثيلاتها من نتاج الشعراء الآخرين .

أغراضُهُ الشعريّة

لقد نظم زهير في جميع الاغراض الشعرية تقريباً :

في الوصف : الذي انبث في جميع قصائده تقريباً ، حتى ليعتبر القاسم المشترك الاعظم بين مقاطعها .

وفي المديح : الذي وقف جل حياته الشعرية عليه وأجاد بـه اجادة تامة ، حتى اعتبر من أوائل المادحين .

وفي الحكمة : التي نجدها تحتل شطراً لا بأس به من أشعاره ، لتجعله من الشعراء الحكماء المعدودين .

وفي الغزل : الذي ربما قاله لضرورة سلّم القصيدة الجاهليـة ، باعتبار انه لم يعرف عنه أنه أحب ، ولو حدث ذلك ، لرأينا انفعالات عاطفية أخّاذة ، ولفقدنا تلك السمات العقلية البارزة التي تنطبع بها أكثر قصائده .

أما بقية الأغراض الشعرية ، فقد كان من البديهـي ، قلة نظمه فيها :

- **فالهجاء**، لم يكن من طبعه الذي تأصل فيه حب السلام والاخاء، **وكذلك الفخر**، لذلك لا نكاد نعثر في ديوانه الاعلى عدد قليل من الابيات فيهما.

- **أما الخمر**: فان تعفّفه وبعده عن اللهو، جعلاه بمنأى عنه فاذا به يقل من النظم فيه.

أما الرثاء: فانه لم يكثر منه، اللهم الا من بعض الابيات التي قالها في رثاء ابنه سالم، وهرم بن سنان، وسنان بن حارثة المري.

أي أن شاعرنا يمكن اعتباره من الشعراء الذين اختصوا في بعض الاغراض التي تنسجم مع نفسياتهم وما جبلت عليه من روح مسالمة، ميالة للخير، وشخصية موثرة التعفف طريقاً ومنهجاً في الحيـــاة.

الوصف

يرى قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) ان الوصف انما هو ذكر الشيء بما فيه من الاحوال والهيئات ، ولما كان اكثر وصف الشعراء انما يقع على الاشياء المركبة من ضروب المعاني ، كان أحسنهم وصفاً من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركّب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها ، حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته .

المقومات الرئيسية للوصف :

من خلال رأي قدامة بن جعفر ، والواقع الوصفي العام ، يمكننا استنتاج المقومات الرئيسية التي لا ينجح الوصف الا بعد تواجدها وهي :

١ ـ **ذكر الشيء المراد وصفه** بدقة ووفقاً للوضعية التي وجد أو يوجد فيها .

٢ ـ **تجسيد المعاني** التي يعبر عنها الموصوف ، دون لفّ أو دوران وبصور تقرّبه من الواقع الموجود فيه .

٣ ـ الاعتماد على الخيال دون اسراف ولا تقتير ، وفي النواحي التي يتطلبها وجوده ، وعن طريق التصوير المادي والمعنوي لا غير.

٤ ـ اعتماد عنصر الحركة كعامل مساعد في التأثير ، مع مراعاة حسن توزيعها ، وتماوجها بين الهدوء الانسيابي ، والاندفاع العاطفي وفقاً لمدلولات الموصوف وأحواله وهيئاته .

٥ ـ ايراد الالفاظ المناسبة السهلة ، ومراعاة حسيتها وملاءمتها للموصوف ، مع ضرورة تعاطفها مع الجمل والتراكيب المؤلفة للأبيات الوصفية .

وعلى العموم فان الوصف الجيد ليس على الدوام من توفرت فيه كل تلك المقومات ، فشخصية الشاعر ، وفيض عاطفته ، وشدة ملاحظته ، ومدى ما يضعه من تلوينات في موصوفاته ، كفيلة بانتاج وصف جيد ، رائع يضع الموصوف مجسداً ، ناطقاً أمام القارىء أو السامع ، فيثير اعجابه ويجعله وجهاً لوجه تجاه جزئياته .

اهم موصوفاته :

ذكرنا فيما سبق ، ان الوصف قد انبثّ في شعر زهير ، سواء في معرض المدح ، او الرثاء ، أو الوصف الخالص لبعض الموضوعات كالحرب والأطلال ومشاهد الارتحال ، والحيوان والري عند المزارعين العرب . وفيما يلي سنتعرض لضروب الوصف الخالص ، لنعود لاستعراض الوصف المدحي وسواه في فصوله الخاصة :

وصف الأطلال :

على الرغم من ولع الشعراء الجاهليين بوصف الأطلال ، الا أننا نلاحظ عدم افراط زهير في هذا النوع من الوصف ، الذي ربما لم يأت الا انسجاماً مع سلّم القصيدة . . .

● أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلّم	بحومانة الدرّاج فالمتثلّم (١)
ودار لها بالرقمتين كأنها	مراجيع وشم في نواشر معصم (٢)
بها العين والأرآم يمشين خلفة	وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم (٣)
وقفت بها من بعد عشرين حجة	فلأياً عرفت الدار بعد توهّم
أثافيّ سفعاً في معرّس مرجل	ونؤياً كجذم الحوض لم يتثلّم (٤)
فلما عرفت الدار قلت لربعها	ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

---

١ ـ أم أوفى : زوجة الشاعر الاولى ، الدمنة : ماسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما ، حومانة الدراج : ماء بنجد بين البصرة ومكة ، المتثلم : موضع قريب منه . ٢ ـ الرقمتان : مكان في نجد ، مراجيع : ج مرجوع ، اراد به الوشم المردد ، المجدد ، نواشر : ج ناشر ، العرق ، المعصم : موضع السوار من الزند . ٣ ـ العين : ج عيناء ، الواسعة العين وهي صفة لبقر الوحش ، الارآم : ج رئم الظبي الخالص البياض ، خلفة : يخلف بعضها بعضاً ، الاطلاء : ج طلاء : ولد الظبية والبقرة الوحشية . ٤ـ الاثافي : ج أثفيه ، حجارة تنصب للقدر ، السفع : السود يخالطها حمرة ، المرجل : القدر ، معرس : الموضع الذي يوضع عليه القدر ، النؤي : نهر يحفر حول المضرب ليجري فيه ماء المطر ويصنع له حاجز لئلا يدخل الماء البيت ، الجذم : الاصل .

لمن طلل كالوحي عافٍ منازله عفا الرّسّ منه فالرسيس فعاقله[1]
فقفّ فصارات فأكناف منعج فشرقيّ سلمى حوضه فأجاوله[2]
فهضب، فرقد، فالطويّ فثادق فوادي القنان حزنه، فمداخله[3]

لقد حرصنا على ايراد نموذجين مختلفين ، لنبيّن أهم الخصائص التي امتاز بها زهير في وصف الأطلال :

في النموذج الاول

١ ـ **لقد استطاع زهير بسط افكاره بوضوح** ، فاذا به يضعنا امام لوحة فنية مليئة بالالوان ، فجسّد الموضوعات التي ارادها، غير ناس نقل واقع الحياة البدوية من خلال صور متلاحقة ومكملة بعضها البعض .. انه يريد وصف ديار الحبيبة بعد ارتحالها وقومها عنها وصيرورتها اطلالا ، فماذا فعل ؟؟

ـ **صور تلك الديار بعد ان اصبحت اطلالا اثر مرور الزمن عليها** فاذا بها موحشة لا تقربها الا الحيوانات : **أمن أم اوفى دمنة** ...بها

١ ـ الوحي : الكتاب ، شبه به آثار الدار ، الرس والرسيس : ماءان لبني اسد ، عاقل : ارض . ٢ ـ قف : أرض غليظة ، صارات : ج صارة ، جبال ؛ سلمى : جبل طيىء ، أجاول : ج أجوال التي مفردها جول أي ناحية .
٣ ـ هضب ، رقد ، الطوي ، ثادق : أماكن ،القنان : جبل لبني أسد،جزع الوادي منعطفه ، مداخله وأفاكله : نواحيه .

العين والأرآم . .

ـ حدد أماكنها بدقة ،ودون إغفال لاسم هذه الامكنة : حومانة الدراج ، فالمتثلم ، الرقمتان . . .

ـ حدد عمر الانقطاع عنها وزمان الوقوف عليها : وقفت بها من بعد عشرين حجة . .

ـ وصف صعوبة تعرفه على مكانها ، نظراً لتغير ملامحها بعد ارتحال الحبيبة وأهلها عنها : فلأياً عرفت الدار بعد توهم .

ـ رسم الآثار التي شاهدها في تلك الديار المهجورة :

أثافيّ سفعا في معرس مرجل　　ونؤياً كجذم الحوض لم يتثلم

ـ ترجم أحاسيسه حين اهتدى الى تلك الديار ، فاذا به يتخيلها شخصاً لا بأس من تحيته في تلك الاماكن المقفرة

فلما عرفت الدار قلت لربعها:　　ألا انعم صباحا ايها الربع واسلم

٢ لقد كان زهير في وصفه للاطلال مجيداً ، وصادقاً ؛ لانه نقل صورة حية لها ، فيها من واقع البيئة البدوية الشيء الكثير ، اضافة لتلك الالوان التي أضفاها على جزئيات الصورة ، فجاءت ناطقة على الرغم من أن الموضوع الاساسي لا يعدو كونه وصف أطلال..

٣ ـ على أنه وان كان قد نجح في رسم الصورة الا أنه لم يكن مجددا ، وانما جارى في نتاجه هذا بقية الشعراء الجاهليين الذين كانت اوصافهم للاطلال من دعائم قصائدهم .

٤ - وعلى الرغم من عدم تجديده في وصف الاطلال الا ان طريقة التصوير المنطقية، قد برزت في وضوح الافكار (التي وان جافت منطق التسلسل أثناء العرض، باعتباره قد اتى على وصف الآثار قبل ذكر وقوفه عليها ألا أنها عبرت اجمل تعبير عنها) لدرجة جعلت القارىء أو السامع يتخيل بسهولة الصورة بكل جزئياتها.

٥ - ولقد كان زهير في عباراته ناجحا ايضا، فالالفاظ حلوة ومعبرة ومناسبة لواقع الحال، كما ان التراكيب قوية ومتينة ومتعاطفة بشكل موضوعي وشاعري مع ايحاءات الالفاظ والموضوع الوصفي العام.

٦ - والميزة البارزة في هذا الوصف، كثرة الصور المادية واشتراك الخيال في رسمها والتعبير عنها دون ابتعاد عن البيئة التي استمدت الصور منها، وتجسيدها بالتشبيهات (دار .. كأنها مراجيع وشم .. ، ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم ..) والصور البيانية المحكمة.

٧ - ولعل نجاح زهير في وصفه لا يعود لتلك الميزات فحسب وانما لعنصر الهدوء النفسي الذي ملأ اجواء وصفه؛ فسيطر عليها وجعلها في تماس مباشر مع خيالات القارىء والصور التي رسمها للاطلال.

أما في النموذج الثاني

فاننا نكاد لا نجد فيه أي اثر لكل تلك الملاحظات، بل نكاد

لا نلمح فيه الا تلك الاسماء التي تبدو كالطلاسم .

وبوجه عام يمكننا بعد ذلك التفصيل ، القول بأن زهيرا قد نجح في وصف الاطلال ، وأجاد جمع كل الصفات التي عددناها كمقومات للوصف الجيد (باستثناء النموذج الثاني) ، اضافة لطبعه بطريقته الشخصية المعتمدة على :

١ ـ الوصف الحسي المادي المتصل اتصالا وثيقا بالخيال ٢ ـ الهدوء النفسي الذي أعطى للوصف نكهة محببة وشدّ على القارىء وقوّى لديه الرغبة الملحة لمتابعة القصيدة للوصول الى الغرض الاساسي منها .

اما ما نود التنويه عنه في هذه المناسبة ، فهو اننا كنا نريد التعرض لوصف مشاهد الارتحال مع وصف الاطلال ، الا اننا آثرنا تجاوزه الى وصف الحرب ، لنعود اليه عند التعرض لأسلوبه القصصي .

وصف الحرب :

للحرب صور مرعبة لدى زهير باعتبار انه عاش اهوالها ، واصطلى مع ابناء المجتمع العربي في اواخر العصر الجاهلي بنارها (نار حرب داحس والغبراء) ، لذلك لا غرابة اذا رأيناه ينقل جوّها وأهوالها ومآسيها ونتائجها الينا لتكون عبرة لكل من يحاول اثارتها على مرّ الاجيال :

● وما الحرب الا ما عرفتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجّم (١)

متى تبعثوها ، تبعثوها ذميمة ... وتضر اذا ضرّيتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافاً ، ثم تنتج فتتئم (٢)

فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم ... كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم (٣)

فتغلل لكم ما لاتغل لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم

● اذا لقحت حرب عوان مضرّة ... ضروس تهرّ الناس أنيابها عصل (٤)

قضاعيّة أو أختها مضرية ... يحرّق في حافاتها الحطب الجزل (٥)

لقد استطاع زهير في هذين النموذجين أن يضعنا أمام حرب حقيقية :

١ ـ فنقلنا في النموذج الأول الى المعركة وجعلنا نصطلي بنارها ، ونتذوق مرارة نتائجها : فتعرككم عرك الرحى بثفالها .. وتنتج لكم غلمان اشأم كلهم .. فتغلغل لكم مالاتغل لاهلها . . . .

٢ ـ أما في النموذج الثاني فلم يرحمنا لندخل الحرب ، ثم نبقى

---

١ ـ المرجم : المظنون . ٢ ـ ثفال الرحى : جلدة تحت الرحى ليقع عليها الطحين . الكشاف : ان تلقح النعجة في السنة مرتين . ٣ ـ أحمر عاد : أراد به عاقر الناقة وقد خالف الشاعر الحقيقة التاريخية وكان عليه أن يضع كلمة ثمود بدلا عن عاد . ٤ ـ لقحت : في الاصل حملت واراد بها اشتدت ، العوان : الحرب الذي قوتل بها مرة بعد مرة ، تهر الناس : تجعلهم يكرهونها . ٥ ـ الجزل : الحطب الغليظ وجاء بها للدلالة على شدة اشتعال الحرب .

لرؤية آثارها ، بل وضعنا في حرب لاتبقى ولاتذر : ضروس تهر الناس أنيابها عصل ... يحرق في حافاتها الحطب الجزل . .

وقد ذكرنا في دراستنا لوصف الاطلال ما فيه الكفاية عن مميزات زهير الوصفية الخاصة بالاطلال ، لذلك لايسعنا هنا الا ان تتجاوز ما نوهنا عنه أو لمحنا اليه ، لنضيف أشياء أخرى هامة **يفترق فيها بوصفه للحرب عن وصفه للأطلال** :

١ – لقد جسّد زهير بواقعية تامة ، الحرب ليس كما يتصورها الآخرون ، بل كما عرفوها ، وذاقوا مرارتها ، مستخدماً في سبيل ذلك الافكار التي تومض في مخيلاتهم ، والمعاني التي يعرفونها ، والالفاظ والجمل ، والتراكيب التي ألفوا استعمالها : وما الحرب الا ما عرفتم وذقتم . . . فتعرككم عرك الرحى . . فتلقح كشافاً . . فتنتج . . فتتئم . . فترضع . . فتفطم . . ضروس . . . أنيابها عصل . . . . .

٢ – اتسم تجسيده للحرب بالعقلانية التامة ، سواء من حيث تسلسل الأفكار ، أو في طريقة عرضها :

آ – بالنسبة لتسلسل الافكار ، نجد انه لايمكننا تقديم أو تأخير ، إنقاص أو اضافة أية فكرة على الموضوع اذ لو فعلنا ذلك لاختل الموضوع .

ب بالنسبة لطريقة العرض ، نجده قد استطاع ان يربط المقدمات بالنتائج وما الحرب الا ماعرفتم وذقتم . . متى تبعثوها ، تبعثوها . . وتضر . . فتعرككم . . وتلقح . . ثم تنتج فتتئم . . ثم ترضع فتفطم . . فتغلل . .

٣ - **برز عامل الحركة كعنصر فعال في التأثير . . .** ابتدأ وصف الحرب بهدوء (وما الحرب الا ما عرفتم . .) ، ثم لم يلبث أن جعل الانفاس تلهث (متى تبعثوها . . وتضر . . فتضرم . . فتعرككم . . وتلقح . .) ، ليعود في ختام الوصف الى الهدوء الموضوعي المنهجي المتناسب مع واقع الحال .

٤ - **ظهر اندماج زهير في الوصف ، واتضح عمق وصدق** عاطفته ، ومدى انفعالاته الشديدة ازاء هذا الموضوع الذي طالما أثر عليه باعتباره ضد أفكاره واتجاهاته السلمية ★ .

٥ - **تميز في الوصف أسلوب زهير التصويري** ، ففي النصين تتابع الصور مكملة بعضها البعض بسرعة مذهلة تكاد لاتتمهل فيها الانظار ، وقد استعمل في سبيل ذلك الواقع والخيال (كل ضمن المدى والمحور المحدد له) مجسداً ذلك بفيض من التشبيهات التي لا يكاد يخلو منها أي بيت من الأبيات ، وفي النموذجين معاً .

٦ - **تميز الوصف بمادية بحتة من جميع النواحي** ، وقد ساهم في

★ هناك رأي مخالف للدكتور احسان النص في كتابه العصبية القبلية (ص ١٦٥ و ١٦٦)

تجسيدها ، الواقعية التي تحلى بها موضوعه ، والعقلانية التي سادته ، والصدق الذي نبض به . . ناهيك عن الألفاظ والجمل والتراكيب التي كانت مادتها موافقة ومطابقة ومنسجمة مع موضوع الحرب . .

وصف الحيوان :

في البيئة البدوية يتعايش السكان مع عدد كبير من الحيوانات كالخيول والنوق والحمر الوحشية والثيران والكلاب . . الخ ، لذلك نجد اكثر الشعراء الجاهليين قد وصفوا هذه الحيوانات . . وقد أتى زهير في عدد كبير من قصائده على وصف بعض الحيوانات فقال في وصف الفرس :

● هبطت بمسود النواشر سابح ... ممر أسيل الخد نهد مراكله (١)
تميم فلوناه ، فأكمل صنعه ... فتم ، وعزته يداه وكاهله (٢)
أمين شظاه ، لم يخرق صفاقه ... بمنقبة ، ولم تقطع أباجله (٣)
● لقد لحقت بأولى الخيل تحملني ... لما تداعب المشبوبة الفزع (٤)

---

١ ـ المسود : الشديد ، الممر : الشديد الفتل ، النهد : الضخم ، المراكل : ج مركل حيث يركله الفارس بعقبه . ٢ ـ تميم : تام الخلق ، فلوناه : فطمناه ، عزته : غلبته . ٣ ـ أمين : قوي ، الشظى : عظم لاصق بالذراع ، الصفاق : الجلدة السفلى من البطن تحت ظاهر الجلد ، المنقبة : حديدة البيطار ، الأباجل : ج أبجل ، عرق في اليد . ٤ ـ تداعب : جاء من كل وجه ، المشبوبة : الحرب المضرمة .

كبداء مقبلة ، وركاء مدبرة قوداء فيها اذا استضربتها خضع (١)
تردي على مطمئنات مواطئها تكاد من وقعهن الارض تنصدع (٢)

ان زهيراً في وصفه للفرس قد أعطانا صوراً واقعية نلمح فيها ذلك الهدوء يتسلل الى نفوسنا من كل لفظة ، كل جملة ، كل ترتيب ، كل صفة ، لهذا الفرس الذي رافقه وعايشه ... انه لا يمكننا الا الاقرار بأن زهيراً وصّاف ناجح يستخدم كل وسيلة في سبيل تجسيد موصوفه حتى يأتي عمله ناجحاً ، اطاراً ومضموناً :

١ - **من حيث الشكل** : لقد ادى بخيالية ومادية تعابيره الى اكساب الموصوف رونقه الخاص به ، يضاف الى ذلك الهدوء التسالي الذي لاحظناه بشكل خاص في النموذج الاول ، والتوثب الظاهر في النموذج الثاني ، اذ استعمل في سبيل ابرازهما بعض المؤثرات كالترصيع والطباق (كبداء مقبلة ، وركاء مدبرة) والاستعارات والتشابيه في بعض الابيات الأخرى ...

٢ - **من حيث الموضوع** : استطاع بصور جزئية متتابعة ، شرح كل أفكاره التي أراد بها وصف فرسه ، مستعملاً في ذلك الألفاظ

٥ - كبداء : ضخمة الوسط ، وركاء : عظيمة الوركين ، قوداء : طويلة العنق.
٦ - الردبان : ضرب من العدو ، المطمئنات : أراد بها الحوافر .

الموحية ، والتراكيب المتلائمة مع هذه الألفاظ ، والمتعاطفة مع الموصوف .

وصف الخمر وتأثيرها بشاربيها :

على الرغم من أن زهيراً لم يعرف عنه الولع بالخمرة ، أو مجالسة شاربيها ، الا اننا نجد له وصفاً حيا لها ولآثارها في نفوس معاقريها :

وقد أغدو على ثبت كرام   نشاوى واجدين لما نشاء[1]
لهم راح ، وراووق ، ومسك   تعلّ بــه جلودهم ، وماء[2]
يجرّون البرود وقد تمشّت   حميا الكأس فيهم ، والغناء[3]
تمشّى بين قتلى قد أصيبت   نفوسهم ، ولم تهرق دماء

اننا لانغالي اذا قلنا بأن زهيراً قد بلغ غاية الجودة والنجاح في وصفه للخمر وشاربيها ، **حتى أن شاعر الخمريات الحسن بن هانيء (أبو نواس) قد تأثر بالبيت الذي مطلعه** (يجرّون البرود ..) **فقال** بيته المشهور :

فتمشّت في مفاصلهم   كتمشّي البرء في السقم

وكيف لايتأثر ، والتصوير ناجح ، والالفاظ والتعابير ملائمة ، والحركة طربة سكرى تفوح منها رائحة الخمر .

---

١ - الثبة : الجماعة من الناس ، (في رواية اخرى قوم) نشاوى : ج نشوان ، سكران . ٢ - تعل : تطيب مرة بعد مرة (في رواية أخرى لهم طاس) . ٣ - البرود : ج برد ، الثوب الموشى ، حميا الخمر : تأثيرها .

وصف الري عند المزارعين العرب :

كان لابد لزهير وهو ابن بيئته البدوية ، من ان يصف لنا مشهداً طالما رآه واعجب به ، ونقصد به ، وصفه لطريقة الري عند المزارعين العرب ، هذا الذي لم يجاره فيه غيره من الشعراء الجاهليين :

كأن عينيّ في غربي مقتّلة ... من النواضح تسقي جنة سحقا [1]

تمطو الرشاء فتجري في ثنايتها ... من المحالة ثقباً رائدا قلقا [2]

لها متاع ، واعوان غدون به ... قتب وغرب اذا ما افرق انسحقا [3]

وخلفها سائق يحدو اذا خشيت ... منه اللحاق تمد الصلب والعنقا

وقابل يتغنى كلما قدرت ... على العراقى يداه قائما دفقا [4]

يحيل في جدول تحبو ضفادعه ... حبو الجواري ترى في مائه نطقا [5]

يخرجن من شربات ماؤها طحل ... على الجذوع يخفن الغم والغرقا [6]

لن نكرر ما قلناه بالنسبة لموصوفاته التي أتينا على ذكرها ، وحسبنا ان نقول بأن القناعة قد اصابت هدفها منا بحيث جعلتنا نعطي حكما عاما على زهير بأنه وصاف ماهر . يجسّد الموصوف بصور متتابعـــة

١ ـ غربي : مثنى غرب : الدلو ، المقتلة : صفة للناقة المدربة ، سحقاً : ج سحوق النخلة العالية . ٢ تمطو الرشاء : تمد الحبل ، الثناية : الحبل الذي اوثق احد طرفيه بقتب الناقة والآخر بالدلو ، المحالة : البكرة ، رائداً : الذي يذهب ويجيء .
٣ ـ القتب : الناقة التي يستقى عليها ، الغرب : الدلو . ٤ ـ العراقى : ج عرقوة ، احدى الخشبتين اللتين توجدان في فم الدلو يشد فيهما الحبل . ٥ ـ النطق : الدوائر التي تعلو الماء . ٦ ـ الشربات : ج شربة : حوض صغير كهيئة المعلف يحفر حول اصل النخلة ويصب فيه الماء لريها ، طحل : اخضر لكثرة مكوث الماء فيه .

حتى يجعلك امامه وجها لوجه .. مستعملا في سبيل ذلك كل الوسائل المؤثرة التي يستطيعها ، من فنون بلاغية ، الى لفتات بارعة الحركات معبرة .. لـ .. لـ .. لآخر ما هنالك من وسائل لا يكتفي بها في سبيل توضيح موصوفه ، بل يضيف اليها انفاسه الشاعرية الخلاقة فتصبح الموصوف نكهة محببة تجعله قريبا من النفوس ، يقبل على قراءته المتذوقون اقبال الجائع على الطعام .

هناك ملاحظة لابد منها بالنسبة للنموذج الاخير تتعلق بنقطتين: اولاهما: تتعلق ببعض الأغراب اللفظي الذي ظهر في الأبيات، والثانية تتعلق بالبيت الاخير منه (يخرجن..) اذ رغم أن زهيراً وضعنا أمام منظر رائع الا انه **قد وقع في خطأ علمي** معروف ، فقد قال في بيته بان الضفادع تخرج من الماء خشية الغم والغرق ، والحقيقة ان الضفادع لا تؤثر عليها المياه بل وتستطيع العيش في الراكد منها غير هيابة من غم أو غرق ..

الأسلوب القصصي :

على ان ما يلفت النظر في شعر زهير الوصفي ، اسلوبه القصصي الذي نكاد نرى ملامحه في الغالبية العظمى من قصائده وبانسجام كاتي بين ادوات التعبير التي تخلق جوا حركياً تتسلسل فيه الصور لتحقق ماهية الموضوعات .

● **ففي معلقته يمكننا ان نعيش في جو من الأشرطة المصورة التي عرضها امامنا بشتى جزئياتها** (منذ تذكره ام اوفى ووقوفه

على آثارها .. و .. وحتى بلوغه الحكمة في نهايتها) **مكونا من ذلك قصة تحليلية تمتاز بأنها :**

آ ـ مأخوذة من الواقع . ب ـ مطعّمة بأثر التجارب الاجتماعية البيئية ، والشخصية الذاتية.

ان قصائده عبارة عن قصص تقليدية تقريباً وتتألف كل واحدة منها (اذا جاز لنا ان نسميها قصة بالمعنى العام) من :

١ ـ **مقدمة** : من وقوف على الاطلال ووصف لمشاهد الارتحال . . وحتى الوصول للموضوع (اذا لم يدخل بالموضوع منذ المطلع ـ كما رأينا في قصائد الرثاء لدى الشاعر اوس بن حجر) .

٢ ـ **عقدة أو شرح صلب الموضوع ومجرياته** (الحرب ، الصيد)

٣ ـ **خاتمة** ، وتكون في اغلب الاحيان على شكل حكمة اللهم الا اذا اراد الشاعر ان تكون من نوع المديح .. وسواه .

● **ولنعد للمعلقة** لنجد ان زهيرا بدأها بالغزل والوقوف على الاطلال : أمن أم أوفى .. ودار لها بالرقمتين . . . وقفت بها من بعد عشرين حجة . . الا انعم صباحاً ايها الربع واسلم . .

ولكن ما نفع الديار وهي خالية من الحبيبة .. ?? اذن عليه اللحاق بها ووصف ارتحالها وهي راكبة على هودجها خطوة ، خطوة وبدون ان يدع شاردة ولا واردة الا واحصاها عليها وعلى من ارتحل معها :

تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن ... تحمّلن بالعلياء من فوق جرثم (١)
علون بأنماط عتاق وكلّة ... وراد حواشيها مشاكهة الدم (٢)
جعلن القنان عن يمين وحزنه ... وكم بالقنان من محل ومحرم (٣)
وورّكن في السوبان يعلون متنه ... عليهن دلّ الناعم المتنعّم (٤)
فلما وردن الماء زرقا جمامه ... وضعن عصي الحاضر المتخيم (٥)
وفيهن ملهى للصديق ومنظر ... انيق لعين الناظر المتوسّم

وما أن يصل شاعرنا الى هذا الحد ، حتى يكون قد أنهى مقدمته ، لينثني بنا الى غرضه الأصلي من القصيدة مستغلاً اندفاع شعورنا معه ، واندماجنا في وصفه الموضوعي ذي الأسلوب القصصي :

سعى ساعياً غيظ بن مرّة بعدما ... تبزّل مابين العشيرة بالدم (٦)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم (٧)
يميناً لنعم السيدان وجدتما ... على كلّ حال من سحيل ومبرم (٨)
تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم (٩)

١ ـ جرثم : ماء لبني أسد . ٢ ـ الانماط : ج نمط ، ما يفرش من الثياب ، الكلة : الستر ومايعرف بالناموسية ، وراد : ج ورد ، احمر ، مشاكهة : مشابهة . ٣ ـ القنان : جبل لبني أسد ، الحزن أرض غليظة .
٤ ـ ورك : ركب أوراك الدواب ، السوبان : اسم واد ، المتن : المرتفع .
٥ ـ الجمام : ج جمة الماء : معظمه . ٦ ـ غيظ بن مرة : احد بطون ذبيان ، ٧ تبزل : تشقق . ـ البيت : الكعبة المشرفة ، جرهم : قبيلة قديمة . ٨ ـ السحيل :
٩ ـ تفانوا : اشتركوا في الفناء وأفنوا بعضهم بعضاً ، منشم : اسم امرأة كانت تبيع العطر .

وقد قلتما: أن ندرك السلم واسعاً   بال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن   بعيدين فيها من عقوق ومأثم[1]

لقد أوضح في هذه الأبيات قسماً من الموضوع فما زادنا الا ترقباً وتشوقاً لمعرفة البقية ، وبالتفصيل ، وكأنه بذلك يعلم أثر التشويق في النفوس فاستعمله ، سواء بحوار أو بقسم ، أو بأية وسيلة أخرى يمكن ان توصله الى الهدف الذي يريده . ويتابع رسم الصور ليتمم الموضوع ، فاذا به يضعنا في الحرب التي حصلت ؛ والتي صورها أحسن تصوير ـ كما أوضحنا فيما سبق ـ **مستعملاً الوسائل العقلانية من ربط للمقدمات بالنتائج ، بالاضافة لجميع الوسائل التعبيرية الأخرى . . .** (وما الحرب الا ما عرفتم وذقتم . . .) وحتى (فتغلل لكم ما لاتغل لأهلها . . .) . . .

وما أن نصل الى الرمق الاخير من جراء اشتراكنا في الحرب التي صورها ، حتى **يكمل الصورة الرئيسية لموضوعه** بوصفه مافعله حصين بن ضمضم من محاولة لنقض الصلح بين قبيلتي عبس وذبيان :

لعمري لنعم الحي جر عليهم   بما لا يؤاتيهم حصين بن ضمضم
وكان طوى كشحا على مستكنة   فلا هو ابداها ولم يتقدم[2]

---

١ ـ العقوق : قطيعة الرحم . ٢ ـ طوى كشحا : أخفى ، المستكنة : العزيمة المعقودة .

وقال: سأقضي حاجتي ثم أتقي عدوي بألف من ورائي ملجم
فشد، ولم يفزع بيوتاً كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم
لدى أسد شاكي السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم [1]
جريء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعاً وان لا يبد بالظلم يظلم

وبعد ان وصل زهير الى هذا الحد ، نشعر انه قد استوفى جزئيات القصة الرئيسية المتمثلة بالمقدمة وصلب الموضوع ولم يبق عليه الا ايراد النهاية .. فاذا به يقدم العبرة والنصيحة بحكم رائعة ، خلدته أبد الدهر وجعلت الكثيرين يلقبونه بشاعر الحكماء وزعيم انصار السلم في العصر الجاهلي ، مما سنوضحه في باب الحكمة .

وقبل ان ننتقل الى استعراض نماذجه الوصفية القصصية الاخرى المنبثة في بقية قصائده ، لا بد لنا من القول ، بأن وصف زهير في المعلقة قد بلغ أرفع المستويات من النواحي : الفكرية واللغوية والعاطفية والفنية .. حتى انصبت معظم شروح الباحثين على المعلقة دون سواها ، مع ان في ديوان زهير قصائد اخرى لا تقل عنها جودة من جميع النواحي كما سنلاحظ في النموذج التالي الذي كان الغرض منه مدح حصن بن حذيفة :

---

١ – المقذف : الغليظ اللحم .

● **لقد بدأ كعادته بالغزل والوقوف على الاطلال** كمقدمة لما سيوضحه ، عند الوصول الى غرضه الاساسي :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله — وعرّي أفراس الصبا ورواحله
وأقصرت عما تعلمين وسدّدت — عليّ سوى قصد السبيل معادله [1]
وقال العذارى : إنما أنت عمنا — وكان الشباب كالخليط نزايله [2]
فأصبحن ما يعرفن الا خليقتي — والا سواد الرأس والشيب شامله

ما من شك بان هذه المقدمة تختلف عن مثيلتها الواردة بالمعلقة ويتجلى ذلك في قوة الانفعال النفسي الذي برز في تحسّر الشاعر على ايام شبابه ، وكيف اصبح رأسه يشمله الشيب ، فاضحى غير مفضّل ولا مرغوب فيه لدى النساء.

● وبعد هذه الوجبة من المقبلات ، يأتي شاعرنا على **وصف الاطلال والوديان والجبل والمطر والفرس ، ليضعنا** بعدها امام أجمل شريط مصور للصيد لعل أبرز مظاهره ،بعده عن التكلف وغزارة الألفاظ الموسيقية الأخاذة التي سبق فيها كل الشعراء الذين أتوا على مثل هذا الوصف:

اذا ما غدونا نبتغي الصيد مرة — متى نره فاننا لا نخاتلـه [3]
فبينا نبغي الصيد جاء غلامنا — يدبُّ ويخفي شخصه ويضائـله

١ ـ اقصر : كف عن اللهو ، المعادل : ج معدل ، كل ما عدل فيه عن القصد .
٢ ـ نزايله : نفارقه . ٣ ـ لا نخاتل الصيد : لا نسارقه ولا نكيده ولا نخدعه .

فقال : شياه راتعات بقفـــرة   بمستأسد القريان حو" مسايله [1]
ثلاث كأقواس السراء ومسحل   قد اخضر" من لس" الغمير جحافله [2]
وقد خرّ"م الطراد عنه جحاشه   فلم تبق الا نفسه وحلائـــله [3]

ان القاء نظرة سريعة على الابيات السابقة وخاصة عجز البيت الثاني (يدب" ويخفي شخصه ويضائله) ترينا أية قوة وصفية دقيقة قد اودعها شاعرنا في هذه الأبيات حتى أتت على هذا النحـــو القصصي الذي نلمح من خـلاله تركيزاً لفظياً ومعنوياً عـــلى الأبيات كافة .

● على ان جمال الصورة ووضوحها وجودتها لا يقف عند هذا الحد بل يستمر مع الاندفاع الوصفي المتتابع بصور يكمل بعضها بعضاً :

فقال أميري : ماترى رأي ماترى   أنختله عن نفسه أم نصاوله [4]
فبتنا عراة عند رأس جوادنا   يزاولنا عن نفسه ونزاولـــه [5]

---

١ ـ الشياه : الأتن الوحشية ، المستأسد : ما طال من النبت وقوي . القريان : ج قري : مجرى الماء على الرياض . ٢ ـ السراء : شجر تتخذ منه القسي ، المسحل حمار الوحش ، لس : اخذ بمقدم الفم ، الغمير : نبات اخضر مغمور بنبات آخر ، الجحافل : ج جحفلة ، شفة الفرس والحمار . ٣ ـ الطراد : الصيادون ، خرموا جحاشه : أخذوها واحداً واحداً . ٤ ـ الامير : المؤامر والمستشار ، صاول : طارد . ٥ ـ عراة : ج عرواء الرعدة ، او ج عار : متجرد من ثيابه .

ونضربه حتى اطمـأن قذاله ولم يطمئن قلبه وخصائلـه[1]
وملجمنا ما ان ينال قذالـه ولا قدماه الأرض الا اناملـه

وتتتابع الصور .. وتتلاحق .. وتتكامل .. وتظل الحركة شغل زهير الشاغل .. انه يوزعها - كما اسلفنا - بحسب الحاجة اليها ، دون اسراف ولا تقتير ، ووفق مقتضى الحال ...

ولا ينسى زهير العامل النفسي الذي يلعب الحوار، الدور التأثيري البارز فيه ، فاذا بنا نراه يودعه في المكان المناسب حتى يصبح وحدة متكاملة عمادها التماسك التام بين جزئيات الصور و كليات الأفكار العامة للموضوع .

● وهناك عامل آخر لا يغفله زهـير في سبيل اكساب أبياته الجودة واكسائها الحلة الجميلة ، وهو ابراز الانفعالات النفسية .

فلأياً بلأي ما حملنا وليدنا على ظهر محبوك ظماء مفاصلـه[2]
وقلت له: سدد وأبصر طريقه وما هو فيه عن وصاتي شاغلـه
وقلت : تعلّم ان للصيد غرة والا تضيّعها فانك قاتلـه[3]

● وما أن يصل زهير الى هذه النقطة من تعليم الوليد الصيد، حتى

---

١ - قذاله : رأسه ، الخصائل : ج خصيلة، كل لحمة في عصبة . ٢ - فلأيا بلأي : بالجهد والعناء ، المحبوك : الشديد الخلق ، ظماء مفاصله : قليلة اللحم . ٣ - الغرة : الغفلة .

ينقلنا الى صورة أخرى مكملة ومطبقة لما أثاره وأبرزه في الصورة الماضية :

فتبّع آثار الشياه وليدنا كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله[1]
نظرت اليه نظرةً فرأيته على كل حال مرّةً وهو حامله
فردّ علينا العير من دون الفه على رغمه يدمي نساه وفائله[2]
يثرن الحصى في وجهه وهو لاحق سراع تواليه صباب اوائله
ورحنا به ينضو الجياد عشية مخضبة ارساغه وعوامله[3]
بذي ميعة لا موضع الرمح مسلم لبطء ولا ما خلف ذلك خاذله[4]

وبهذه الصور ينهي زهير موضوعه الوصفي للصيد ، ليبدأ في الموضوع الاساسي الذي نظم القصيدة في سبيله وهو المدح ، متابعا ذلك بنفس الروح القصصية التي بدأ فيها :

وأبيض فياض يداه غمامة على معتفيه ما تغبّ فواضله[5]
بكرت علي غدوة فرأيته قعوداً لديه بالصريم عواذله[6]
يفدّينه طوراً وطوراً يلمنه وأعيا فما يدرين أين مخاتله
فأقصرن منه عن كريم مرزّإ عزوم على الامر الذي هو فاعله[7]

---

١ – يحفشها السيل : يكثر عليها حتى يخرج ما فيها ، الشؤبوب : الدفعة من المطر . ٢ – التوالي : الارجل والعجز ، الاوائل . اليدان والصدر . ٣ – ينضو الجياد : ينسلخ عنها ويتقدمها ، العوامل : القوائم . ٤ – الميعة : الدفعة من السير ، موضع الرمح : كاثبة الفرس . ٥ – المعتفي : طالب العطاء ، ما تغب : ما تنقطع ٦ – الصريم جـ صريمة ، رملة منقطعة عن معظم الرمل ، العواذل : اللوم . ٧ – المرزأ : المصاب بماله كثيراً .

أخي ثقة لاتتلف الخمر ماله　　ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه إذا ماجئته متهللاً　　كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقبل أن نذكر الخصائص المشتركة لأسلوبه القصصي ، لابد لنا من ايراد بعض الأبيات المنتقاة ذات الأسلوب القصصي :

قال في معرض مدحه لهرم بن سنان والحارث بن عوف .

اذا فزعوا طاروا الى مستغيثهم　　طوال الرماح لاضعاف ولا عزل[1]
بخيلٍ عليها جنّة عبقرية　　جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا[2]

وقال في معرض هجائه لآل حصن بن عليم بن كلب بعد أن زعم رجل من قومه أغارتهم عليه :

وجار سار معتمداً اليكم　　أجاءته المخافة والرجاء[3]
فجاور مكرماً حتى اذا ما　　دعاه الصيف وانقطع الشتاء
ضمنتم ماله وغدا جميعاً　　عليكم نقصه وله النماء

وقال في معرض معاتبة زوجته أم كعب عندما أعرض عن زيارتها :

وقالت أمّ كعب : لاتزرنا　　فلا والله ما لك من مزار

---

١ – فزعوا : طلبت معونتهم ، عزل : ج أعزل ، الذي لا سلاح معه .
٢ – جنة : ج جن ، عبقر : موضع كثير الجن . ٣ – اجاءته : صيرته .

رأيتك عبتني وصددت عني فكيف رأيت عرضي واصطباري
فلم أفسد بنيك ولم أقرّب اليك من الملمّات الكبار

وقال يصف بلدة مهجورة :

وبلدة لاترام خائفـــة زوراء مغبّرة جوانبهـا[1]
تسمع للجن عازفين بهـــا تضبح من رهبة ثعالبها[2]
يصعد من خوفها الفؤاد ولا يرقد بعض الرقاد صاحبها

١ – زوراء : ليس طريقها بمستقيم ٠ ٢-ضبح : صاح٠

الخصائص المشتركة للأسلوب القصصي

قد نفتقد في شعر زهير مرتكزات وأسس القصة الحديثة (من أبعاد وأمور جذرية أخرى) ، ولكننا بلاشك نجد عنده ملامح قصصية بدائية ، سواء في الأسلوب ، أو في محاولة التحليل الموضوعي (التي لايعيبها خلوّها من العمق ، وجنوحها الى السطحية والبساطة ، لأن الفن القصصي يختلف عن الفن الشعري) تقودنا للاعجاب بما قدّمه من شعر جيّد وناجح ، لان شاعراً عاش في بيئة جاهلية وقدّم هذا العطاء الجميل ، يستحق التقدير والاعجاب بهذه الموهبة ، لانه ربما لو أتيح له ما يتاح لقصّاصينا الآن ، لكان شعره القصصي أروع وأعمق ، ولازداد الاعجاب به وأصبح علماً من أعلامه المعدودين .

وفيما يلي الخصائص المشتركة لوصفه القصصي :

١ ـ **تصوير الافكار وتقديمها بلوحات جميلة** تؤدي الغرض المطلوب منها دون تعقيد ولا تكلف (وصف الصيد) .

٢ ـ **استعمال الالفاظ السهلة الواضحة والتراكيب المتينة المتجانسة مع تلك الالفاظ والمتماسكة مع أوزان الأبيات وقوافيها .**

٣ ـ **العناية بالاخراج العام للقصيدة** بفضل : **أ ـ الحوار** الذي تردد في اكثر من قسم من قصائده فخدم عملية تتابع الصور ، وربط بين الافكار والتراكيب . **ب ـ الحركة**: التي برزت جلية في المعلقة (وصف الحرب ووصف العراك) . . **ج ـ أسلوب الترقب** : اذا ما غدونا . . فبينا نبغي . . **د ـ تتابع الصور** بتتابع عرض الافكار : مشاهد الارتحال ، الحرب ؛ الصيد وتصرفات الاطراف الذين اشتركوا فيه (من انسان وحيوان) .

٤ ـ **الاعتماد على التشابيه والاستعارات** ووضعها بما تتوافق معه من اماكن ،بدقة ودون اسراف ولا تقتير ، وبشكل يلائم المواقف الموضوعة للتعبير عنها .

٥ ـ **تجسيد الصور وتقريبها للواقع المستقاة منه** ، حتى ليحسب المرء نفسه في الحرب التي صورها أو في الغبار الذي ثار ابان العراك بين الثور الوحشي وصائديه .

الخصائص العامة للوصف

بعد ان استرسلنا باسهاب في ذكر موصوفات زهير نرى من الضروري استخلاص الخصائص العامة التي لاحظناها اثناء عرضنا مجملة في البنود التالية :

١ ـ التوفيق في تصوير المعاني ، وتجسيدها بالأخذ من الواقع والاستمداد من الخيال .

٢ ـ النجاح في طريقة عرض المواضيع ، وخاصة عند استعمال الوسائل العقلانية المحضة (ربط المقدمات بالنتائج ، تسلسل ايراد الافكار) في سبيل توضيح الافكار والمعاني بما يتلاءم مع واقع الموصوف .

٣ ـ الملاءمة والتعاطف الكلي بين المواضيع من جهة ، والالفاظ والجمل والتراكيب المكونة لها من جهة أخرى ، مع وجود الاغراب اللغوي الذي ربما ورد نتيجة للبيئة القبليّة التي كانت كانت تفرض على الشاعر ايراد بعض الالفاظ والتراكيب التي تعورف

عليها في ذلك الحين ،وأصبحت الآن غريبة ومستكرهة على السمع .

٤ – **شيوع المادية في الألفاظ والتعابير** ، كنتيجة طبيعية لاستمداد الشاعر عناصر قصائده من بيئته من جهة ، ولدقة ملاحظته ، وصدقه الموضوعي والعاطفي من جهة اخرى .

٥ – **الدقة في الملاحظة ، والتوفيق الكامل في شمول واحاطة الموصوفات والتعبير عنها** ، بالاسهاب حيناً ، وبالايجاز أحياناً ، وبشكل استطاع فيه ايراد صور مسجلة بدقة وواقعية .

٦ – **البراعة في ايراد الفنون البلاغية** ، كالتشابيه والاستعارات والكنايات والطباق والجناس والمرادفات والمقابلات والالتفاتات .. ووضعها مع ما تتناسب وإياه من مواضع ، دون غلو أو تكلف أو سوء استعمال .

٧ – **شيوع الأسلوب القصصي** ، المتجلّي بكثرة الصور واللوحات الملونة المؤثّرة بدقتها في غالبية قصائده وبشكل يعتقد المرء أنه أمام شريط مصوّر .

٨ – **استعمال الكثير من المؤثّرات التي تؤدي لتجسيد الموصوف وتقريبه من الأذهان** ، كاللجوء لذكر الجزئيات ، وذكر الزمان والمكان ، بالاضافة لتصوير المعاناة النفسية ، والانفعالات العاطفية في المواضيع التي تتطلب ذلك ، مع استخدام عنصر التشويق والترغيب وخاصة في الأسلوب القصصي .

٩ ـ الاعتماد على عنصري الحركة والهدوء وتدرجها وفقاً لطبيعة الموصوف ، لتقريبه من الاذهان ووضعه في اطاره العام .

١٠ ـ الصدق في التعبير الممتزج بالعاطفة الانسيابية في سائر المواضيع الوصفية تقريباً ، وبشكل لايدع مجالاً لأي تكلف أو تزويق ، خاصة وان هذه المواضيع تغلب عليها السمات التعبيرية ، التي لاتساهم فيها العاطفة بشكل مباشر . أي أن شاعرنا وقد جسد عن طريق موصوفاته بعض المواضيع الحساسة ، كالحرب مثلاً ، كان لابد لعاطفته ان تلعب دورها بشكل بارز وفعال لتعطي الموصوفات رونقها الخاص .

* * *

المديح

أهميته :

بعد أن سلطنا الاضواء على وصف زهير الذي انبث* في أكثر قصائده وكأنه القاسم المشترك الاعظم بين أقسامها ، يمكننا اعتبار المديح من أهم الاغراض الشعرية الاخرى التي نظم فيها ، وذلك للأسباب التالية :

آ ـ غزارة القصائد التي نظمها فيه .

ب ـ وضوح صفات الشاعر الذاتية في قصائده .

ج ـ اهتمام الأدباء والنقاد بقصائده (المدحيه) وتقديمها على أماديح الشعراء الآخرين ، مع الاكثار من الاستشهاد بها في أمهات الكتب الأدبية منذ القديم وحتى الآن .

د ــ البعد عن التكلف، أو التكسّب، مع التزام الصدق فيها،
حتى قال عنه الخليفة الذوّاقــة عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه: لا يمدح الرجل الا بما فيه..

بواعثـــه :

في أواخر العصر الجاهلي، عصفت بالمجتمع العربي رياح الغزوات والثارات والحروب، كان آخرها حرب داحس والغبراء التي اتصلت حوادثها، حتى كادت تودي بالقبائل المشتركة فيها الى الانقراض، لولا قيام بعض وجوه وسادات العرب (كهرم بن سنان والحارث بن عوف) بالدعوة لاحلال السلم بين القبائل ودفع ديّات القتلى.

وقد كان زهير يعيش في تلك الحقبة من الزمن، فرأى أهوال تلك الحروب وتشبّع مآسيها، وما جرّته على مجتمعه من ويلات ثم شهد أولئك الاشخاص الداعين للسلام والاخاء، وقــد ضحّوا بأموالهم في سبيل حقن الدماء وبعث الطمأنينة في نفوس أبناء المجتمع فما كان منه وهو ابن مجتمعه الذي يؤذيه من يؤذيه، ويسعده من يفتديه، الا أن أثنى بقصائد مدحية كثيرة على أولئك الاشخاص، فخلدتهم وخلدت أعمالهم وكل عمل خير الى الأبد.

وبالاضافة لذلك الباعث الذي اوضحناه، **يمكننا اجمال البواعث**

الرئيسية لمدح زهير في :

١ ـ اعجابه بما قام به ممدوحوه من دعوة لاحلال السلام والاخاء مع تحقيقهم ذلك بدفع ديّات القتلى من القبائل المتحاربة .

٢ ـ التقاؤه الفكري والوجداني مع ممدوحيه الداعين للسلام كنتيجة حتمية لكرهه للحروب وتاصل الافكار السلميّة الانسانية لديه .

• • •

المقومات الرئيسية للمديح

من المجمع عليه ، أنه ليكون المدح ناجحاً ، لا بد أن تتوفر فيه المقومات الأساسية التالية :

١ ـ **ذكر الصفات الأساسية المتفق عليها للممدوح** ، من عقل وشجاعة وعدل وعفة وكافة ما يتفرع عنها مما هو محبب لدى الممدوح والبيئة التي يعيش فيها .

ب ـ **التركيز على الصفات الأساسية للممدوح** ، بالاختصار حيناً وبالشرح أحياناً ، مع ضرورة الباس كل منها الحلة الملائمة ، شكلا وموضوعاً لتحقيق التكامل والتعاطف سواء من حيث الالفاظ ، أو من حيث المعاني .

ج ـ **الصدق في العاطفة المدحية** الذي لا يمكن توفره الا اذا كان الممدوح قد أتى من الأفعال الحميدة ما أثار اعجاب الشاعر وكهرب عواطفه الشعرية ، فأصبح الاثنان في ارتباط عاطفي واحد

الا أثر فيه للزيف أو الرياء أو التملق .

وفي الابيات المدحية التي سنوردها ، سوف نحكم ما اذا كان شاعرنا زهير قد استطاع تحقيق هذه المقومات في أماديحه أم لا .

الاشخاص الذين مدحهم :

مدح زهير أشخاصاً عديدين لعل أشهرهم : هرم بن سنان الذي وقف عليه وأهله جل اماديحه ، ثم الحرث بن عوف وحصن بن حذيفة ، وسنان بن حارثة المري .

مدحه لهرم بن سنان وأهله :

ان أكثر قصائد زهير المدحية وأجودها تلك التي نظمها في هرم بن سنان الذي كانت له من الصفات والسجايا ما حببه به ، وجعله يعجب بأفعاله وخاصة أثر سعيه للصلح بين عبس وذبيان ثم دفعه مع الحرث بن عوف ديات قتلى حرب داحس والغبراء .

وقد روي أن هرماً أقسم ألا يبلغه مديح زهير الا وصله بما اخجل شاعرنا فكان اذا لمحه في مجلس قال : « عموا صباحاً غير هرم وخيركم استثنيت » .

وفي السطور التالية سنعالج أبياتاً من قصائد قصرها على مدح هرم بن سنان واهله ، لنقوم فيما بعد بمعالجة ابيات مدحية من قصيدتين (احداهما المعلقة) قالهما زهير في مدح هرم بن سنان

والحرث بن عوف بعد ان قاما بدفع ديات قتلى حرب داحس والغبراء اثر اقرار الصلح بين القبائل المتقاتلة لتكون الخاتمة قصيدة خصّها حصن بن حذيفة :

دع ذا وعدّ القول في هرم خير البداة ، وسيّد الحضر
تالله قد علمت سراة بني ذبيان ، عام الحبس والاصر (١)
ان نعم معترك الجياع اذا خبّ السفير وسابىء الخمر (٢)
ولنعم مأوى القوم قد علموا ان عضهم جلّ من الأمر
ولنعم حشو الدرع أنت اذا دعيت نزال ، ولجّ في الذعر (٣)
حامي الذمار على محافظة الجلى ، أمين مغيّب الصدر (٤)
حدباً على المولى الضريك اذا نابت عليه نوائب الدهر (٥)
ومرهّق النيران يحمد في اللأواء ، غير ملعّن القدر (٦)
واذا برزت له برزت الى ضافي الخليقة ، طيّب الخبر
متصرف للمجد معترف للنائبات ، يراح للذكر (٧)

---

١ ـ الحبس : جمع المواشي خشية الاغارة عليها ، الأصر : الضيق وسوء الحال .
٢ ـ معترك الجياع : مجتمعهم ، خب : سار سريعاً من الخبب ، السفير : الورق الساقط تذروه الرياح (للدلالة على مجيء الشتاء وقلة المرعى) ، سابىء الخمر : مشتريها . ٣ ـ حشو الدرع : لابس الدرع ، دعيت نزال : اشتدت الحرب ودعا كل قرن قرنه للنزال . ٤ ـ الجلى : النائبة الشديدة (اراد بها جماعة العشيرة) . ٥ ـ حدب : مشفق ، الضريك : المتضرر من الفقر وسواه . ٦ ـ مرهق النيران الذي تقصد ناره ويحاط بها ، اللأواء : شدة الزمان . ٧ ـ معترف : صابر .

جلد يحثّ على الجميع اذا   كره الظنون جوامع الامر
فلأنت تفري ما خلقت وبعـــض القوم يخلق ثم لا يفري (١)
ولأنت اشجع حين تتجه الأبطـــال من ليث أبي أجـــري (٢)
اثني عليك بما علمت وما اسلفت في النجـــدات والذكـــر (٣)
لو كنت من شيء سوى بشر   كنت المنوّر ليلة البـــدر

اما القصيدة الثانية التي مدح فيها هرماً فنقتطف منها هذه الابيات :

الى هرم تهجيرها ووسيجها   تروح من الليل التمام وتغتدي (٤)
سواء عليه أيّ حين أتيتـــه   أساعة نحس تتقى أم بأسعـــد
أليس بضرّاب الكمـاة بسيفه   وفكّاك أغلال الأسير المقيّـــد
وثقل على الاعداء لا يضعونه   وحمّال اثقال ومأوى المطـــرّد
أليس بفيّاض يداه غمامـــة   ثمال اليتامى في السنين محمد (٥)
تقي ، نقي ، لم يكثّر غنيمه   بنهكـــة ذي قربى ولا بحقلّد (٦)

اما القصيدة الثالثة فقد خصها بهرم واهله وفيما يلي الأبيـات التي اخترناها منها :

---

١ - تفري : تقطع ، خلق الجلد : هيأه وقدره . ٢ - اجري : ج جرو ، ولد الأسد . ٣ - النجدات : ج نجدة ، الشدة والبأس . ٤ - التهجير : السير في الهاجرة ، الوسيج : نوع من السير السريع : التام : اطول اوقات الليل . ٥ - ثمال اليتامى مطعمهم . ٦ - النهكة : النقص والاضرار ، الحقلد : البخيل السيء الخلق .

يطلب شأو امرأين قدّما حسنا   نالا الملوك ، وبزّا هذه السوقا (١)

هو الجواد فان يلحق بشأوهما   على تكاليفه ، فمثله لحقا (٢)

أغر ، أبيض ، فياض يفكّك عن   أيدي العناة وعن أعناقها الربقا (٣)

وذاك أحزمهم رأيا اذا نبأ   من الحوادث غادى الناس أو طرقا (٤)

ان تلق يوماً على علاّته هرما   تلق السماحة ، منه والندى خلقا (٥)

وليس مانع ذي قربي وذي رحم   يوماً ، ولا معدما من خابط ورقا (٦)

ليث بعثّر يصطاد الرجال اذا   ما كذب الليث عن أقرانه صدقا (٧)

هذا ؛ وليس كمن يعيا بخطّته   وسط الندي اذا ما ناطق نطقا (٨)

لو نال حي من الدنيا بمكرمة   أفق السماء ، لنالت كفه الأفقـــا

لقد حرصنا على ايراد هذه الامثلة الثلاثة لقصائد زهير المدحية في هرم واهله ، لنبيّن الغزارة التي كان عليها شعر زهير في مدح هذا السيد الكريم، الذي اصبح مضرب المثل بكرمه وجـــوده وحسن اخلاقه وصنيعه ، لا في زمانه فحسب وانما بعد ذلك ، حتى ان الخليفة **عمر بن الخطاب** (ر) قال لأحد أولاد هرم : أنشدني

---

١ ـ الشأو : الغاية ، بزا : غلبا ، السوق : ج السوقة ، اوساط الناس .

٢ ـ التكاليف : الجهد والمشقة .

٣ ـ العناة : ج العاني ، الاسير ، الذليل ، الربق : ج الربقة : حبل طويل ، فيه حلق (للدلالة على الاغلال) . ٤ ـ غادى : اتى في الغداة ، طـــرق ، جاء في الليل . ٥ ـ على علاته : على قلة ماله . ٦ ـ المعدم : المانع ، الخابط : طالب المعروف الورق : المعروف . ٧ ـ عثر : اسم موضع . ٨ ـ الندي : مجلس القوم .

بعض مدح زهير لأبيك ،فأنشده ، فقال عمر: ان كان ليحسن فيكم القول ، **قال: ونحن والله ان** كنا لنحسن له العطاء ، **فقال** عمر: قد ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم. **وقال عمر لابن زهير** : ما فعلت الحلل التي كساها هرم اباك ؟**قال** : ابلاها الدهر، **قال** : لكن الحلل التي كساها ابوك هرما لم يبلها الدهر.

والآن حسبنا ما عرفناه عن صلة هرم بزهير وقيمة اشعاره التي قالها فيه .. ولنستعرض ماهية هذه الاشعار :

الملاحظة الاولى التي تلفت نظرنا، **ان زهيرا قد ملأ نماذجه بكثير من الصفات الحميدة والمحببة لكل نفس** ، فممدوحه هرم ، احسن الناس (خير البداة وسيد الحضر) وكيف لا وهو الذي عرف عند النائبات بتفريج ضيق قومه عند العسر ، وعظم شجاعته عند الحرب ومحافظته على قومه ، وكتم ما يعرف من اسرارهم .. لا يرد سائلا ان قصده ،ويفتح بيته للقرى.. يحب فعل الخير ويحث عليه في كل مجلس ، يزينه العقل ، ولا يأتيه الباطل من أي جانب.. وبالاختصار فالثناء عليه ليس ضربا من التملق ولكنه الحقيقة الناصعة التي يجب الجهر بها .

● أثني عليك بما علمت وما أسلفت في النجدات والذكر

● تقـــي نقيٌ لم يكثر غنيمةً بنهكة ذي قربى ولا بحقلد
● لو نال حـــي من الدنيا بمنزلة أفق السماء لنالت كفه الأفقا

اما الملاحظة الثانية فهي ان أفكاره ومعانيه واضحة ، ولكنها ليست بمستوى واحد ، اذ نلمح المقطوعتـــين الثانية والثالثة اوضح وأقرب الى الفهم من الأولى ، الا انها جميعاً تمتاز بصدق العاطفـــة وتدفقها ، وهذا ليس بغريب ، باعتبار ان الممدوح يمتاز بكل تلـك الصفات التي أوردها الشاعر .

اما الملاحظة الثالثة فتتعلق بماهية الأفكار :

١ ـ على الرغم من وضوحها وصدقها ، فاننا نجدها غير جديدة ، بل هي مطروقة ومعروفة ، ولطالما اوردها الشعراء الآخرون اللهم الا بعض الابيات الجديدة المبتكرة في شكلها :

● لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنوّر ليـلة البـــدر
● لو نال حيٌ من الدنيا بمنزلةٍ أفق السماء لنالت كفّه الأفقا

٢ ـ ورغم ما عرف عن زهير من حسن ايراد الأفكار وعرضها متسلسلة ، الا اننا نراه هنا أثناء عرض الصفات الخاصة بممدوحه يخل بهذا المبدأ ، فبعد ان يعرض الصفة ويستقصي جوانبها ببيت أو

بأبيات (لدرجة اقتناعنا بأنه وفّاها حقّها) اذ به بعد ايراده عدة صور أخرى لافكار أخرى يعود الى الاولى من جديد مثال : ولنعم حشو الدرع . . ولأنت اشجع . . وذاك احزمهم رأيا . . وليس كمن يعيا بخطته . . .

٣ ـ وكما لم يوفق زهير في ايراد افكاره متسلسلة ، فانه ايضـــا **فشل في اكثر قصائده بربط افكاره بعضها ببعض** ، وهذا في اعتقادنا ناتج عن السبب السابق (عدم تسلسل الافكار) .

٤ ـ على انه وان لم ينجح في ايراد افكاره متسلسلة ، بالاضافة لعدم ترابطها ، **الا انه وفق في عرضها ، فاذا به يستند الى العقلانية التي تدعمها الأدلة والبراهين** ، فعندما يبدأ المديح :

دع ذا وعدّ القـول في هرم   خير البـداة وسيد الحضـر

نراه قد وضع ما يمكن تسميته بمبدإ عام عن ممدوحه وهو (خـير البداة ، وسيد الحضر) ثم اردفه ببيت آخر فيه البرهنة عليه :

تالله قـد علـمت سراة بـني   ذبيان عـام الحبس والاصـر

أي أن ممدوحه معروف لدى الجميع بأنه خير البداة ؛ لانه عند الشدة (نعم معترك الجياع . . نعم حشو الدرع . . حامي الذمار . . مرهق النيران . . متصرّف للمجد . . يفري ما خلق . . أي أن شاعرنا **لم يعمد الى ما يثير العاطفة ، وانما اورد المبدأ ، ثم برهن عليه بالأدلة الواقعية**

الملونة دون تعمد لاثارة القارىء أو التاثير على وجدانه .

أما الملاحظة الرابعة فتتعلق بالألفاظ والجمل والتراكيب :

آ - فالالفاظ التي اوردها في النماذج الثلاثة بعضها سهلة قريبة للفهم والقلب ، وبعضها لا يمكن فهمها الا بصعوبة مثال (المولى الضريك اللأواء ، حقلّد ، خابط . .) ولعل عذره في ذلك ،انها كانت شائعة في عصره ،في حين لا تتلاءم مع عصرنا الحاضر . . مع الاشارة لفصاحة الغالبية العظمى منها رغم عدم جديّة بعضها وانعـدام الشاعرية في بعضها الآخر .

ب - وعلى الرغم من أن بعض ألفـاظ زهير وتراكيبه يصعب فهمها سريعاً ، الا أن كثيراً من كلماته تمتاز بالموسيقية والايحاء (حامي الذمار . .خير البداة . . سيّد الحضر . . مرهتّق النيران . . ضافي الخليقة . . ليلة البدر . . أبيض فيّاض يداه غمامة . . محمّد . . تقيّ . . نقيّ . . الخ) ،بل هي كلّها شاعرية ، وقد أسهمت في اعطاء الموضوع المدحي الرونق الخاص والنكهة المحببة ، حتى أن ورودها زاد في تكامل الموضوع وبروز أبعاده الأساسية .

ج - **وقد نجح زهير في ايراد جمله ، وتراكيبه** ، فاذا هي متينة وقوية وتدل مباشرة على المعنى الذي وضعت للتعبير عنه .

أما الملاحظة الخامسة فتتعلق بتجسيد الأفكار ووضعها في خدمة الموضوع المدحي . . وقد أدّى ذلك :

١ ـ **باكثاره من الصور** ، وعدم افراطه الزائد بالأخيلة ، مع ما عرف من غزارتها في أكثر قصائده الأخرى .

٢ ـ **باستمداده من البيئة البدوية الملائمة للصفات المدحية التي** كانت سائدة في المجتمع العربي في أواخر العصر الجاهلي .

أما الملاحظة السادسة : فتعلّق بالفنون البلاغية التي استخدمها في ابراز تصويراته ، والتي أكثر فيها من الكنايات ، (مغيّب الصدر . . مرهّق النيران . . ملعّن القدر . . .) والاستعارات والتشابيه والطباق (نابت عليه نوائب الدهر . . أليس بفيّاض يداه غمامة . . ؟؟ لنالت كفه الافقا . . البداة . . الحضر ، مرهّق النيران . . ملعّن القدر ، يفري . . لايفري . . ، أنحس . . أسعد ، الخ . . وقد جاءت جميعها دون تكلف أو تعمد . . .

أما الملاحظة السابعة :فتتعلّق بأسلوبه الذي استطاع بواسطته وبفضل أدائه الحسن ، اشاعة جو انسيابي ، بين أبيات النماذج الثلاثة ، اضافة للجوئه من أجل ذلك الى ضروب من التأثيرات :

آ ـ كاكثاره من صيغ المبالغة : ضرّاب . فكّاك . . حمّال . . فيّاض . . الخ . .

ب ـ وترديده كلمات معينة للتأكيد على المعنى كنعم . . وأنت . . وفياض . . الخ . .

أما الملاحظة الأخيرة : فتتعلق بعاطفة شاعرنا التي لاحاجة بنا للتدليل على صدقها ووضوحها وتشبّع أبيات النماذج بحرارتها، والتي ساهمت مع شاعريه أكثر الالفاظ والجمل والتراكيب ،وجمال الصور ، في تكوين الصور المجسّدة لشخص الممدوح ، ومما يؤكد ذلك قول **الخليفة الذوّاقة عمر بن الخطاب** رضي الله عنه أنه : لايمدح الرجل الا بما فيه . .

مدحه لهرم والحرث بن عوف :

بعد أن استعرضنا نماذج زهير التي نظمها في مدح هرم بن سنان وأهله ، نجد أن الوقت قد حان للقيام باستعراض سريع **لمدحه هرم بن سنان والحرث بن عوف** وحصن بن حذيفة : مبتدئين بمدح الأولين بنموذجين أولاهما من المعلقة :

● بينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم ★
تدار كتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما: ان ندرك السلم واسعاً بمال ومعروف من الامر نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد هديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم
فأصبح يجري فيهم من تلادكم مغانم شتى من إفال المزنّم

أما النموذج الثاني فنقتطفه من قصيدته المدحية الطويلة التي مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لايسلو
واقفر من سلمى التعانيق فالثقـل

والتي اتبع فيها تارة أسلوب مخاطبة ممدوحيه مباشرة وطوراً الكلام عنهم وعن أفعالهم وصفاتهم كقوله :

● تداركتما الاحلاف قد ثلّ عرشها
وذبيان قد زلّت بأقدامها النعل
● فأصبحتما منها على خير موطن
سبيلكما فيه ، وان أحزنوا سهل

★ جميع كلمات هذا النموذج مشروحة في صفحة « ١٩٠ و ١٩٥ » .

● اذا السنة الشهباء في الناس أجحفت
ونال كرام المال في الجحرة الاكل[1]
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم
قطيناً بها حتى اذا نبت البقل[2]
هنالك أن يستخبلوا المال يخبلوا وان يسألوا يعطوا، وان ييسروا يغلوا[3]
وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل[4]
على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل
سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم فلم يفعلوا، ولم يليموا ولم يألوا[5]
فما يك من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل

انما نلمح في هذين النموذجين، اكثر الافكار والمعاني التي وجدناها في النماذج الثلاثة التي استعرضناها (باستثناء ما يتعلق بالمناسبة وبعض الالحاح على احسان الممدوحين بسعيهما للصلح بين عبس وذبيان) مع تغير ملحوظ في شكليات الحلل التي كسي بها الممدوحان فالكرم والشجاعة والنجدة والفضل والعقل والحلم والى آخر ماهنالك

---

١ ـ الشهباء : الشديدة (لونها أشهب من كثرة الصقيع وانعدام النبات) ، الجحرة الشديدة البرد التي تحجر الناس في بيوتهم .
١ القطين : الرجل وحشمه . ٢ ـ الاستخبال : استعارة الابل للاستفادة من البانها وأوبارها . ٣ ـ المقامات : المجالس « للدلالة على اهلها » . ٤ ـ لم يليموا ، لم يقوموا بما يلامون عليه ، لم يألوا : لم يقصروا في السعي .

من الصفات المحببة لكل نفس ،، تمتلىء بها الأبيات،لذلك لا ضرورة لتكرار ما سبق وأوضحناه في ملاحظاتنا الثمانية،اللهم الا من **التنويه الى** :١- الوضوح والشفافية في الالفاظ والمعاني . ٢ - النجاح (نسبيا) في عرض الافكار وتسلسلها .. ٣ - التجديد والابتكار لحد الابداع في بعض الابيات أمثال :

على مكثريهم رزق من يعتريهم　　وعند المقلين السماحة والبذل
سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم　　فلم يفعلوا ، ولم يليموا ؛ ولم يألوا
فما يك من خير اتوه فانما　　توارثه ، آباء ، آبائهم قبل

٤ - الاسلوب القصصي الذي استغله في تحريك جو القصيدة وتقريبها للاذهان: اذا السنة الشهباء.. رأيت ذوي الحاجات... سعى بعدهم...
٥ - اللجوء للحوار في سبيل التأثير :

وقد قلتما ان ندرك السلم واسعا　　بمال ومعروف من الامر نسلم

كنا نود الاكتفاء بالنماذج المدحية التي استعرضناها بمناسبة مدح زهير لهرم وأهله والحرث بن عوف ، الا انه تلفت نظرنا **قصيدة مدحية لعلها أروع ما قال زهير من مديح ونعني بها تلك التي نظمها في حصن بن حذيفة والتي مطلعها** :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله　　وعرّي أفراس الصبا ورواحله

لذلك سنستعرضها بسرعة لنخلص الى ذكر الخصائص العامة للمديح:

وأبيض فياض يـداه غمامـه ... على معتفيه ماتغب فواضله
بكرت عليه غدوة فرأيتـه ... قعوداً لديه بالصريـم عواذله
يفدينه طوراً وطـوراً يلمنـه ... وأعيا فما يدرين أين مخاتلـه
فأقصرن منه عن كريم مرزإ ... عزوم على الامر الذي هو فاعله
أخي ثقة لا تتلف الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائلـه
تراه اذا ما جئتـه متهللا ... كأنك تعطيه الذي انت سائله

انها تحكي بصور متلاحقة عن الكرم باجلى معانيه ، وبأسلوب قصصي لعب الخيال فيه الدور الكبير ...

ويتابع زهير عرض الصفات المدحية بأسلوب تحليه المنطقيـة وتلعب فيه المؤثرات كالالتفات والتضاد، الدور التعبيري الكبير :

وذي نسب ناء بعيـد وصلتـه ... بمال ، وما يدري بأنك واصلـه
وذي نعمة تممتها وشكرتهـا ... وخصم يكاد يغلب الحق باطلـه
رفعت بمعروف من القول صائب ... اذا ما أضل الناطقين مفاصلـه
وذي خطل في القـول يحسب أنه ... مصيب ، فلم يلمم به فهو قائله[1]
عبأت له حلماً ، واكرمت غيره ... وأعرضت عنه وهو باد مقاتلـه
حذيفة ينميه، وبـدر كلاهمـا ... الى باذخ يعلو على من يطاولـه[2]
ومن مثل حصن في الحروب ومثله ... لانكار ضيم ، أو لأمر يحاوله

في الواقع ليس هناك ما نورده من ملاحظات بصدد هذه القصيدة

---

١ ـ الخطل : كثرة الكلام وخطؤه . ٢ ـ حذيفة : والد الممدوح ، بدر: جده .

فهي ناجحة من جميع النواحي ،الفكرية واللغوية والعاطفية والفنية الا اننا نود القول بأن زهيرا قد ركز في قصيدته هذه على الصفات الحسنة وأوردها متسلسلة ضمن عرض منطقي ناجح .

قد يعتقد البعض ، ان زهيرا بالغ في أماديحه (ومن هؤلاء ابن سلام الجمحي الذي قال عنه في كتابه _ طبقات فحول الشعراء _ انه اشدهم مبالغة في المدح ...) ولكن الحقيقة أن زهيرا اعجب بممدوحيه فأفاض عليهم من الصفات الكريمة الشيء الكثير ، انما بصدق لا زيف فيه ، باعتبار انه لم يعرف عنه التكسب بشعره ولو كان كذلك لما قال بصدد قسم هرم بن سنان ، بألا يبلغه مديح زهير الا وصله ، عبارته الشهيرة التي كان يرددها كلما مر بمجلس فيه هرم (عموا صباحا غير هرم ، وخيركم استثنيت) ، ولما قال فيه الخليفة الذواقة عمر بن الخطاب (ر) انه (كان لا يمدح الرجل الا بما فيه) باعتبار أن عصر الخلفاء الراشدين كان أقرب الى العصر الجاهلي (عصر زهير) من عصر ابن سلام ، وباعتبار أن اخبار الشاعر وشهرته وما عرف عنه لم تنس أو تحرف لان وفاة الشاعر حصلت قبيل البعثة النبوية بقليل ، وعصر الخلفاء الراشدين (عصر عمر) كما هو معلوم خلف العصر النبوي ، اي أن الفارق الزمني بين عصر الشاعر وعصر عمر كان من الضآلة بحيث لا يشك بتحريف قول الخليفة ،وبالتالي بما عرف عن زهير من صدق وعدم تكسب .

الخصائص العامة لمدحه

بعد استعراضنا لعدد من قصائد زهير المدحية يحلو لنا استخلاص الخصائص العامة لمدحه التي يمكننا اجمالها في البنود التالية :

١ ـ التركيز التام على صفات ممدوحية وعرضها بشكل موضوعي في سبيل تجسيد المعاني العامة للافكار المدحية .

٢ ـ الجزالة في الألفاظ ، والمتانة في الجمل والتركيب ، مع عدم خلوها تماماً من الغريب الذي ربما ورد بتأثير البيئة البدوية التي كان يعيش فيها الشاعر .

٣ ـ الالحاح على المعاني النبيلة ، باللجوء الى تكرار كثير من الكلمات في اغلب القصائد المدحية (فيّاض يداه غمامة) ..

٤ ـ ايراد الكثير من الصور والتعابير المبتكرة في سبيل تقريب صورة ممدوحيه وتجسيدها :

● لو كنت من شيء سوى بشرٍ　　كنت المنوّر ليلة البدر

● لو نال حي من الدنيا بمكرمة — افق السماء لنالت كفه الأفقا
● سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم — فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا
● أخي ثقة لا تتلف الخمر ماله — ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه اذا ماجئتـــه متهللا — كأنك تعطيه الذي أنت سائله

٥ ـ **شيوع الهدوء الانسيابي بين أبيات قصائده** المدحية اللهم الا من بعض الهبات التي تقتضيها دقة التصوير للمعاني المدحية كفعله عند التعرض للشجاعة مثلا .

٦ ـ **الصدق في العاطفـــة ، وتعلغلها بحرارة في شتى قصائده** كنتيجة حتمية لاعجاب الشاعر بممدوحيه .

٧ ـ **الخلو من التكسب** كنتيجة حتمية لصدق العاطفة وحرارتها .

٨ ـ **عدم التذلل في أماديحه** بعكس النابغة الذبياني الذي وضع نفسه بمنزلة العبد أمام سيده ـ كما سنرى ـ .

٩ ـ **الاعتماد الكلي في تجسيد ممدوحيه على الصور المتلاحقة الملونة** التي استعمل في سبيل التوصل اليها ضروب البلاغة من تشابيه واستعارات وكنايات وطباق بحيث جاءت ملائمة للمواضيع المدحية التي استخدمت من أجلها **دون اسراف ولا تكلف ولا ترويق** .

١٠ – ظهور شخصية زهير الشعرية في جميع قصائده المدحية بالاضافة لبروز المعاني النبيلة والصفات الحميدة التي يؤمن بها ويحبها والتي أسبغها على ممدوحيه بقناعة تامة ، وبخلوٍّ ظاهر من الرياء الذي يلجأ اليه أكثر الشعراء المادحين الذين كان همّهم الأوّل التكسّب والحصول على الأعطيات ، وبذلك يصدق فيه قول الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه : لايمدح الرجل الا بما فيه . . .

الحكمة

ينفرد زهير بن أبي سلمى عن الشعراء الفحول في العصر الجاهلي ، بأنه أجاد وابتكر في الحكمة حتى استحق لقب الشاعر الحكيم .

والحكمة في قصائد زهير ، ليست الغرض الأصلي في القصيدة ، ولكنها غالباً ماترد في نهايتها (بأبيات كاملة حيناً ، أو بأشطار أحياناً) لتعبّر عن وجهة نظر الشاعر ، أو ما استخلصه ، وما يريد من الآخرين تطبيقه في سبيل حياة أفضل ..

عوامل نشوئها وغزارتها :

لقد تضافرت عدة عوامل في نشوء وغزارة وجودة الحكمة في شعر زهير لعلّ أهمها :

١ - **النضوج العقلي** : الذي تميّز بـه ، وخاصة عندما أسنّ ،

٢ ـ **الأخلاق الشخصية** : التي عرف بها .

٣ ـ **التجارب الذاتية** : التي مرّ بها .

٤ ـ **المآسي الكثيرة التي رآها وعاش فصولها في مجتمعه** المنحطّ فكرياً والمضطرب اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً .

بواعثها :

عندما استعرضنا حياة زهير ذكرنا ان المجتمع العربي في أواخر العصر الجاهلي كان يعيش تحت وطـأة انحطاط فكري واقتصادي وسياسي ، لذلك كان لابد لشاعرنا من انتقاد مجتمعه ومحاولة توجيهه الى ما فيه رقيّه واستقراره ، فكان ان طلع عليه بسيل من الحكم ضمّن كثيراً منها معلّقته التي نظمها بعد حرب (داحس والغبراء) ، لذلك فالبواعث الرئيسية التي دفعت شاعرنا لايراد حكمه يمكن تجسيدها بالنقطتين التاليتين :

١ ـ **تألّمه من انحطاط مجتمعه فكرياً ، وعدم استقراره** اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً .

٣ ـ **رغبته الصادقة في رؤية أفراد مجتمعه يعيشون في أحسن حال**، بعيدين عن المساوىء ، متمسكين بالخصال الحميدة ، منتهجين كل ما من شأنه رفع سويّتهم الأخلاقية ، ليرقوا بالتالي فكرياً

واجتماعياً ، لتكون النتيجة استقرار مجتمعهم وازدهاره ورقيّه .

ما هيتها واشكالها

وحكمة زهير في حقيقتها ، تتمثل بصورتين ، احداهما عميقة (وهي التي تمثل الغالبية العظمى) والاخرى سطحية تومض فيها الحكمة من خلال بعض التعابير التي ربما كانت بعض الفاظها ذات اغراب لفظي ظاهر .

اما الاشكال التي وردت فيها فهي :

١ ـ الشكل ذو المدلول الديني والتعففي. ٢ ـ الشكل ذو المدلول الارشادي ٣ ـ الشكل ذو المدلول التشريعي . ٤ ـ الشكل ذو المدلول الواقعي المعبّر عنه بالامثلة . ٥ ـ الشكل ذو المدلولات الانسانية والاجتماعية والتأملية .

وقبل ان نبدأ باستعراض اشكال حكمة زهير ومراميها ، لا بد لنا ـ كما فعلنا في الوصف والمديح ـ من استعراض المقومات الاساسية التي تقوم عليها ابيات الحكمة الجيدة والتي نجملها في النقاط التالية:

١ ـ ايراد معاني الحكمة ومدلولاتها بأبسط الالفاظ واسهلها وأقوى التراكيب وافخمها واقربها لفهم ادنى الناس حظاً من الثقافة والتفكير .

٢ ـ الاعتماد على الوسائل العقلانية ، مع اللجوء بشكل محدود الى

الوسائل العاطفية المتكئة على الصور والاخيلة .

٣ ـ **الاستمداد الفكري واللغوي من البيئة التي ستطرح الحكم على الساكنين فيها ليستطيعوا** فهمها والاستجابة لما فيها من ايحاءات تساعدهم على بلوغ المستوى الافضل .

٤ ـ البعد عن الحشو والثرثرة اللغوية والفنون البلاغية التزويقية التي تضر موضوع الحكمة اكثر من الباسه الحلل الجميلة ، باعتبارها لا تتلاءم مع مدلولات الحكمة ولا تدعم الاغراض التي من اجلها قيلت .

٥ ـ **الاعتماد على المؤثرات النفسية في كيفية عرض الحكمة** : وذلك باتباع وسائل الترغيب والترهيب ، والتقريب والتبعيد في سبيل اقناع سامعيها ، لتهتز ضمائرهم تحت تأثيرها فيعملوا بتوجيهاتها .

وعلى العموم ، وكما سبق وذكرنا ، فان لكل شاعر طريقته في التعبير عن أفكاره وعرضها ، فلنر ما فعل زهير بحكمه ، وأية لمسات سحرية ضمّنها حتى اصبحت على كل شفة ولسان ، وعلى مرور الايام والازمان .

الحكمة الدينية والتعففية

لقد كانت أخلاق زهير وتصرفاته في المجتمع ، المثال الحي للرجل الفاضل حتى **قال ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) : كان زهير يتـألـه ويتعفّف في شعره ، ويـدل شعره على ايمانه بالبعث كقوله :**

● فلا تكتمن الله مافي نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وما يمكن اعتباره كمؤيد لذلك، ما قاله زهير في قصيدة ذكر الاصمعي انها ليست له ولكن لصرمة بن أنس الانصاري :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ماأرى من الدهر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي ان الناس تفنى نفوسهم واموالهم، ولا أرى الدهر فانياً
بدا لي ان الله حق فزادني الى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
ألم تر ان الله أهلك تبعا وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ماترى وفرعون اردى جنده والنجاشيا

والظاهر من هذه الابيات التي اخترناها من القصيدة انها ليست لزهير، اذ يبدو فيها ذلك الاثر الديني القوي المستمد من القرآن الكريم، اضافة لبعد القصيدة عن اسلوب زهير، اللهم الا اذا اعتبرناه نصرانيا (على رأى الأب شيخو) أو عاش ردحا طويلا في ظل الاسلام ..!!

كما تأيد اتجاه زهير في حكمه شطر الاتجاه الديني والتعففي بقوله :

● والستر دون الفاحشات وما يلقاك دون الخير من ستر
● اذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا أصبت حليما او اصابك جاهل

● والاثم من شر ما يصال به   والبر كالغيث لقيه أمر [1]

من كل هذه الأبيات يمكننا ان نستنتج بأن زهيرا قد وفق فيها من جميع النواحي : ١ - الفكرية ، وقد جاءت واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض ، بحيث نشعر أن زهيرا شخص مؤمن بالله واليوم الاخر ، وأنه مطلع على الكتب السماوية وعامل بمقتضاها ، وداع الاخرين للعمل بها . ٢ - اللغوية : بحيث أورد الفاظه وجمله وتراكيبه على نحو من البساطة وقوة التعبير والانسجام مع الموضوع الذي وضعت للتعبير عنه . ٣ - العاطفية : بحيث يدخل في روعنا ان زهيراً مؤمن شديد الايمان بالله . ٤ - الفنية : وقد كان حسن التعبير ، متين الأسلوب ، نلمح من خلال ابياته التقى والورع دون الاعتماد او الاستعانة بالفنون البيانية الا قليلا .

الحكمة الارشادية

وقد تضمنت أشعار زهير كثيرا من الارشادات التى حرص فيها على اتباع لهجة حازمة في كثير من الاحايين للتدليل على ايمانه بما يطلب من الآخرين العمل به وحثهم على التنفيذ :

● ولا تكثر على ذي الضغن عتباً   ولا ذكر التجرم للذنوب [2]
ولا تسأله عما سوف يبدي   ولا عن عيبه لك بالمغيب

١ - أمر : كثير يزداد به . ٢ - الضغن : الحقد .

متى تك في صديق أو عدو ... تخبّرك الوجوه عن القلوب
فلو كان حمد يخلد الناس لم يمت ... ولكن حمد الناس ليس بمخلد
ولكن فيه باقيات وراثة ... فأورث بنيك بعضها وتزوّد
تزوّد الى يوم الممات فانه ... ولو كرهته النفس آخر موعد
فلو كان حيّ ناجياً لوجدته ... من الموت في أحراسه ربّ مارد
ألم تر ان الناس تخلد بعدهم ... أحاديثهم ، والمرء ليس بخالد

ان هذه الحكم كسابقاتها ذات المدلول الديني والتعففي ، جيدة وقد اكسبتها **الجدية والالهجة الآمرة ، الرونق الخاص بها ، كما ان استعمال الاستفهام** في سبيل التثبيت قد اعطى التأثير المطلوب وقرب الحكم من الاذهان .

الحكمة التشريعية :

ان رجاحة عقل زهير في مجتمع مضطرب اجتماعيا واقتصاديا ، لابد وأن تدفعه لقول بعض الحكم الناظمة لامور المجتمع والمحققة لعدالته :

وان الحق مقطعه ثلاث ... يمين ، أو نفار ، أو جلاء[1]
فذلكم مقاطع كل حق ... ثلاث كلهن لكم شفاء
فلا مستكرهون لما منعتم ... ولا معطون إلا ان تشاؤوا

١ ـ النفار : التقاضي .

جوار شاهد عدل عليكم وسيان الكفالة والتلاء [1]
وجار البيت والرجل المنادي امام الحي عهدهما سواء

ان ما سبق وذكرناه بصدد الحكم الآنفة الذكر ، ينطبق على حكمه التشريعية التي بلغ من دقتها وما نالته من اعجاب ان سمي زهير قاضي الشعراء .

الحكم المعبّر عنها بالأمثال :

كثرت في حكم زهير الامثال الجيدة التي اصبحت على كل شفة ولسان ، وما ذلك الا لما تضمّنته من صدق وقوّة في التعبير :

● وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتزرع الا في منابتها النخل [2]
وليس لمن لم يركب الهول مغنم وليس لركب حطّه الله حامل
● وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلّم
لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
وان سفاه الشيخ لا حلم بعده وان الفتى بعد السفاهة يحلم [3]

وهناك بيتان لا بد من ايرادهما لتضمن الشطرين الاخيرين منهما حكمتين شائعتين وهما :

---

١ ـ التلاء : الكفالة . ٢ ـ الخطي : الرمح وقد نسب لجزيرة في البحرين تدعى الخط ، الوشيج : ج وشيجة ، القنا الملتف في منبته . ٣ ـ السفاه ، السفه : الجهل.

فشدّ ولم تفزع بيوت كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أمّ قشعم[1]
سألنا فأعطيتم ، وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوماً سيحرم

المعاني كلها شفافة والتعبير واضح بيّن في كل لفظة من الالفاظ لذلك لا نرى ضرورة للشرح ، مع التنويه عن العمق الذي تميزت به هذه الامثال ، حتى ليمكننا الاستخلاص بأن زهيرا ما أتى بها على هذا النحو الا نتيجة فلسفته في الحياة ونظرته للامور ..

الحكم لانسانية والاجتماعية والتأملية :

ذكرنا أنّ معلّقة زهير قد زخرت بالحكم التي لخّصت بمجموعها نظرات زهير ، والآراء التي تبلورت لديه نتيجـــة لحياته الطويلة في مجتمعه ذي الطبيعة الخاصة . . **وقد ظهر فيها بوضوح أثر التجارب التي مرّ بها مع اقتراحه سبل التحسين .**

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي[2]
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمّر فيهرم[3]
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتّق الشتم يشتم[4]

---

١ – حيث ألقت : (للدلالة على الموت) . ٢ – العمي : الجاهل . ٣ – الخبط تضرب باليد ، العشواء : مؤنث أعشى وهي التي لا تبصر ليلا . ٤ – وفر : كثر .

ومن يك ذا فضلٍ فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدّم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب اسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلّم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه ... يطيع العوالي ركّبت كل لهذم(١)
ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه ... الى مطمئن البر لا يتجمجم(٢)
ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وان خالها تخفى على الناس تعلم
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه ... ولا يغنها يوماً من الدهر يسأم

ولا يقتصر زهير على المعلقة في ايراد حكمه الوجدانية التأملية ، فاذا به ينثرها في مجالات أخرى مبيناً أيضاً نظرته للأمور في المجتمع :

والمال ما خوّل الآله فلا ... بدّ له أن يحوزه قدر
والجدّ من خير ما أعانك ... صلت به والجدود تهتصر
قد يغتني المرء بعد عيلته ... يعيل بعد الغنى ويجتبر

كما وأنه في مجال آخر يقدم نفسه وسلوكيته في الحياة بأسلوب تشع منه البساطة والواقعية فيقول في هذه الأبيات التي تنسب اليه ولابنه كعب :

١ - الزجاج : ج زج ، الحديد المركب في أسفل الرمح ، العوالي : ج عالية ، طرف الرمح الاعلى ، اللهذم ، السنان الطويل . ٢ - تجمجم : تردد .

أبيت فلا أهجو الصديق ومن يبع   بعرض أبيه في المعاشر ينفق[1]
ومن لايقدّم رجله مطمئنّة   فيثبتها في مستوى الأرض تزلق
أكفّ لساني عن صديقي وان أجأ   اليه فاني عارق كل معرق[2]
وفي الحلم إدهان ، وفي العفو دربة   وفي الصدق منجاة من الشرّ فاصدق[3]
ومن يلتمس حسن الثناء بماله   يصن عرضه من كل شنعاء موبق[4]
ومن لايصن قبل النوافذ عرضه   فيحرزه ، يعرّ ربه ، ويخرّق[5]

ان أكثر مانلاحظه على هذه الأبيات ، السهولة التي تتحلى بها ، والوضوح الذي تتسم به لذلك لانستغرب كثرة ترديدها على الألسنة .. الا أننا قبل الانتقال لايراد الخصائص العامة لحكمه لابد لنا من ذكر ما يلي عن الحكم الواردة في المعلقة :

١ ـ لقد ظهر فيها بشكل خاص بعض الاغراب اللفظي الذي لم يؤثّر على منحى القصيدة ، باعتباره يتلاءم مع مفهوم العصر الذي قيلت فيه :

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه   يطيع العوالي ركّبت كل لهذم

٢ ـ اعتمد زهير على العقلانية واستخدم في سبيل ابرازها

---

١ ـ ينفق : يجد من يشتمه . ٢ ـ اجأ : ألجأ اليه . ٣ الادهان والمداهنة : المضايقة الدربة : العادة . ٤ ـ الشنعاء : القبيحة ، الموبق : المهلك . ٥ ـ العر : الجرب .

أداتي الشرط (من ومهما) فأدتا المطلوب منهما وأكسبتا أبيـــات الحكمة طابعاً خاصاً .

٣ ـ ظهر كلياً أثر النتائج الشخصية للشاعر واتجاهاته الفكرية في حياته العامة : سئمت تكاليف الحياة . .

٤ ـ ساد العقل أكثر الأبيات ، وبدا بعض السطحية والحشو في بعضها : واعلم علم اليوم والأمس قبله . . .

٥ ـ وجـــدت بعض الأبيات العادية شكلاً ومضموناً اللهم الا من بعض الومضات الحكمية فيها .

الخصائص العامة للحكمة

بعــد استعراضنا لصنوف الحكمة التي تضمنتها أكثر قصائد زهـير ، أصبح من الضروري استنباط الخصائص العامـة لهـذا الفن الشعري الهـام الذي انفرد بالابداع فيه عن بقية الشعراء الفحول في العصر الجاهلي ، لدرجة أن سمي بالشاعر الحكيم ، **والذي استحق بفضل ايراده هذا البيت :**

وان الحق مقطعه ثلاث يمين ، أو نفار ، أو جـلاء

على **لقب قاضي الشعراء** ... فما هي هذه الخصائص :

١ – ظهور شخصية زهير كانسان عاقل حكيم ، يبحث عن عالم أفضل ، ويحث الآخرين على اتباع ما فيه خيرهم ، وتجنب كل ما من شأنه الانحدار بهم للدرك الأسفل .

٢ – بروز أثر التجارب الـتي مر بها ، والمآسي التي حدثت

بمجتمعه ، والأفكار النبيلة التي يحملهـــا والتصرفات الحسنة التي يقوم بهـا .

٣ – وضوح نضوجه الفكري ، وعدم قبوله الامور كما هي ، مع تركيزه على فكرة البحث عن الأفضل ، بدليل ايمـانه الشديد بالبعث ويوم الحساب ، وتضمين قصائده كثيراً من النصح والارشاد .

٤ – تركيزه الشديد على أمور فاضلة معيّنة يريد من أبناء محيطه الأخذ بها لرقي مجتمعهم واستقراره وازدهاره (المعلّقة) .

٥ – تبسيطه للأمور التي يفكر بهـا ، وتوضيحها بمعان ملموسة ، ومستمدّة من حاجات المجتمع (أثر البيئة والاستمداد من الواقع) .

٦ – اتباعه المعالجة العقلانية في سبيل عرض أفكاره والبرهنة عليها ، مع ابتعاده الظاهر عن كل ما من شأنه اشراك الخيال في تجسيدها .

٧ – ظهور العمق في التفكير والوضوح والاشراق في المعاني مع عدم خلوّ أبياته من السطحيّة حيناً ، والاغراب اللفظي أحياناً .

٨ – اعتماده الكلّي في توضيح أفكاره ومعانيه ، على الألفاظ السهلة المعبّرة ، والتراكيب المتينة ذات القوة الذاتية المقنعـــة التي تقرّب الموضوع من أذهان الجميع وحتى أقل الناس حظاً من الثقافة .

٩ – **بروز المادية الشديدة، والروية في أغلب الأبيات** وخاصة الواردة في المعلّقة .

١٠ – **استخدام الوسائل اللغوية المقنعة** في سبيل التأكيد على الفكرة ، والتأثير على القارىء أو السامع لتقبّلها والعمل بها ، كاستعماله أدوات الاستفهام والنفي والشرط والنهي ، بالاضافة لاستخدامه وسائل الترغيب والترهيب والتقريب والتبعيد في سبيل بث الفكرة التي يريد .

١١ – **سيادة الهدوء والانسياب الوجداني ، والتأملي** في أغلب الأبيات .

١٢ – **بروز الجدية والصدق ، مع الخلو الظاهر من التكلّف والتفاهات والحشو والثرثرة اللغوية** التي لاطائل منها وتضرّ في موضوع جدي كالحكمة ، باستثناء بعض الأبيات أمثال :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غدٍ عمي

١٣ – **ظهور كثرة التفنن والابتكار في أسلوب عرض أفكار الحكمة ومراميها** ، كنتيجة حتمية لقوة الشاعر ونضوج تفكيره وتمرّسه الشعري .

١٤ – **شيوع المعاني الانسيابية ، والتأملات الوجدانية**

والاجتماعية بشكل لايدع أي مجال للشك بأن زهيراً لم يكن أنانياً يؤثر الخير لمجتمعه فقط ، بل كان انسانياً في تفكيره ، بحيث أن حكمه وارشاداته وأمثاله ، ما زالت حتى الآن تتردد أكثر من غيرها على الشفاه، رغم ما حفل به الأدب العربي من حكم وأمثال وارشادات أخرى جيدة .

الغـــزل

أهميتـه :

ما من متذوّق للشعر الا ويحس بامتداد عاطفي عند قراءته النوع الغزلي منه لا لشيء الا لما لهذا الشعر من أثر بيّن في النفوس ، باعتباره يحمل في حناياه انفعالات الشعراء وعواطفهم الذاتية .

وقد كنّا نود استعراض الغزل لدى زهير على نحو أسرع ممـا انتهجناه في أغراضه الأخرى (الوصف ، المـديح ، الحكمة) ، ولكننا لاحظنا أن شاعرنا ، وان تكن السمات العقلية تطبع الغالبية العظمى من اشعاره ، قد أصاب جودة وحلاوة ورقة في غزله ، لعلّ سببها ما كانت تضطرم به نفسه من عواطف عندما كان في صدر شبابه .

على أننا قبل أن نسترسل مع غزل زهير ، نرى من الضروري وضع بعض الأسس التي اتفق على لزوم توفّرهـــا في الأبيات ذات الطابع الغزلي لتكون جيّدة وتعطي المطلوب منها في إثارة العواطف .

المقومات الرئيسية للغزل

يمكننا اجمال المقوّمات الرئيسية التي يجب تواجدها ليكون الغزل جيداً بما يلي :

١ - أن تتمتع الأبيات الغزلية بالرقة واللطافة مبنى ومعنى .

٢ - أن تكون الأفكار التي تدور حولها الأبيات، جميلة ، واضحة، شفّافة ، لاتعقيد فيها، ولا اغراب .

٣ أن تكون الأفكار معروضة على نحو من التسلسل المشوب **بالانفعال العاطفي** الذي يخلو من السخف والبذاءة ، والفحش، باعتبار أن الابيات الغزلية تحتاج الى عامل الانفعال البريء الصادق ، لتؤدي دورها في اثارة العواطف ، ولتحقق الاتصال بين الشاعر والمتذوّق .

٤ - **أن تكون الالفاظ والتراكيب حلوة** ، وفيها من الجزالة والرشاقة والرقة ما يجعلها تدخل القلب دون استئذان .

٥ـ أن تسود الأبيات موسيقية تساعد على خلق جوٍ من التلاؤم والتعاطف بين بحورها ووزنها وقافيتها .

٦ ـ أن يسود الأبيات جو من الفنية التصويرية التي يسهم فيها الواقع والخيال بدور فعال في تحريك العواطف وخلق ، تيار انفعالي يصل بين الشاعر والمتذوق .

٧ ـ أن يسود الأبيات هدوء نفسي ، لا بأس من الجنوح به للحركة الانفعالية العاطفية عند اللزوم .

٨ ـ أن يسود الابيات صدق تعبيري عام يمس المتـــذوق من من خلاله قلب الشاعر فيحس بنبضاته وأعمق عواطفه وانفعالاته .

وكما سبق ونوهنا ، فانه ليس ضرورياً توفر كل هذه المقومات لتكون الأبيات الغزلية آسرة تهز الشعور ، وتعطي من الانفعالات مايحقق الرابطة العاطفية بين الشاعر والمتذوق ، فلكل شاعر نفسه الخاص واتجاهاته النفسية وريشاته العطرية التي يضمنها الفاظه وجمله بشكل توصله الى غايته فتهزّه العواطف وتحقق الاتصال العاطفي والوجداني بين الشاعر والقارىء .

وبعد .. فأين يقف زهير من الغزل ..؟ لنلق نظرة على أشعاره ولنر مدى نجاحه في هذا المضمار بعد أن لمسنا نجاحه في الوصــف والمديح والحكمة .

بواعثه :

لا ريب أن للانفعالات العاطفية أسبابها المحركة للواعج الشاعر والمكهربة لشغاف قلبه ، فما هي هذه الاسباب ، **بل ما هي البواعث التي جعلت زهيراً يعطينا آثاراً غزلية ، وهو الذي تميزت أكثر أشعاره بعقلانيتها وابتعادها عن الاتجاهات العاطفية** ، خصوصاً وان نشأته ومذهبه في الحياة ، أديا به الى نوع من التعفف وتجنب كل ما من شأنه اخراجه عن اتزانه وورعه .

ومع تسليمنا بتعفف زهير وبعده عن الهبّات العاطفية، والهزات الانفعالية الغزلية ، الا اننا ـ وأشعاره الغزلية ماثلة أمامنا ـ لا نجد مناصاً من عرض السببين التاليين لوجودها :

١ **لقد وردت الأبيات الغزلية في مطالع القصائد** ، فالسبب اذن ، مراعاة هيكل القصيدة في العصر الجاهلي (التي غالباً ما تبتدىء بالغزل أو النسيب والوقوف على الاطلال ووصف مشاهد الارتحال ، ثم وصف ألم الفراق لتخلص الى الغرض الاساسي للقصيدة .) ، **وهذا ما يخرجها عن دائرة الانفعالات العاطفية** ، ليجعلها محصورة بسلم القصيدة التقليدي ، وبالتالي ليجعلها وسيلة للوصول الى غرض القصيدة الاصلي الذي لا يمكن تحققه الا ضمن المنحيين التاليين :

آ ـ **استغلال الغزل والنسيب كوسيلة لجذب ساحة شعور**

المتذوق الى الغرض الاصلي للقصيدة ، وهذا على **رأي ابن قتيبة** في كتابه : (الشعر والشعراء) .

ب - استغلال الغزل والنسيب كوسيلة لتحريك عواطف الشاعر ، فينفعل في سبيل الوصول الى الهدف الذي يريده من نظم القصيدة ... وهذا على **رأي ابن رشيق** في كتابه (العمدة) .

والذي يؤيد ما ذكرناه ، ورود الغزل لدى زهير في مطالع القصائد والأبيات الاولى منها :

● صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرّي أفراس الصبا ورواحله [1]

● صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمى التعانيق ، فالثقل [2]

تأوّبني ذكر الاحبة بعدما هجعت ودوني قلّة الحزن فالرمل [3]

فأقسمت جهداً بالمنازل من منى وما سحقت فيه المقاديم والقمل

لأرتحلن بالفجر ثم لأدأبن الى الليل الأن يعرّجني طفل [4]

الى معشر لم يورث اللؤم جدّهم أصاغرهم ، وكل فحل له نجل

٢ - لقد وردت في الأبيات أسماء نسائية كثيرة فالسبب اذن عاطفة قديمة ، لأن كثرة الأسماء التي أوردها تجعلنا في حيرة ازاء غزله ، سيما وأننا لم نعرف عنه أنه أحب واحدة

---

١ - اقصر : كف . ٢ - التعانيق والثقل : موضعان . ٣ - تأوب : جاء مع الليل ، هجع : نام . ٤ - يعرجني طفل . أن تجهض ناقتي ، الطفل : الليل ، غيبوبة الشمس .

معروفة ، اللهم الا زوجه أم أوفى التي طلقها ثم ندم وأتى على ذكرها في مطلع معلقته . . . **ومن الاسماء التي تتكرر في قصائده :** سلمى وابنة البكري أسماء وأم أفى زوجته السابقة .

- أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج ، فالمتثلم
- فلست بتارك ذكرى سليمى ... وتشبيبي باخت بني العداني
- ان الخليط أجد البين فانفرقا ... وعلق القلب من أسماء ما علقا
- لآل أسماء اذ هام الفؤاد بها ... حيناً واذ هي لم تظعن ولم تبد

على أننا نرجح أن زهيراً لم يقل الغزل كغرض مقصود ، وانما كوسيلة للوصول الى غاية ، في نفس الوقت الذي يكون به لم يخرج عما تعورف عليه من منهج القصيدة التقليدي ، مما يجعلنا نستبعد الفكرة القائلة : أن زهيراً أحب ، باعتبار أننا لا نلمح في قصائده تلك العواطف المتأججة ، اللهم الا من بعض الانفعالات التي قد تومض في بعض الابيات ، ولكنها لا تعدو كونها وسيلة في سبيل تحقيق غايتين :

١ ـ اثارة المتذوق ، وجذب ساحة شعوره للغرض الاساسي من القصيدة .

٢ ـ اثارة نفسية الشاعر وعواطفه للوصول الى الغرض الاساسي من القصيدة .

النساء اللواتي ذكرهن أو تغزل بهن :

ان من يطلع على ديوان زهير يجد كثيراً من أسماء النساء ، بعضها يكرره في عدة قصائد ، والبعض الآخر يكتفي بايراد الاسم وأهم من أورد أسماءهن : زوجته أم أوفى ، سلمى ، اسماء بنت البكري ، اميمة ، فاطمة ، ليلى .. الخ ..

ماهية غزله وصوره :

صحيح ان زهيراً لم يكن من ذوي العواطف المتأججة باعتبار أنه لم يحب ، ولكن أبيات الغزل التي نراها لم تكن جامدة في مدلولاتها أو معانيها ، بل يستطيع الباحث المدقق أن يرى فيها الكثير مما سنأتي على ذكره تباعاً .

وصفه لحالته وانفعالاته :

نكاد لا نجد في أشعار زهير الغزلية أية مواقف يلتقي فيها الحبيب مع محبوبته (على العكس من امرىء القيس) وانما نجده يتحدث عن نفسه وعن حبيبته كفتا مال اليها ، مع وصف لطبيعة العلاقة وما سادها من أجواء وما حدث فيها من ، تصرفات وانفعالات :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو   وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل
وقد كنت من سلمى سنين ثمانيا   على صير أمرٍ ما يمرّ ، وما يحلو

وكنت اذا ما جئت يوماً لحاجة مضت وأجممت حاجة الغد ماتخلو
وكل محب أحدث النأي عنده سلو فؤاد غير حبك ما يسلو

لقد بدا زهير من خلال أبياته ، وكأن حبه من طرف واحد باستثناء بعض الومضات التي ذكر فيها أنه مر بأيام حلوة ، وأخرى مرة ... أما ما تبقى فلم يذكر فيه الا مظاهر النأي والوله.

وعلى العموم ، لم يبد زهير من ذوي العواطف المشبوبة، الا انه استطاع تقريب حالته وتجسيدها أمام القارىء ،مستخدماً في سبيل ذلك الألفاظ الحلوة ، والتراكيب السلسة المتينة التي كانت منسجمة نسبياً مع الوزن والقافية .

وصفه لمحبوباته :

وقد أتى زهير في أبياته الغزلية القليلة على ذكر أوصاف محبوباته الجسدية حيناً ، والجسدية مع مظاهر العيش حيناً آخر . **ومن**

أوصافه الجسدية :

● قامت تبدي بذي خال لتحزنني ولا محالة أن يشتاق من عشقا
بجيد مغزلة أدماء خاذلة من الظباء تراعي شادناً طرقا
كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت من طيب الراح لما بعد ان عتقا

● تنازعها المها شبهاً ودر الـ بحور ، وشاكهت فيها الظباء
فأما فويق العقـد منها فمن ادماء مرتعهـا خلاء
وأما المقلتان فمن مهاة وللدر الملاحـة والنقاء
● اذ تستبيك بجيد آدم عاقد يقرو طلوح الانعمين فثهمد[1]
ومؤشَّر حمش اللثات كأنما شركت منابته رضيض الاثمد[2]

أما أوصافه الجسدية والمعاشية فهي :

خود منعّمة أنيق عيشهـا فيهـا لعينك مكلأ وشجاء[3]
وكأنها يوم الرحيل وقد بدت منها البنان بزينة الحنّاء
بردية في الغيل يغـدو أصلها ظل إذا تلع النهـار وفـاء[4]
أو بيضة الادحيّ بات شعارها كنف النعامة جؤجؤ وعفاء

يتبين لنا من امعان النظر في أبياته الوصفية لاجساد محبوباته ، انه لم يتطرق فيها الا للمظهر الخارجي مختاراً منه القسم العلوي . مع ابتعاد ظاهر عن الفحش الذي رأيناه لدى امريء القيس عندما أتى على

١ ـ الآدم : الظبي الابيض البطن ، الاسمر الظهر ، الطويل العنق ، يقرو : يتتبع ويرعى ، الطلوح : ج طلح : شجر ، الانعمان وثهمد : مكانان . ٢ ـ مؤشر ثغر فيه تحزيز ، حمش اللثات : قليل اللحم ، دقيق ، الاثمد : الكحل . ٣ ـ الخود الحسنة الخلق . ٤ ـ تلع : طلع .

وصف اجزاء اخرى من أجساد محبوباته ، وماسنراه عند النابغة في وصفه المتجردة زوج النعمان .

وقد تميز وصفه بالدقة وحسن التصوير اللذين تجليا بسبيل من التشبيهات التي يعد أروعها وأجملها ما جاء في هذا البيت :

تنازعها المها شبهاً ، ودرّ البحور وشاكهت فيها الظباء

كما ونلاحظ ، انه في سبيل تقريب الوصف الى الاذهان وتجسيده أمام الانظار عمد الى صحرائه فاستحضر منها المهاة والظباء ليدلل على محبوبته وجمالها ، داعماً ذلك بكلمات جميلة ، جاء بعضها على نحو من الاغراب اللغوي غير المستحب في الوصف الغزلي كقوله : ومؤتشر حمش اللثات . . . الا أنه عمومـــاً أجاد في وصفه أيّما اجادة ، واستطاع أن يعطينا أحلى وصف وأدقه لمحبوبته . . .

وصفه ساعة الفراق :

لم يقف غزل زهير عند الشكلين السابقين ، وانما تعـداهمـا الى ذكر ساعة الفراق فقال :

● لآل أسماء إذ هام الفؤاد بها — حيناً ، واذ هي لم تظعن ولم تبن
واذ كلانا اذا حانت مفارقة — من الديار طوى كشحا على حزن
● ان الخليط أجدّ البين فانفرقا — وعلّق القلب من أسمـاء ما علقا
وفارقتك برهن لا فكاك له — يوم الوداع فأمسى رهنهـا غلقا

● فلما أن تحمل أهل ليلى جرت بيني وبينهم الظباء
جرت سنحاً فقلت لها أجيزي نوى مشمولة ، فمتى اللقاء
لقد طالبتها ولكل شيء اذا طالت لجاجته انتهاء

انه لايسعنا الا القول بأن زهيراً قد وفق في هذه الابيات ، **فالتصوير دقيق مركز ، والانفعال بيّن ، والشكل الذي احتوى ذلك المضمون، جمل ويغري بالتأمل والتصور** ، خاصة وانه يؤكد الحب والهيام عند اللقاء، وعند النأي والفراق ...

وصفه للنأي والهجران :

لم يغفل زهير تصوير نأي الحبيبة وهجرانها ، فاذا به يذكرها ويركز عليها في عدة أبيات ، وكيف لا وهو المحب الذي يشعر بالالم للفراق والهجران :

وكل محبٍ أحدث النأي عنده سلوّ فؤاد غير حبك ما يسلو
● صرمت جديد حبالها أسماء ولقد يكون تواصل واخاء
فتبدلت من بعدنا أو بدلت ووشى ، وشاة بيننا أعداء
فصحوت عنها بعد حب داخل والحب تشربه فؤادك داء
● شطت أميمة بعدما صقبت ونأت وما مني الجناب فيذهب

ان نفس زهير الشعري واحد كما لاحظنا، وقد برع بشكل خاص في التصوير التعبيري الذي تجلى بوضوح في وصفه للنأي والهجران والذي

ازداد قرباً من النفوس بفضل الانفعال الذي برز فيه ، والتأكيد المطلق على حبه وأمله بالوصال من جديد.

تعرّضه لذكرياته معهن :

ان أكثر غزل زهير يصوّر ذكرياته مع محبوباته اللواتي ذكرهن في قصائده ، وهو هنا كما رأيناه في وصفه لاجسادهن ، **لم يفحش ولم يذكر أنه اختلى أو أتى ما يريب . . .**

- فلست بتارك ذكرى سليمى ... وتشبيبي بأخت بني العداني
  طوال الدهر ما ابتلّت لهاتي ... وما ثبت الخوالد من أبان
- أعن كل إخدان وإلف ولذة ... سلوت وما تسلو عن ابنة مدلج
  وليدين حتى قال من يزع الصبا ... أجدّك لما تستحي ، أو تحرّج
  أراني متى ماهجتني بعد سلوة ... على ذكر ليـــلى مرة أتهيج
  وأذكر سلمى في الزمان الذي مضى ... كعيناء ترتاد الاسـرّة عوّج

ما من شك بأن عاطفة زهير قد اشتدت عند التذكر ، وقد أفصح عنها بمثل هذه الابيات التي تدل على مقدار تشبثه واصراره على حبه الذي لم يخب أواره رغم الهجر والسلوان. . وكما يلاحظ فالاسلوب جميل مشرق ، والكلمات سلسة ، جزلة ، واضحة وموافقة لطبيعة الموضوع .

تحسره وتذكره الأيام الخوالي :

ان أشد ما يؤلم الانسان ، تسلل الشيب الى رأسه ، لأن ذلك يذكره بأفول شبابه واقترابه من الموت ، لذلك فان شاعرنا يأتي على ذكر ذلك في معرض غزله مسترجعاً ذكرياته وأيام حبه الماضية .

● صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرّي أفراس الصبا ورواحله
وأقصرت عما تعلمين وسددت ... عليّ سوى قصد السبيل معادله
وقال العذارى : انما أنت عمنا ... وكان الشباب كالخليط نزايله
فأصبحن ما يعرفن الا خليقتي ... والاسواد الرأس والشيب شامله

● هل في تذكر أيام الصبا فند ... أم هل لما فات من أيامه ردد
أم هل يلامن باك هاج عبرته ... بالحجر اذ شفه الوجد الذي يجد
أوفى على شرف نشز فأزعجه ... قلب الى آل سلمى تائق كمد
لهم هوي من هوانا مايقرّبنا ... ماتت على قربه الأحشاء والكبد
اني لما استودعتني يوم ذي عدم ... راع اذا طال بالمستودع الامد
ان تمس دارهم عنا مباعدة ... فما الاحبّة الا هم وان بعدوا

ان القاء نظرة واحدة على الابيات تكفي لتخيل الالم الدفين الذي يحز في نفس زهير وقلبه بعد أن وجد نفسه يدخل سن الشيخوخة (في المقطع الاول) ؛ وبعد أن برّح به الهوى والوجد اثر وداع حبيبته وعدم التقائــــه .. انه يتحسر على شبابه ، ويذوب شوقاً الى

العودة لحبه بعد أن ودّع محبوبته، وهو في الحالين يبدو وكأنه يعبّر عن عاطفة حارة مشوبة بالألم، وقد أعانه على ابرازها جودة السبك، وموسيقية الكلمات ورقتها وتناغمها مع الوزن والقافية .

عتابه مع زوجته أم وفى :

وقبل أن نتعرض للخصائص العامة لغزل زهير ، يروق لنا استعراض أبيات قالها معاتباً امرأته أم أوفى التي قيل أنه أحبها وندم بعد أن طلقها :

لعمرك والخطوب مغيّرات ... وفي طول المعاشرة التقالي
لقد باليت مظعن أم أوفى ... ولكن أم أوفى لا تبالي
فاما اذ ظعنت فلا تقولي ... لذي صهر أذلت ولم تذالي
أصبت بنيّ منك ونلت مني ... من اللذات والحلل الغوالي

قد نجد في هذه الأبيات بعض الوميض العاطفي الذي يعطي بعض الدلالات على حب زهير الحقيقي لامرأته التي طلقها ثم ندم، ولكننا ما زلنا نفتقد لديه التأجج في العاطفة ، فهو هنا لا يتحدث بدافع مقتضيات سلّم القصيدة التقليدي بل يتحدث عن زوجة تعاتبه ويعاتبها ، ثم يعود الى واقعه فيختتم ذلك بما يشير بانتهاء هذه العلاقة وأن كل واحد قد اخذ حقه من الآخر .

الابيات بسيطة واضحة وقد استطاع زهير فيها ، تصوير بعض جوانب الحب الذي ربما لم يذقه في حياته قط .

الخصائص العامة للغزل

بعد أن أتينا على غزليات زهير بجميع صورها ، لا نجد مناصاً من استخلاص الخصائص العامة لهذا الفن التي نجملها في النقاط التالية :

١ ـ **الوضوح في الافكار ، والبساطة في المعاني ، مع العناية التامة بابراز جماليتها .**

٢ ـ **التعفف والبعد عن الفحش** في المعاني والمباني العامة للأبيات (وصف محبوباته) .

٣ ـ **المادية في شكليات الأبيات ومضموناتها ، مع استمدادها من البيئة الصحراوية** حيناً (المها والظباء) ، والبيئة الحضرية حيناً آخر (خود منعمة انيق عيشها) .

٤ ـ **الجزالة في الالفاظ ، والقوة والمتانة في التراكيب ، مع العناية بتعاطفهما مع محور الموضوع الغزلي .**

٥ ـ **البعد ماأمكن عن الحوشي والغريب ، مع عدم خلو**

بعض الأبيات من الألفاظ الغريبة التي لا يستحسن ورودها في الابيات الغزلية : صقبت .. حمش ..

٦ ـ انتقاء الالفاظ والتراكيب ،مع العناية بموسيقيتهـا ، وتلاؤمها مع الاوزان والقوافي .

٧ ـ الاعتماد على ذكر التصرفات في محاولة تصوير الانفعالات والمواقف .

وكنت اذا ما جئت يوماً لحاجة   مضت وأجمّت حاجة الغد ما تخلو

٨ ـ الاعتماد على التصاوير والأخيلة ،وتجسيدها بسيل من الفنون البيانية كالتشابية التي تزاحمت بشكل خاص في هذا البيت :

تنازعها المها شبهاً ودرّ الـ   بحور ، وشاكهت فيها الظباء

والطباق : يمر . . يحلو . . والاستعارات :

أم هل يلامن باك هاج عبرته   بالجمر اذ شفه الوجد الذي يجد

٩ ـ الصدق في العاطفة والخلو من تأججها ، مع أن الغزل المفضل هو الذي ترتفع فيه حرارة العاطفة ..

١٠ ـ **التعدد في مرامي غزله** (من وصف لحاله مع محبوباتـه لوصفهن ؛ لتذكرهن ؛ لتحسره على الايام الخوالي التي قضاها معهن قبل أن يهجرنه ويشيب ، لعتابه ..) .. **التي ان دلّت على شيء فعلى ان زهيراً تفنن ، ولكنه لم يقل الغزل لذاته وانما لدافع سلّم القصيدة التقليدي .**

الرثـاء

من المعروف أن الرثاء كالمديح مع اختلاف في الالفاظ وصرف الزمن للماضي فتقول : كان ، ذهب ، قضى نحبـــه .. وقد سبق لنا ايضاح ما يتعلق بهذا الفن لدى استعراضنا اياه عند الشاعر أوس ، لذلك لا نرى هنا من ضرورة الا لذكر المرتكز الرئيسي للرثاء الجيد المتجسد بالنقطتين التاليتين :

١ ـ ذكر الصفات العامة للمرثي والتركيز عليها ، وعلى تفرعاتها.

٢ ـ الصدق في العاطفة ، لانه اذا لم تهتز أوتار قلب الشاعـــر للفاجعة ، فلا يمكن أن ينتج أي شعر رثائي جيد وبالتالي يقع تحت تأثير التكلف والتهويل اللذين يعدان من أكبر العيوب الشعرية ، لا في الرثاء فقط ، وانما في جميع الاغراض الشعرية الاخرى .

الاشخاص الذين رثاهم :

من الطبيعي ان من يمدح شخصاً في حياته عن قناعة وصدق

عاطفة ، لابد ان يرثيه عند مماته . . لذلك فان زهيراً رثى **هرم بن سنان، وسنان المرّي عندوفاتهما وكذلك ابنه سالم عندمالقي حتفه :**

قال يرثي هرم بن سنان :

يا دهر قد أكثرت فجعتنا　　بسراتنا وقرعت في العظم
وسلبتنا ما لست معقبه　　يا دهر ما أنصفت في الحكم
اجلت صروفك عن اخي ثقة　　حامي الذمار مخالط الحزم
ينمي الى ميراث والده　　كل امرىء لأرومة ينمي
خلقي برى جسمي وشيبني　　جزعي على ما فات من هرم
ان الرزيّة ما لها مثل　　فقدان من ينمي الى الحزم
حلو أريب في حلاوته　　مرّ كريم ثابت الحلم
لافعله فعل ، وليس كقوله　　قول وليس بفحش كزم

وقال يرثي سنان بن حارثة المري :

ان الرزية لا رزيّة مثلها　　ما تبتغي غطفان حين أضلّت
ان الركاب لتبتغي ذا مرّة　　بجنوب نخل اذا الشهور أحلّت
ينعين خير الناس عند شديدة　　عظمت مصيبته هناك وجلّت
وملعّن ذاق الهوان مدفّن　　راضيت عقدة كبلة فانحلّت
ولنعم حشو الدرع كان لها　　نهلت من العلق الرماح وعلّت

وقال يرثي ابنه سالم بن زهير :

لعلك يوماً ان تراعي بفاجع　　كما راعني يوم النتاءة سالم

يديرونني عن سالم وأديرهم　　وجلدة بين العين والأنف سالم

من خلال أبيات النماذج نستنتج **ان زهيراً لم ينجح في الرثاء كما كان حاله بالنسبة للأغراض التي قدمناها** ، فرغم أنه استطاع في النموذج الأول الاحاطة بأكثر الصفات والخلال التي كان عليها المرثي ، ورغم تسليمنا بصدق عاطفته تجاه هرم بن سنان ، **الا اننا نأخذ عليه ما يلي :**

١ ـ التهويل الذي ظهر بوضوح عندما حاول اظهار تفجعه لموت هرم : يا دهر قد أكثرت فجعتنا . . . خلقي برى جسمي وشيبني . . .

٢ ـ اخضاع الرثاء لسلم القصيدة التقليدي كقوله في مطلع القصيدة التي رثى بها هرم بن سنان :

هاج الفؤاد معارف الرسم　　قفر بذي الهضبات كالوشم

ثم استرساله في مثل هذا ، من وصف للأبقار والقفار والدواب والحمير . . حتى وصوله الى الرثاء . . .

٣ ـ تقصيره في رثاء ابنه سالم الذي ربما أعمته المصيبة فلم يرثه ، **على العكس من الشاعرة الخنساء والشاعر ابن الرومي** اللذين يعد النقاد رثاء هما ـ الخنساء لأخيها صخر ، وابن الرومي لابنه محمد ـ من من ابدع قطع المراثي في الادب العربي .

الفخر

ليس الفخر من الاغراض المحببة الى نفس زهير ، لأنه يتنافى مع آرائه الداعية للمسالمة والاخاء، ولأن من شأنه اغاظة الآخرين احياناً ، والايحاء بغرور المفتخر أحياناً اخرى . . وعلى العموم فقد أقل زهـير من أبيات الفخر حتى أنها تتضاءل ازاء الاغراض الاخرى التي نظم فيها . .

وقد تجلى فخر زهير بسمتين : الاولى : قبلية ، والثانية : تتعلق بأخلاقه الشخصية .

قال زهير ينصح ويفتخر لما بلغه ان بني هوزان وبني سليم يريدون الاغارة على غطفان :

رأيت بني آل امرىء القيس اصفقوا علينا ، وقالوا : اننا نحن اكثر

سليم بن منصور ، وأفناء عامر وسعد بن بكر ، والنصور وأعصر

خـذوا حظـكم يا آل عكرم واذكروا

أواصرنا والرحـم بالغيب تذكر

خذوا حظكم من ودّنا ان قربنا — اذا ضرّستنا الحرب ، نار تسعر
وإنا وإياكم الى ما نسومكم — لمثلان ، أو أنتم الى الصلح أفقر
اذا ماسمعنا صارخاً ، معجت بنا — الى صوته ورق المراكل ضمّر(١)
وان شلّ ريعان الجميع مخافة — نقول جهاراً: ويلكم، لاتنفروا(٢)
على رسلكم أنا سنعدي وراءكم — فتمنعكم أرماحنا أو سنعذر
والا ، فانا بالشربة ، فاللوى — نعقّر أمّات الرباع ونيسر

وقال يفتخر بأخلاقه الشخصية :

غدت عذّالتي فقلت مهلا — أفي وجد بسلمى تعذلاني
فقد أبقت صروف الدهر مني — عروف العرف ترّاك الهوان
محافظتي على الجلّى وعرضي — وبذلي المال للخل المداني
وصبري حين جدّ الامر نفسي — اذا ما أرعدت رئة الجبان
وحفظي للأمانة واصطباري — على ما كان من ريب الزمان
وذبّي عن مآثر صالحات — بمالي والصوارم من لساني
وكفّي عن أذى الجيران نفسي — واعلاني لمن يبغي علاني
فاني لا يقول النأي مني — ولا ما جاء من حدث الزمان
واني في الحروب اذا تلظّت — اجيب المستغيث اذا دعاني

١ – معجت : مرت مراً سريعاً في سهولة ، ورق : ج أورق ، أسود .
٢ – شل : طرد ، ريعان كل شيء : أوله .

وجاري ليس يخشى ان أرنّي حليلتـه بسرٍّ أو عـــلانِ

ما من شك أن النموذج الثاني ، أقرب الى نفس زهير باعتباره يتحدث عن أمور يؤمن بها ويتهجها في **الحياة**، في حين يأتي النموذج الاول على نحو من العرض الخالي من أية روح ايجابية ، اللهم الا من تلك اللهجة العنيفة التي يخاطب بها اعداء قومه ، والتي نستشف منها انه قال هذه القصيدة وهو في صدر حياته ، باعتبارها تخالف الخط السلمي الذي سار عليه عندما تقــدم به العمر ، والذي اتضح في معلقته التي استعرضنا الغالبية العظمى من أبياتها ثم استمر في القصائد الأخرى التي تلتها .

الهجاء

سبق وألمعنا بان زهيراً يمكن اعتباره من الشعراء الذين اختصوا بفنون معينة من الشعر فأكثروا النظم فيها ، ولم يهتموا كثيراً بالفنون الاخرى ، (وخاصة الفخر والهجاء لبعدهما عن نفسه وما يؤمن به من مبادىء ومثل) ، فأقلوا فيها . . .

وهجاء زهير لم يكن غزيراً ، وانما ورد بمناسبات خاصة ، لعله لو امعن التفكير فيما سيجني من جرائه ، لما نظم فيه ولكن الهجاء رفيق الغضب ، والشاعر عندما يغضب تنسال منه الالفاظ الهجائية بسرعة مذهلة تشع منها حرارة الغضب وصخبه ، فيسرع في النظم والنشر ، وما ان يمر زمن قصير حتى تهدأ نفسه ، ويندم على مابدر منه .

ولقد أوضحنا عند استعراضنا الهجاء لدى أوس كافة المقومات التي يقوم عليها الهجاء (وخاصة اضافة السيئات ، والتجريد من الحسنات ،

وتقصّي الزّلات ، والتعرض للعورات . . الخ) ، لذلك لن نذكر شيئاً منها وانما سنقوم باستعراض الشعر الهجائي لزهير .

على الرغم من قلة الهجاء في ديوان زهير ، فاننا نجد له نموذجين أحدهما فاحش لن نتعرض له والآخر عادي لا فحش فيه .

قال يهجو آل حصن بني عليم بن كعب بعد أن زعم رجل من قومه اغارتهم عليه .

ستأتي آل حصن حيث كانوا ... من المثلات باقية ثناء
فلم أر معشراً أسروا هدياً ... ولم أر جار بيت يستباء
فهلا آل عبد الله عدوا ... مخازي ؛ لا يدب لها الضراء
أرونا سنّة لا عيب فيها ... يسوّي بيننا فيها السواء
فان تدعوا السواء فليس بيني ... وبينكم بني حصن بقاء
ويبقى بيننا قذع ، وتلقوا ... اذا قوماً بأنفسهم أساؤوا
وتوقد ناركم شرراً ، ويرفع ... لكم ، في كل مجمعة لواء

ان هذا الهجاء رغم خلوّه من الفحش قد آلم آل حصن ، خصوصاً وان زهيراً عندما علم بكذب ادعاء الغطفاني ، ندم وقال : ما خرجت في ليلة ظلماء ، الا خفت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم .

والقصيدة لا بأس بها ، ولكن الهجاء فيها ليس ناضجاً ، ولا مركزاً اللهم الا هذا البيت الذي يعد من أبلغ هجائه .

وما أدري ـ وسوف اخال ادري ـ ... أقوم آل حصن ، أم نساء

الخمر

لقد ورد الخمر في شعر زهير بشكل عرضي ، وفي مناسبتين فقط ، والسبب في عــدم تخصيصه بعدد أكبر من الأبيات ، انه كالفخر والهجاء ، بعيد عن نفسه وتعففه ، بالاضافة لمنافاته طريقة معيشته وسلوكيته في المجتمع ، التي حرص فيها على الابتعاد عن اللهو واللذات ما أمكن :

● وقد أغدو على ثبتٍ كرام ... نشاوى واجدين لما نشاء
لهم راح وراووق ومسك ... تعلّ بــه جلودهم وماء
يجرّون البرود وقد تمشّت ... حميّا الكأس فيهم ، والغناء
تمشّى بين قتلى قد أصيبت ... نفوسهم ، ولم تهرق دماء

● ذاكَ وقد أصبح الخليل بصهـ ... ـباء كميت جاف جوانبهـــا
مثل فم الشادن الذبيح اذا ... أتاق فيها الراووق شاربهـــا
دبّت دبيباً حتى تخوّنه ... منها حميّا ، وكفّ صالبها
عقاريب تراه يكفّ منطقه ... اجمع في النفس ما يغالبهـــا
عمّا قليل رأيته ربذ المـ ... ـنطق ، واستعجلت عجائبها

ما من شك أن أبيات النموذجين حسنة بدليل تأثر شاعر الخمريات أبو نواس بها كما سبق وأوضحنا .

الخصائص العامة لشعره

بعد استعراضنا لجميع الأغراض الشعرية التي نظم فيها زهير بن أبي سلمى ، لابد لنا من استخلاص الخصائص العامة لشعره التي نجملها في النقاط التالية :

١ ـ انطباع جميع أشعاره تقريباً بالروية والصنعة الفنية حتى أطلق عليه ، شاعر الحوليات لكثرة تنقيحه لها .

٢ ـ ظهور الطابع البدوي في جميع قصائده ، مع عدم البعد عن الطابع الحضري في بعض الأبيات .

٣ ـ اتسام أكثر أبياته بالمادية شكلاً وموضوعاً .

٤ ـ انطباع جميع أشعاره بالصدق حتى قيل فيه أنه : لايقول الا ما يعرف ، ولايمتدح الشخص الا بما فيه

٥ ـ الاعتماد على التصوير الحسي وتجسيد ذلك بالاكثار من التشابيه والاستعارات والكنايات والطباق والجناس .

٦ - **اتسام قصائده بحسن المطلع ، مع عدم توفقه في الكثير منها بالانتقال من غرض لآخر ، بالاضافة لفشله في ايراد الافكار** متسلسلة في بعضها .

٧ - **البراعة في استخدام الخيال المتصل اتصالاً وثيقاً بالواقع ؛** ووفقاً لمقتضى الحال .

٨ - **الايجاز في التعبير عن الأفكار** حتى قال عنه ابن سلام: انه يجمع الكثير من المعاني في القليل من الالفاظ .

٩ - **الولع الشديد باحاطة مواضيعه من جميع جهاتها** حتى يجسدها أمام القارىء أو السامع كاملة وضمن الأطر المكانية والزمانية والبيئية .

١٠ - **التوفيق بين البساطة في الأداء والروية والصنعة الفنية،** وقد تجلى ذلك بوضوح، في البعد عن المعاظلة والحوشي والغريب ، مع اتزان ظاهر في شتى جزئيات القصائد ، اضافة لاختيار ما يتوافق معها من فنون بلاغية .

١١ - **التوفيق في اختيار الالفاظ والتراكيب ووضعها في الاماكن الملائمة لها ،** لا فرق ان كان الموضوع قبلياً، أو شبه قبلي، أو حضري .

١٢ - **استخدام الاسلوب القصصي في عرض أكثر افكار**

قصائده ، وتقريبها للأذهان بصور متلاحقة ملونة تشكل كل واحدة منها جزءاً من القصيدة .

١٣ ـ الاكثار من الحكم والأمثال كتثبيت لأفكاره التي عرضها خلال قصائده .

١٤ ـ اكساب مواضيعه الأجواء الخاصة بها ، باستخدام الهدوء حيناً ، والتفنن في الحركة أحياناً .

مَنزلتُه

أما وقد انتهينا من استطلاع شعر زهير فقد آن لنا أن نبيّن ما وصله هذا الشاعر من منزلة رفيعة سواء عند الخلفـــاء ، والرواة ، والنقاد والشعراء .

١ ـ **منزلة زهير عند الخلفاء** : لقد ذكرنا أكثر من مرة أن الخليفة الذوّاقة **عمر بن الخطاب** (ر) كان يعجب بشعر زهير حتى أنه كان يقول: أشعر الشعراء من يقول : من ومن ومن .. ويعني زهيراً كما أنه قال في مناسبة أخرى : كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل الا بما فيه .. كما أن الخليفة **عثمان بن عفان** كان يعجب بصدق زهير حتى أنه أنشده مرة بيته الشهير :

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وأردف قائلا: أحسن زهير وصدق ، لو أن رجلا دخل بيتاً في

جوف بيت لتحدث عنه الناس . **كما وعرفت منزلته عند معاويـــة وعبد الملك** ،فكانت تروى في مجالسهما أشعاره وأخباره بكثرة .

٢ ـ منزلته عنـــد الرواة والنقاد والشعراء : ذلك انـــه ،

مـــا من راويةأوناقد أو شاعر ،الا واعترف بفحولة زهير الشعرية، ومن هؤلاء:**ابن سلام الجمحي** الذيقال عنه في كتابه طبقات فحول الشعراء : كان أحصفهم (أحكمهم) شعـراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من النطق (من الالفاظ) وأشدهم مبالغة في المدح (وأ كثرهم أمثالافي شعره) ..كماعـــدّه من شعراء الطبقة الاولى بعد امرىء القيس والنابغةالذبياني. .وقال**حمادالراوية**: لم أدرك أحداً من أهل العلم من قريش يفضل على زهير أحداً من الناس في الشعر ، وكان **زهير يقول**: ما أنا بأشعرمن النابغة، والعرب يفضل كل قوم شاعرهم ، غير أن قريشاً قد انفقت على تفضيل زهير والنابغة.. وكان **قدامة بن موسى** من علماء أهل المدينة الثقات يقدم زهيراً ويستشهد بهذين البيتين :

قد جعل المبتغون الخير في هرم   والسائلون الى أبوابــه طرقا
من يلق يوماً على علاته هرماً   يلق السماحة والندى خلقـــا

وقال عنه **الحطيئة** : مارأيت مثله فيتكفيه على أ كتاف**القوافي** ، وأخذه بأعنّتها حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحاً وذماً .. وقال **عكرمة بن جرير** قلت لأبي : يا أبتِ من أشعر الناس؟فقال :أعن الجاهلية تسألني أم عن الاسلام ؟ قلت:ما أردت الا الاسلام ، فاذا

ذكرت الجاهلية فأخبرني عن اهلها ، قال: زهير أشعر أهلها.

من كل هذا يتبين لنا أن زهيراً كان من أوائل الشعراء ، وقد عرف له الجميع منزلته وقيمته فدعوه بشاعر الشعراء.. كما استشهد الكثيرون في كتب الادب بالعديد من أشعاره .

على أننا قبل أن ننهي الحديث عن منزلة زهير وقيمة شعره ، لا بد من القول، بأن أشعار زهير قد أصبحت مجالا خصباً لاغارة بعض الشعراء والأدباء على معانيه ومبانيه ، من ذلك ما أخذه الطرماح بن حكيم الطائي الشاعر الخارجي المعروف من قول زهير:

كما استغاث بسيء فزّ عيطلة خاف العيون فلم ينظر به الحشك

بقوله :

بادر بالسيء ولم ينتظر نبه فيقات العيون لا النيام

وما أخذه الحجاج بن يوسف الثقفي من بيت زهير :

وأراك تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري

بقوله :

اني والله ما أقول الاوفيت ، ولا أخلق الا فريت.

وما أخذه النابغة الجعدي من بيتي زهير :

أضاعت فلم تغفر لها غفلاتها فلاقت بياناً عند آخر معهد

دماً عند شلو تحجل الطير حوله وبضع لحام في اهاب مقدّد

بقوله :

ولاقت بياناً عند أول معهد اهاباً ومعبوطاً من الجوف أحمرا

وما أخذه كثير بن عبد الرحمن (المعروف باسم كثير عزة) الشاعر الشيعي المعروف من بيت زهير :

هو الجواد الذي يعطيك نائله عفواً فيظلم أحيانا فيظّلم

بقوله :

رأيت ابن ليلى يعتري صلب ماله مسائل شتى من غني ومصرم

وما أخذه بشار بن برد من بيت زهير :

وليس لمن لم يركب الهول بغية وليس لركب حطّه الله حامل

بقوله

اذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وما اخذه ابو نواس (الحسن بن هانيء) من بيت زهير

يجرّون البرود وقد تمشّت حميّا الكأس فيهم والغناء

بقوله :

فتمشت في مفاصلهم كتمشّي البرء في السقم

وفي شعر الحطيئة وسواه من الشعراء ، آثار واضحة تدل على اغارتهم على شعر زهير مما لا يتسع المجال لذكرها .

عيوب شعره

على الرغم من الحسنات الكثيرة لشعر زهير، فاننا نجـــد بعض الهفوات التي يؤخذ على زهير ايرادها في شعره وهي :

١ – **سوء التخلص من غرض لآخر ضمن القصيدة** الواحـدة والاستعانة بأمثال هذه العبارة: دع ذا وعدّ القول .. دع ذا وسل ...

٢ – **الجهل العلمي** الذي ظهر في بيته الذي يصف فيـــه خروج الضفادع من الماء :

يخرجن من شربات ماؤها طحل　　على الجذوع يخفن الغمّ والغرقا

فالمعروف ان الضفادع لاتخرج من الماء لخوفها من الغرق وانما لتبيض على الضفاف .

٣ – **الجهل التاريخي** الذي ظهر في بيته عند وصف الحرب :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلّهم　　كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وكان من المفروض به أن يورد كلمة أحمر ثمود بدلاً من أحمر عاد لأن عاقر الناقة من ثمود لا من عاد .

٤ ـ **الاغارة على شعر الآخرين** كامرىء القيس ، وأوس بن حجر وطرفة بن العبد .. **فقد أخذ بيته :**

فلأيا بلأي ما حملنا وليدنا على ظهر محبوكٍ ظماء مفاصله

من بيت امرىء القيس :

فلأيا بلأي ما حملنا غلامنا على ظهر محبوك السراة مجنّب

وأخذ بيته :

- لدى أسد شاكي السلاح مقذّف له لبد أظفاره لم تقلّم

من بيت أوس بن حجر أستاذه :

- لعمرك انا والاحاليف هؤلا لفي حقبة أظفارها لم تقلّم

وأخذ بيته :

- ودار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم

من بيت طرفة بن العبد :

- لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

٥ ـ **التناقض في البيت الواحد** مثال :

- حيّ الديار التي لم يعفها القدم بلى وغيّرها الأرواح والديم
- وكل محب أحدث النأي عنده سلوّ فؤاد غير حبك ما يسلو

لقد نفى عن الديار التغيّر بسبب القدم ، ثم أثبت لها التحوّل بالافكار وكذلك ما فعله في : صحا القلب .. وقد كاد لا يسلو .. وكل محب أحدث ..

٦ ـ **الزندقة** : وقد رمي بها لايراده هذا البيت الذي يناقض ايمانــه .

- رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطىء يعمّر فيهرم

٧ ـ **الحشو واللغو الذي لاطائل منه** : مثل قوله :

- سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
- واعلم علم اليوم والأمس قبله   ولكنني عن علم مافي غدٍ عمي

ففي الأول أورد المبدأ ، ثم أنهى الفكرة قبل انهاء البيت ، وفي الثاني ـ وضع كلمة قبله بشكل لايفيده . . . وقبله ضعّف كلمة رك وجعلها ركك في بيته :

- ثم استمروا وقالوا : ان مشربكم   ماء بشرقي سلمى فيدٌ أوركك

٨ ـ **الخطأ في حركة القافية وايرادها بالجر بدل الرفع** (وهو مايسمى بالاقواء) في بيته :

- لعب الرياح بها وغيّرها   بعد سوافي الريح والقطر

النابغة الذبياني

حياتُه

أسماؤه ونسبه :

هو زياد بن معاوية بن ضباب . . . . **ينتهي نسبه الى ذبيان ،** ثم الى قيس عيلان ، **ويكنّى بأبي أمامة** (أو ثامة)،وبأبي عقرب ، وهما ابنتاه ، كما **يلقب بالنابغة** لأسبابٍ اختلف فيها الرواة ، منها :

ـ لأنه قال :

وحلّت في بني القين بن جسرٍ فقد **نبغت** لهم منا شؤون

ـ أو لأنه كان ظاهراً متميزاً في قومه .

ـ أو لأنه كان ذا شاعريةٍ متدفّقةٍ ، دون أن يرث هذه الصفة عن قرابةٍ أو نسب .

وقد اشتهر بالذبياني ، تفريقاً له عن شعراء آخرين سمّوا بالنابغة منهم : النابغة الجعدي ، والنابغة الشيباني ، ونابغة بني الديّان .

وأمه عاتكة ، وله أخ اسمه صحار .

حياته :

لايعرف تاريخ ولادة النابغة ولا مكانها ، وما يذكره الرواة لنا بهذا الصدد محدود مضطرب . وهو من طبقة متميزة في قومه الأمر الذي يناقض قول بعض الرواة : (انه أحد الاشراف الذين غض الشعر منهم) ، بل في الواقع أنه ازداد شرفاً ومكانة حين صار شاعراً .

وكان في البداية شاعر قبيلته ، فاهتم بالسياسة القبلية التي كانت متوترة كثيرة حول خصام قبيلتي عبس وذبيان ، بعد سباق داحس والغبراء ، ثم بمحاولة كل من هاتين القبيلتين جمع الانصار ، والتحالف مع القبائل الأخرى ، فتحالف الذبيانيون مع بني تميم ، ثم مع بني أسد وغيرهم كما استعانوا بالنعمان . . وتحالف العبسيون مع بني شيبان ثم مع بني سعد ، كما تحالفوا أخيراً مع بني عامر وكانوا سابقاً أعداءهم . ثم انتقل النابغة من بيئته البدوية الى بلاط المناذرة والغساسنة ، وأصبح شاعر ملوك هاتين الدولتين ـ اضافة الى كونه شاعر قبيلته ـ ونعم زماناً بالاكرام فيها . . وقد اختلف الرواة في شأن اتصال النابغة بالمناذرة والغساسنة وأيهما كان أولاً ، بيد أن الاكثرين يرجحون اتصاله بالمناذرة أولاً .

اتصاله بالمناذرة :

وقد اختلف الرواة والمؤرخون أيضاً في اتصال النابغة بالمناذرة

من نواح متعددة، منها سبب هذا الاتصال وبدايته ، ثم مـدته ، وأخيراً سبب انقطاعه :

ـ فهناك من يؤكد اتصال النابغة بالمنذر الثالث بن ماء السماء (٥٠٥ ـ ٥٥٤م).

ـ وفي ديوان النابغة قصيدة يمدح بها عمرو بن هند .

ـ وجاء بعد عمرو بن هند ، قابوس ، ثم المنـذر الرابع ، والمؤرخون لا يذكرون للنابغة اتصالا ما بهما (لانهما كه كما يرى بعضهم بالسياسة القبلية) ، ثم يأتي بعد المنذر الرابع ، **النعمان الثالث أبو قابوس (من ٥٨١ م تقريباً) ويقيم النابغة في بلاطه سبع سنوات لا يمدحه خلالها** ، او لا يذكر لنا الرواة أنه مدحـه الا بقصائد باهتة على الرغم من الاكرام الكثير الذي لقيه عنده .

ويقع الخلاف بين النابغة والنعمان ، فيهدده هذا ويتوعده فيفر الشاعر الى قبيلته ، والى الغساسنة ، أما سبب هذه النقمة عليه فقد اختلف فيها الرواة كما يلي :

ـ قال بعضهم **بسبب المتجردة** ، زوج النعمان ، التي أحبهـا النابغة وتغزّل بها لدرجة التعهر .

ـ وقال آخرون **بسبب أبيات هجاء زُعم للنعمان أن النابغة قالها فيه .**

ـ **كما قيل بسب وشايات متعددة** من دساسين كثيرين حسدوا النابغة ، فأوغروا صدر النعمان عليه وأشهر هؤلاء: مرّة بن سعد بن

قريع ، والمنخّل اليشكري ، وعبد القيس بن خفاف التميمي .

ـ كما قيل بسبب مدح النابغة الغساسنة أعداء النعمان أبي قابوس وقاتلي أبيه .

اتصاله بالغساسنة :

اتصل النابغة بالغساسنة قبل اتصاله بالنعمان أبي قابوس ؛ ثم في الفترة التي كان فيها بصحبته ، مما أوغر صدره عليه ،وأحفظه ، ثم بعد أن فر منه .

وكان الغساسنة يقدّرون النابغ حقّ قدره،ويتجلى لنا ذلك أيام يغير الذبيانيون على أطراف دولة الغساسنة للسلب والنهب ، ثم يُغلبون ، ويأخذ الغساسنة منهم الأسارى ، إذ تقبل شفاعة النابغة في قومه فيطلق الاسرى .

وقد مدح النابغة من الغساسنة : عمرو بن الحارث ثم أخاه النعمان (أبو كرب) الذي قتل فرثاه.. كذلك مدح النعمانَ بن وائل بن الجلاح قائد الحارث .

حنينه للمناذرة وعودته اليهم :

عاد بالنابغة الحنين الى النعمان أبي قابوس بعد الجفوة والوعيد ، واختلف الرواة في سبب هذا الحنين ، وجدّيته ، ومن ثمّ ، في سبب العودة الى بلاطه .

ـ **قيل ان النابغة كان خائفاً من النعمان** الذي هدّده وأوعده ، ويناقض هذا القول بُعد النابغة عن المناذرة وهو في حمى قومه ، وفي

بلاط الغساسنة .

ـ وقيل أنه طمع بالنوق العصافيرية التي كانت من أعطيات أبي قابوس الكثيرة .

ـ وقيل أن النعمان مرض مرضاً شديداً اقعده ، وبلغ ذلك النابغة ، فثار به الحنين للصديق القديم .

في هذه الفترة قال النابغة اعتذارياته المشهورة التي خلدته .. ومن ثم فقد عاد النابغة الى النعمان الا أن هذه العودة لم تطل به . اذ هاجم كسرى النعمان فهرب ، ثم لم يلبث أن قبض عليه وتشتت شمل بلاطه . وعاد النابغة الى قبيلته فعاش فيها ، وكان قد أسن ، ثم لم يعرف له بعد ذلك خبر ، ويرجح البعض أنه توفي قبيل مبعث النبي (ص) بقليل ، حوالي ٦٠٤ م .

صفات النابغة واخلاقه ودينه :

كان النابغة حسن الهيئة ، ذا ضفيرتين على كتفيه ، جميل الطلعة ، حسن الحديث ، جالس الملوك ، وعرف بالتعقل ، بما أكسبه مكانة عند قومه وغير قومه ، وجعل له فضل الرأي والمشورة ، وكان عفيف النفس واللسان ، لم يعرف بالكرم ، ووصفه بعضهم بالبخل والتطير والتشاؤم ، وكان يبتعد عن السوقة بشعره ، فلا يمدحهم ، ولا يهجوهم الا مضطراً . وكان رجل سياسة ، حنكته التجارب وصقلته الاسفار ، كما كان حكم الشعر في عكاظ . ويستدل من شعره أنه كان مؤمناً بالله ، فليس وراء الله للمرء مذهب ، ويقسم بما يقسم به

العرب من مقدسات : (بالذي مسحت كعبته .. بالدماء المراقة على الانصاب .. بالذي آمن الطير في الحرم) . كما كان مؤمناً بالجن فيستشهد بهم في شعره ، وبالاساطير الدائرة حولهم :

وخيّس الجن اني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفّاح والعمد

ويعتبر النابغة أول من تكسب بالشعر ، فقد كان طماعاً محباً للمال على غنىً ، أراق وراءه ماء وجهه وتذلل طالباً الأعطية تصريحاً وتلميحاً حتى ولو نعت نفسه بأنه عبدٌ من العبيد (ولا يحول عطاء اليوم دون غد _ فان أك مظلوماً فعبد ظلمته) .

مَنزلتُه

ان جميع الذين عاصروا النابغة ، وجميع الذين اشتغلوا بالأدب في العصور التالية قد اعترفوا له بالفضل والتفوّق في الشعر، الا أنهم اختلفوا في مرتبته بين فحول شعراء عصره ، كزهير وامرىء القيس.

ففي الجاهلية : اعترافاً بمكانته وحسن تذوقه للشعر جعله الشعراء حكمهم في عكاظ، ونصبوا له فيها قبة ، ومن الذين أنشدوا أمامه : الأعشى ، وحسان بن ثابت، والخنساء ابنة عمرو ، وفي كتب الادب قصة تنافس مرّ بين حسان والخنساء أمام النابغة .

وقد كان النابغة يدرك قيمة شعره ، وجريان قصائده على الالسن فاستخدم ذلك في التهديد والوعيد :

قوافي كالسّلام اذا استمرّت فليس يردّ مذهبها التظني (١)

بهنّ أدين من يبغي أذاتي مداينة المداين فليدنّي (٢)

ومما لاخلاف فيه ،ان النابغة من شعراء الطبقة الاولى وقد عدّه ابن سلام الجمحي بعد امرىء القيس ، وقبل زهير والاعشى .

---

١ – السلام مفردها: سلمه : الحجارة ، التظني : اعمال الظن ٢ – أدين : أجزي.

وأورد ابن قتيبة في الشعر والشعراء : ويقال : كان النابغة أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، كأن شعره كلام ليس فيه تكلّف ؛ ونبغ بالشعر بعد أن احتنك ، وهلك قبل أن يهتر .

وقال الأصمعي : كان أوس بن حجر فحل العرب ، فلما نشأ النابغة طأطأ منه .

وقال ابو عبيدة : أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة .

وسئل يونس بن حبيب النحوي عن أشعر الناس فقال : لا أومىء الى رجل بعينه ، ولكن أقول : امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب .

العوامل التي كوّنت شخصية النابغة الشعرية

١ ـ البيئة البدوية :

عاش النابغة فترة شبابه في قبيلة ذبيان ؛ التي اشتهرت بفصاحة اللسان وسلامة السليقة ، وبالنجدة والبأس ، فكان لا بد أن يكتسب عنها هذه الصفات .

وقد ظل شعره مطبوعاً بالطابع البدوي (رغم تأثره بالجو الحضاري في بلاطي المناذرة والغساسنة) ويظهر هذا الطابع البدوي على أشدّه في الخطوط الرئيسية التالية :

١ ـ **المحافظة على هيكل القصيدة العام** وذلك من حيث : عدم

وحدة موضوع القصيدة ، وتعدد أغراضها ، واستهلالها بالوقوف على الاطلال والنسيب ، ثم استقلال البيت الشعري ، والتقيـــد بالطرق البدوية في صياغة الشعر ، وفي انشاده .

ـ الاقتصار على الفنون الشعرية السائدة آنذاك : من مـدح وهجاء ، ووصف ، وغزل ..الخ .

ـ استعمال الألفاظ البدوية والاكثار من التشبيهات المستمدة من طبيعة البيئة البدوية كقوله :

فلا تتركني بالوعيد كأنني الى الناس مطليٌّ به القار أجرب

أو قوله : كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع (١)

وان نظرة واحدة يلقيها المرء على دالتيه « يادارمية بالعلياء » توضح الكثير ، الكثير من أثر البيئة البدوية في شعره .

٢ ـ **البيئة الحضارية :**

لم يكن لاتصال **النابغة بحضارتي المناذرة والغساسنـــة ، أثر كبير على شعره** ، سوى ما نلمحه من نعومة الالفاظ في بعض النواحي ونمو الحس الموسيقي في تذوق الكلمات ، ورشاقة البحر الشعري ... وقصيدة النابغة في المتجردة ، هي المثال الحسن لهذا الأثر ، فالمعاني بدوية والالفاظ فيها الكثير من ترف الحضارة .

---

١ ـ العر : الجرب (لموق) ، يكوى غيره : يكوى السليم للوقاية .

٣ ـ الأسفار :

حياة النابغة رحلة طويلة بين أضلاع مثلث رؤوسه الحيرة وبصرى وقلب شبه الجزيرة العربية ، وهذه الأسفار الطويلة ، أوقدت في نفس النابغة الهادئة الرزينة حس التأمل ، كما أنها هي التي تبرر وصف الحيوان الكثير في شعره ، وخاصة ناقته ، عدة سفره ، وأنيس وحدته في القفار ، فلا غرو أن يصفها ويكثر من وصف سرعتها وصبرها وقوتها .

أغراضُهُ الشعريّة

للنابغة ديوان شعر اعتني بطبعه وشرحه مرات متعددة، كثير من المشتغلين بالأدب وأشهر شراحه، أبو بكر البطليوسي، وأفضل قصائده: الاعتذاريات، وداليته في المتجردة، وبائيته في مدح الغساسنة.

وقد اختلف الرواة فيما اذا كان النابغة من أصحاب المعلقات أم لا، فالزوزني لم يذكره مع أصحاب المعلقات، في حين اعتبره المفضل الضبي وأبو عبيدة وغيرهما، منهم، ويعتبر الجمهور أن معلقته هي قصيدته التي مطلعها:

● يادارمية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الامد

أو التي مطلعها:

● عوجوا فحيّوا لنعم دمنة الدار   ماذا تحيّون من نؤي وأحجار

وشعر النابغة متنوع يشمل أكثر الفنون الشعرية السائدة في عصره وسنتناول فيما يلي كل غرض من شعره على حده.

الاعتذار

لعل أروع أشعار النابغة هي اعتذارياته، لانها سبب شهرته وذيوع صيته ، ومن ثم سبب اقبال المشتغلين بالادب على دراسة شعره. ويعود ارتفاع قيمة هذه الاعتذاريات الى أسباب كثيرة فنية وموضوعية نقتطف منها ما يلي :

١ ـ **أنها فن جديد** لم يكن معروفاً من قبل ، ولم تحمل الينا أسفار الادب الجاهلي في الاعتذار أية قصيدة سواها، وذلك على مايظهر عائد لطبيعة البداوة القاسية والحياة الابية الكريمة التي كان يحياها عرب الجزيرة بحيث يشكل الاعتذار انتقاصاً منها .

٢ ـ **أن فيها عاطفة فياضة مؤثرة** ، اذ تنقل لقلب السامع احساسات الشاعر بحرارة وعنف، حتى لقد حار نقاد الادب واختلفوا في صدقها ، فهل هي منبعثة من ضمير الشاعر ؟ أم أن الشاعر يزيف عاطفته بمهارة طمعاً بكسب مادي أو معنوي ؟.

٣ ـ **أنها تجمع بين أكثر الفنون الشعرية المعروفة** :أي أن الفنون الشعرية الاخرى أجزاء في بناء قصيدة الاعتذار : فالمدح

والهجاء والحكمة والوصف ، تتعاون جميعها في خدمة فكرة الاعتذار.

أسباب قصائد الاعتذار .

اختلف رواة الادب قديما وحديثاً في الاسباب التي حملت النابغة على نظم قصائد اعتذاره ، وقد أوردنا سابقاً لمحة عن حياة النابغـة ، وبينا علاقته بالمناذرة ، ثم خلافه مع أبي قابوس ، وهربه منه ، بعد أن بلغه وعيده... ومن شعر النابغة نستطيع **أن نتبين هذه الاسباب التي يمكن ايجازها بما يلي :**

أ - خوف النابغة من النعمان : والنعمان لم يواجه النابغة بمكروه ، انما ورد للنابغة من أصحابه ، أو ممن يظنهم أصحابه أن النعمان يتوعـــده ويوشك أن يفتك به فتلقى هذا وعيد النعمان وراح يصف خوفه فقال :

- وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع [١]
- أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب [٢]
- نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الاسد

ب - الرغبة في الاستزادة من عطاء النعمان : ولكن الخوف لم يكن وحده الدافع الى هذه الاعتذاريات بدليل أنه يبدو مصطنعاً مزيفاً لا حقيقة له ، وباعتبار أن النابغة كان منيعاً في قومه ، وعنـــد الغساسنة ، اضافة الى أننا نلمح في شعره الطمع بالعطاء تصريحاً وتلميحاً كقوله :

- الواهب المئة المعكاء زينها سعدان توضح في أوبارها اللبد [٣]

---

١ - في غير كنهه : في غير موضعه من الحق ، راكس ، الضواجع : مكانان .

٢ - أنصب : أتعب ، أعيا . ٣ - المعكاء : الغلاظ الشداد . سعدان : نبات يسمن الابل توضح : مكان ، تجادع : تشاتم .

• يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد[1]
• وأنت ربيع ينعش الناس سيبه وسيف أعيرته المنيّة قاطع

ج ـ **الصداقة** : لا نريد أن نظلم النابغة في شيء، فقد تكون الصداقة هي الدافع الحقيقي ذلك أن النعمان صديق الشاعر، صاحبه في مجلسه سنوات سبعاً كان فيها موضع الحفاوة والاكرام، **والنابغة في اعتذارياته أراد تبرئه نفسه من خيانة هذه الصحبة**

لعمري وما عمري علي بهيّن لقد نطقت بطلا علي الاقارع
اقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادع
أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة له من عدو مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسيج كاذب ولم يأت بالحق الذي هو ناصع

اسباب خلاف النابغة مع النعمان

ذكر كثير من الرواة، أن خلاف النابغة والنعمان، كان بسبب تعهتر الاول في وصفه للمتجردة؛ أو في علاقة مشبوهة معها اكتشفها يوماً ما زوجها أبو قابوس... ونحن نعتقد أن الامر ليس كما ذكروا والا لوجدنا محاولة الشاعر الجدية لتبرئة نفسه من هذه الوصمة الخلقية التي تؤذي أخلاق النابغة الشخصية المتعففة قبل أن تؤذي صداقته بالنعمان وقصيدة النابغة الدالية التي قيل أنها في المتجردة نشك في أنها قيلت بها أو بسببها وذلك :

---

١ ـ السيب : العطاء، النافلة : الزيادة .

- **للافحاش الوارد في أبياتها الأخيرة**، وهذا مانجده بعيداً عن طبـع النابغة الذي يظهر لنا في باقي غزله عفيفاً .

- **لورود أسماء غير المتجردة** التي لم يرد اسمها فيها ، كمية ، ومهدد..

ومن الرجوع الى شعر النابغة الذي بين أيدينا نقع على أسباب الخلاف التالية :

١ - **اتصال النابغة بالغساسنة قاتلي المنذر** والد النعمان أبي قابوس وأعداء المناذرة ، ومدحه اياهم ، بدليل تبرئة النابغة نفسه بقوله :

ملوك واخوان اذا ما أتيتهم ... أحكّم في أموالهم وأقرّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم في شكر ذلك اذنبوا

٢ - **وشاية أحد الاقارعة** ، وهو مرّة بن سعد بن قريع الذي زعم أن النابغة قد قال فيه أبيات الهجاء التالية :

حدّثوني بني الشقيقة ما ... يمنع فقعاً بقرقر أن يزولا (١)
قبّح الله ثم ثنّـى بلعن ... وارث الصائغ الجبان الجهولا (٢)
من يضر الادنى ويعجز عن ضر ... الاقاصي ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الالوف ويغزو ... ثم لا يرزأ العدو فتيلا

وينكر النابغة أن يكون قد قال شيئاً من هذا ، ويتهم الاقارعة بالكذب :

● لعمري وما عمري علي بهيّن ... لقد نطقت بطلا عليّ الاقارع

---

١ - بني الشقيقة : أراد قوم النعمان ، الفقع : الكمأة البيضاء الرديئة ، قرقر : الارض اللينة المطمئنة . ٢ - الصائغ : أراد به عطية ، أبا سلمى أم النعمان وكان صائغاً -

آقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادع
● أتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذي هو ناصع

مضمون قصائد الاعتذار :

إذا استثنينا ما ورد في قصائد الاعتذار من مقدمات تقليدية في وصف الأطلال والغزل ، واستطرادات في وصف الناقة، فاننا نجد في قصائد الاعتذار المضمون التالي :

أولاً - يصف النابغة لنا **كيف تلقى الوعيد ويحدد المكان :**

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم يذكر **كيف بات ليلته قلقاً مضطرباً** بعيـــداً عن الأمن والهدوء كأن فراشه من شوك أو كأن حية لدغته :

● فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع[1]
● فبت كأن العائدات فرشنني هراساً به يعلى فراشي ويقشب[2]

ثانياً - **مدح النعمان**: ويختلف هذا المدح في الاعتذاريات بعض الشيء عن المدح ، في القصائد الأخرى ، اذ أنه **واقع هنا بسبب الرهبة والرغبة** معاً ، بينما يرد في القصائد الاخرى بسبب الرغبة في العطاء أو الشكر عليه .. **كما أن المدح هنا يأتي صريحاً أحياناً ومستتراً وراء معان شعرية أحياناً أخرى**، وقد يكون هذا أبلغ في المدح من التصريح ،

---

١ - ساورتني : وأثبتني ، الرقش : الحية المنقطة ، ناقع : ثابت دائم .
٢ - العائدات : زائرات المريض ، الهراس : نبات كثير الشوك ، يقشب : يتجدد.

من ذلك مايذكره النابغة لدى تلقيه وعيد النعمان وكيف اضطرب وفقد الامن والسكينة، وكأنه يمدحه بالمهابة والقدرة، والتمكن من تنفيذ الوعيد، وهو الامر الذي لاينكره النابغـة، بل نراه يصرح به بقوله :

مقالة أنْ قد قلت سوف أناله — وذلك من تلقـاء مثلك رائع

ويمتاز مدح النابغة في اعتذارياته :

١ - **بأنه غير واقعي ففيه كثير من الغلوّ** ولكنه غلو مستحب يجمّله حيويّة التشبيه وروعته.. أي أن جمال الغلو في المدح عائد الى جمال التشبيه كقوله :

- فانك شمس والملوك كواكب — اذا طلعت لم يبد منهن كوكب
- فانك كالليل الذي هو مدركي — وان خلت أن المنتأى عنك واسع

٢ - ان المدح **يجري بأوصاف ترضي الممدوح**، ومن هنا اشتهر النابغة أنه يخاطب الناس كلاً بما هو أهل له .

٣ **المقارنة بين الممدوح والشاعر** الذي يتواضع الى الدرك الاسفل ليظهر بالتالي عظمة النعمان :

مقالة أن قـد قلت سوف أناله — وذلك من تلقاء مثلك رائع
أتوعد عبداً لم يخنك أمانةً — وتترك عبداً ظالماً وهو ظالع
وأنت ربيـع ينعش الناس سيبه — وسيف أعيرته المنيّة قاطع

فالشاعر ليتمكن من اظهار قوة النعمان (أي ليقول له أنه سيف أعيرته المنية) مهّد لذلك بتذلّله وجعل نفسه عبداً من العبيد .

ثالثاً – **الهجاء** : يهجو النابغة في اعتذارياته بأبيات متفرقة حارة، الاشخاص الذين كادوا له ، ويتهمهم بحب الشر ، وبالغش والخيانة، ويطلب من النعمان معاقبتهم وأخذهم بجرمهم :

- لئن كنت قد بلّغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب
- لعمري وما عمري عليّ بهيّن لقد نطقت بطلاً عليّ الأقارع
  أقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادع
- لكلّفتني ذنب امرىء وتركته كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع
- أتوعد عبداً لم يخنك أمانة وتترك عبداً ظالماً وهو ظالع

رابعاً – **دفاع النابغة عن نفسه** :

يدافع النابغة في اعتذارياته عن نفسه دفاعاً مراً، محاولاً استرضاء النعمان ، وإبعاد التهم الملصقة به ، ويستخدم في دفاعه مجموعة من التبريرات ، يمكن تصنيفها بما يلي :

١ – **التبريرات المنطقية العقلانية** : وفيها يدعو النابغة النعمان أن يحكم كحكم فتاة الحي . . أو حكم سليمان الذي قال الاله له :

. . . . قم في البرية فاحددها عن الفند[١]
فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادلله على الرشد

---

١ – الفند : الكذب .

كما نرى النابغة هنا يناقش ويستشهد بالأدلة والمنطق كقوله مبرراً علاقته بالغساسنة :

ولكنني كنت امرأً لي جانب   من الارض فيه مستراد ومذهب
ملوك واخوان إذا ماأتيتهم   أحكّم في أموالهم وأقرّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم   فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

ومن ذلك قوله في رد وشاية مرة بن سعد بن قريع :

أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة   له من عدوٍّ مثل ذلك شافع

فالوشاية من العدو، شهادة بالبراءة...

٢ - **التبريرات العاطفية** : وهي محاولة التأثير في عواطف النعمان، واظهار البراءة هنا لايتم عن طريق الاقناع العقلاني، بل عن طريق الارضاء العاطفي، وما المدح الذي يكيله النابغة في شعره للنعمان الا نوع من التأثير العاطفي .. ومن هذه التبريرات :

أ - **النفي المطلق للتهمة مهما كانت الشروط والظروف** كقوله :

اتاك بقول لم اكن لاقوله   ولو كبّلت في ساعديّ الجوامع(١)

ب - **التأكيد بمختلف الوسائل على كذب التهمة، وحقيقة البراءة** ... ومن هذا التأكيد :

- **تكرار الكلمات والمعاني كقوله :**

أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة   له من عدوّ مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب   ولم يأت، بالحق الذي هو ناصع

١ - الجوامع : الاغلال .

فعدا تكرار كلمة أتاك، نلاحظ أن صدر البيت الثاني له نفس معنى عجزه، وان اختلفت الكلمات، وطريقة الاداء، أي ان هناك تكراراً لفظياً لكلمة اتاك، وتكراراً معنوياً لصدر البيت الثاني في عجزه.

- **بالدعاء على نفسه** كقوله :

ما قلت من سيء مما أتيت به | إذن فلا رفعت سوطي الي يدي
إذن فعاقبني ربي معاقبة | قرت بها عين من يأتيك بالفند

- **بنون التوكيد** : لا تقذفني بركن لا كفاء له ... فلا تتركني بالوعيد كأنني ...

- **بالقسم** : وهو آخر وسيلة يدافع بها المتهم عن نفسه بعد أن تعيا وسائله فيقسم النابغة بالله، وبالمقدسات التي تملأ قلب النعمان قناعة بطهارة القسم، وصدقه، وبالتالي بالبراءة :

● حلفت فلم أترك لنفسك ريبة | وليس وراء الله للمرء مذهب
● حلفت فلم أترك لنفسك ريبة | وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع (١)
بمصطحبات من لصاف وثبرة | يزرن إلالاً سيرهن التدافع (٢)
عليهن شعث عامدون لحجهم | فهن كأطراف الحني خواضع (٣)
● فلا لعمر الذي مسحت كعبته | وما هريق على الانصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير تمسحها | ركبان مكة بين الغيل والسعد (٤)
ما قلت من سيء مما أتيت به | . . . .

---

١ - أمة : دين . ٢ - لصاف وثبرة : موضعان، الال: جبل بعرفة . ٣ - الحني القسي . ٤ - الغيل والسعد : أجمتان قرب مكة ومنى.

المظاهر الفنية الأخرى في قصائد الاعتذار

في قصائد الاعتذار ، نواحٍ فنية كثيرة ، يجدر بنا الوقوف عندها لأنها كبيرة الدلالة على شخصية النابغة ، كما تظهر بوضوح الأسباب التي جعلت الاعتذاريات مترعة بالألوان الجمالية الزاهية ، وبالشحنات العاطفية المؤثرة ومن هذه النواحي :

آ ـ التركيز والجهد العقلي الذي بذله النابغة : في رسم مخطط قصائده ، وفي صياغة عباراتها ، ثم في زخرفة الصور ووضع اطاراتها ، ومما لا شك فيه أن قصائد الاعتذار ليست بنت ساعتها وهي بعيدة عن الارتجال والعفوية .

فالنابغة حين يرسم لنا لوحة لا يكتفي بضربة ريشة سريعة ، بل نجده يلح على الصورة بألوان كثيرة وانفعالات متنوعة مستكملا جوانبها بحيث تؤدي مهمتها في القصيدة .

فاذا أراد أن يظهر لنا قلقه من وعيد النعمان ، مثل نفسه كمن لدغته حية ، ثم عمد الى الحية فاستزاد من هولها وشدتها ، فاذا صارت مرعبة كل الرعب قارنها بالرعب الذي حمله اليه وعيد النعمان :

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة　　من الرقش في أنيابها السمُّ ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها　　لحلي النساء في يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سوء سمها　　تطلقه طوراً وطوراً تراجع

ويريد النابغة أن يمدح النعمان بالكرم وأن يشبهه بالفرات (وهل عرف النابغة أكبر من الفرات) فيلح عليه بالاوصاف التي تزيد من

امواجه ، وروافده ، وما يحمله ماؤه ، فاذا بلغ به الحد الكافي ، قال : ان الفرات دون كرم النعمان :

فما الفرات اذا هب الرياح له ترمي أواذيه العبرين بالزبد (١)
يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد (٢)
يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد
يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وفي القَسَم تظهر النواحي العقلانية في التركيز على جزئيات معينة ، وايضاحها ، فليس القسم هو المقصود ، بل المقصود تلك الصور الصغيرة ، ودقائقها وجزئياتها، هذه الجزئيات هي التي تجعل الخشوع يتسرب هيّناً ، وببطء متكامل الى قلب النعمان ، فاذا ما صار اليه ملأه قناعة بطهارة القسم ، وصدق صاحبه :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمّة وهو طائع
بمصطحبات من لصاف وثبرة يزرن الالاً سيرهن التدافع
سماماً تباري الريح خوصاً عيونها لهن رذايا بالطريق ودائع
عليهن شعث عامدون لحجّهم فهن كأطراف الحني خواضع

ومن النواحي العقلانية الاخرى الظاهرة في الاعتذاريات، هذه الحكم المنثورة في لوحات القصائد ، وفي شطور الابيات، وهي اما **تقريرية** كأنها المثل أو تأتي في **شكل استفهام عام غير محدود .**

---

١ ـ العبران : الناحيتان . ٢ ـ الينبوت : شجر الخشخاش ، الخضد : ما تكسر من الاشجار .

وهذه الحكم يكثر فيها التقوى والاعتبار والرهبة ، ثم القناعـــة وتسليم الامر الى الله :

- أبى الله الا عـــدله ووفاءه ... فلاالنكر معروف ولا العرف ضائع
- حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو أمة وهو خاضع
- حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
- ولست بمستبق أخاً لا تلمّه ... على شعث أيّ الرجال المهذب

ب ـ وصفة ثانية تظهر مشرقة في قصائد الاعتذار سوى ما ذكرنا من تركيز عقلاني فيها وهي غزارة الأخيلة وواقعيتها :

قصائد النابغة عموماً مليئة بالصور ولكن الاعتذاريات اكثرها غنىً ، وتتصف هذه الصور بالحياة والحركة . كما أنها مستمدة من الواقع ومن البيئة التي عاش فيها الشاعر فما ان تذكر اولى ملامح الصورة حتى يستكمل ذهن السامع جميع التفاصيل لانها معروفة لديه بالمعاناة والتجربة . . وعودة واحدة الى الامثلة التي ذكرناها قبل قليل توضح هذه الناحية المهمة .

جـ ـ تظهر العاطفة حارة في قصائد الاعتذار عموماً وهي هادئة في الدالية (يا دار مية) مندفعة في القصيدة العينية (عفاذوحسا) ، وتميل العاطفة الى اليأس والشعور بالمرارة في الابيات الاخيرة من كل قصيدة بوجه عام ، اذ يتمثل النابغة أن النعمان كذّبه ، وان حلفه وقسمه لم يفده كقوله :

● فان كنت لا ذو الظعن عني مكذّب
ولا حلفي على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشيء أقوله وأنت بأمر لامحالة واقع
فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلتُ أن المنتأى عنك واسع
● فلا تتركنّي بالوعيد كأنني الى الناس مطليٌّ به القار أجرب
● فان أكُ مظلوماً فعبد ظلمته وان تك ذا عتبى فمثلك يعتب
● ها ان ذي عذرة الا تكن نفعت فإنَّ صاحبها مشارك النكد

شعر النابغة السياسي

ونعني به الشعر الذي قاله النابغة بسبب الواقع القبلي المحيط بقبيلته ذبيان ، فنحن نعلم أن حرب داحس والغبراء اضطرت عبساً وذبيان الى جمع الحليفات وكسب الانصار ، فتحالفت عبس مع بني شيبان وبني عامر ، وتحالفت ذبيان مع بني أسد ،وشددت على هذا التحالف ، ثم مع بني تميم ..

فمن علاقات هذه القبائل ، يتكون الجو السياسي العـــام الذي خاضه النابغة بشعره متضامناً مع قبيلته ؛ مدافعاً عن مصلحتها ، وكان له فيها مواقف متعددة تبلورت بما يلي :

أ ـ الهجاء : فقد هجا النابغة كل من حرض على تفتيت أحلاف ذبيان ، أو الحط منها ، وخاصة ما يتعلق بابعاد قبيلة أسد عنها .

فهؤلاء بنو عامر ، يفاوضون حصن بن حذيفة وعيينة بن حصن طالبين ابعاد بني أسد عن الحلف ، واعدين بالانضمام اليه ان أبعدت .. ويهم عيينة بذلك ، وتغضب ذبيان ، ويتمثل غضبها في قصيدة شاعرها النابغة مخاطباً زرعة من بني عامر :

قالت بنو عامر خالوا بني أسد   يا بؤس للجهل ضرّاراً لأقوام (١)
يأبى البلاء فلا نبغي بهم بـدلا   ولا نريد خلاء بعد احكام

وهذا عيينة يحاول أن يخرج بني أسد من حلف ذبيان فيها جمه النابغة قائلا :

ألكني ياعيين اليك قـولاً   سأهديه اليك ، اليك عني (٢)
قوافي كالسّلام اذا استمرت   فليس يردّ مذهبها التظنّي
أتخذل ناصري وتعز عبساً   أيربوع بن غيظ للمعنّ (٣)

الى أن يقول :

اذا حاولت في أسد فجوراً   فاني لست منك ولست مني

ب ـ ويمدح النابغة الحلفاء ذاكراً أسماءهم ، ووقائعهم ومفاخرهم ، ابقاء للحلف ، وربطاً للقلوب عليه ، ومن ذلك قوله في تعداد الحلفاء بشكل يظهرهم كثيرين :

رهط ابن كوز محقبي أدراعهم   منهم ورهط ربيعة بن حذار (٤)
ولرهط حرّاب وقـدّ سورة   في المجد ليس غرابهم بمطار (٥)
وبنو قعين لا محـالة أنهم   آتوك غير مقلّمي الأظفار

وقوله في **تعداد الأيام والمفاخر** في مدح بني اسد :

فهم درعي التي استلأمت فيها   الى يوم النسار وهم مجنّي (٦)
وهم وردوا الجفار على تميـم   وهم أصحاب يوم عكاظ اني (٧)

---

١ ـ خالوا : أخلوا من حالفكم . ٢ ـ ألكني : ابلغ رسالتي . ٣ ـ المعن : المتدخل فيما لا يعنيه .
٤ ـ كوز : من بني مالك بن ثعلبة ، محقبو أدراعهم : جاعلوها كالحقيبة ، ربيعة بن حذار : من بني سعد . ٥ ـ حراب وقـد : من بني اسد ، ليس غرابهم بمطار : كناية عن الخصب . ٦ ـ استلأمت : جعلتها درعا ، النسار : يوم من أيام العرب ، المجن : الترس . ٧ ـ الجفار : ماء لبني تميم .

شهدت لهم مواطن صادقات أتينهم بودّ الصدر مني
وهم ساروا لحجر في خميس وكانوا يوم **ذلك** عند ظنّي
وهم زحفوا لغسان بزحف رهيب السرب أرعن مرجحن [1]

وتبدو أهمية أحلاف ذبيان بالنسبة للشاعر **حين يتعرض للغساسنة في سبيلهم، أو يخاف عليهم من بطش الغساسنة**، اذ كثيراً ماتغير ذبيان أو حليفاتها على أطراف دولة الغساسنة بلاد الخيرات، وما أحرج موقف الشاعر الذبياني وهو في بلاطهم آنذاك، ولكن النابغة بتعقله واتزانه وذكائه استطاع أن يقف الموقف الملائم.. فهو **مرة ينهى قومه عن غزو الغساسنة** خوفاً عليهم:

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر وعن تربّعهم في كل اصفار [2]
وقلت: ياقوم ان الليث منقبض على براثنه لوثبة الضاري

ولكن قومه لا يريدون منه أن ينهاهم، بل يريدون منه المشاركة في الاغارة، وحين يصر على نهيهم، **يعيرونه بالخوف والجبن**، **فيجيبهم** أنه ليس عاراً أن يخاف النعمان الغساني:

وعيّرتني بنو ذبيان خشيته وهل علي بأن أخشاك من عار

ولكن نهي النابغة قومه، وأظهار خوفه من الغساسنة، ان هو الا موقف سياسي، موقف اضطرته اليه مصلحة قبيلته، هذه المصلحة التي قد تضطره الى موقف معاكس آخر، يناقض تماماً الموقف الاول اذ نرى **النابغة ينهى الغساسنة عن غزو بني حن احلاف قومه** فيصر

---

١ - أرعن: له فضول وانفه، مرجحن: متمايل من الثقل ٢ - أقر: اسم وادي.

هؤلاء ، ويسيّرون جيشهم ، وينحاز النابغة الى بني حن ، ويرسل رسوله اليهم لينذرهم . . وهكذا ينتصرون وينكسر الغساسنة فيقف النابغة شامتاً بهم فرحاً بانتصار الحلفاء بني حن :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بني حن ببرقة صادر[1]
تجنّب بني حن فان لقاءهم كريه وان لم تلق الا بصابر

الأبيات . .

ومع ذلك يظل النابغة **معززاً مكرماً في بلاط الغساسنة** ، يريدون شعره ، ويريد عطاءهم .

بعد هذا العرض السريع للشعر السياسي للنابغة ، يمكننا أن نصل الى السمات العامة لهذا الشعر فنقول :

١ ـ **أنه شعر العصبية القبلية** التي تتجلى واضحة تمام الوضوح غاضبة كل الغضب ، لكرامتها ولاثبات ذاتيتها .

٢ ـ وهو شعر **بريء من الأنانية الفردية** ، اذ أن صاحبه لم يقله طمعاً بكسب ذاتي مادي أو معنوي ، بل قاله باعتباره شاعر القبيلة الذائد عنها المدافع عن حقوقها .

٣ ـ وتظهر في هذا الشعر **حرارة العاطفة وتعقل الشاعر** ، اذ أن العصبية القبلية جعلت ما يمس القبيلة جملة كأنه يمس قلب الشاعر مفرداً . . وعلى هذا الاعتبار كانت قوة العاطفة ميزة أساسية لشعر السياسة القبلية .

---

١ ـ برقة : أرض ذات رمل وحصى ، صادر : مكان .

٤ – في هذا الشعر تتجلى مواهب النابغة السياسية حتى ليصح فيه ،تعبير الشاعر الديبلوماسي ، ويمكننا أن نصل الى معنى هـذه العبارة ،اذا استعرضنا النواحي التالية :

– لايكثر النابغة في شعره السياسي من الفخر بقبيلته ذبيان ، بل يعطيها المرتبة الثانية أو الأخيرة من الفخر والمدح ، في حين يظهر كل ما أوتيه من فنّ وبراعة في مدح القبائل الحليفة ،فيعـدد بطونها ، ويذكر أيامها ، ومفاخرها ، وغزواتها وانتصاراتها ؛ وما ذلك ، الا تأليفاً للقلوب وربطها بالحلف .

– العمل على الاقلال من الخصوم وعدم توسيع شقة الخلاف بينه وبين القبائل الأخرى لعلها تنضم الى حلف ذبيان.. وقد تجلّى ذلك حين هجا عامر بن طفيل ، ذبيان متحرشاً بهـا ..فانبرى النابغة للرد عليه هاجياً اياه بقوله :

فان يك عامرٌ قد قال جهلاً فانّ مظنّة الجهل الشباب
فكن كأبيك أو كأبي براءٍ توافقك الحكومة والصواب

الأبيات..

فقارنه بأبيه وعمه ، كأنه مدحهما وأبقاه لوحده مهجواً .

٥ –اضافة للفخر والمدح والهجاء في الشعر السياسي، يكثر النابغة من وصف النساء ومايصيبهن في الحرب من تشتت وهتك للأعراض، وهو يقصد بذلك تهويل الأمر على الحلفاء فلا يخرجون من الحلف ، أو تهديد الأعداء بما قد يصيبهم على أيدي ذبيان وحليفاتها كقوله :

كم غادرت خيلنا منكم بمعترك ... للخامعات أكفاً بعد اقدام[1]
يا رب ذات خليل قد فجعن به ... وموتمين وكانوا غير أيتام[2]

أو كقوله :

لا أعرفن ربرباً حوراً مدامعها ... كأن أبكارها نعاج دوار[3]
ينظرن شزراً الى من جاء من عرض ... بأوجه منكرات الرق أحرار
خلف العضاريط لا يوقين فاحشة ... مستمسكات بأقتاب وأكوار[4]

٦ ـ يمتاز الشعر السياسي فيما يمتاز به ؛ بالعفوية ؛ فهو شعر السليقة الحرة ، والنفس غير الطامعة بكسب وتقل فيه بالتالي العناية بالخيال ، حتى أن كثيراً من المعاني ترد مجردة من التنميق والتزويق ما دامت تسعى لغرض حدده الشاعر ، ألا وهو مصلحة القبيلة وشرفها .

على أن هناك صوراً وتشبيهات جميلة وردت عفوية في سياق الشعر فامتازت ، بالواقعية والحيوية والحرارة كقوله :

اني لأخشى عليكم أن يكون لكم ... من أجل بغضائهم يوم كأيام
تبدو كواكبه والشمس طالعة ... لا النور نور ولا الاظلام اظلام
أو تزجروا مكفهراً لا كفاء له ... كالليل يخلط اصراماً باصرام

٧ ـ يمتاز شعر النابغة السياسي أيضاً بقوة الربط بين الابيات وبين الجمل ، فالأبيات متسلسلة كأنها نفس واحد ، والجمل متدافعة تتوارد تباعاً دون انقطاع .

---

١ ـ الخامعات : الضباع ، أي مرة بعد مرة . ٢ ـ موتمين ج موتم : فاقد الاب ـ
٣ ـ ربرب : قطيع بقر الوحش وقد شبه به النساء . ٤ ـ العضاريف : الأتباع والاجراء .
الاقتاب : عيدان الرحل .

٨ ـ لا يذكر الرواة في مطالع هذه القصائد افتتاحها بالوقوف على الاطلال أو الغزل .. وقد يكون السبب ضياع هـــذه المطالع، أو الدخول في الموضوع رأساً .

٩ ـ هذا وللشعر السياسي قيمة تاريخية كبرى لانه يحدد الوضع القبلي العام، ويذكر أسماء القبائل والاشخاص، ومفاخر وانتصارات كل قبيلة .

الغزل

الشعر الغزلي هو القاسم المشترك بين شعراء الجاهلية قاطبة ، ولم يشذ النابغة عن أمثاله، فقد تغزل بالكثيرات **وما يهمنا ليس كثرة الغزل وانما صدقه** .. ونحن نعلم أن شعر الشباب لدى النابغة لم يصلنا اذ فقد أكثره رغم قلته ، حتى قيل : أن النابغة لم يقل الشعر الا بعد ما كبر وجاوز مرحلة الشباب ، يضاف الى ذلك ، ان النابغة هادىء الطبع متعقل منهمك في السياسة القبلية والاسفار واسترضاء الملوك ، والسعي وراء المال ، **لذا فقصائده في الغزل الصحيح محدودة ، خاصة وأنه لم يرد بين ما نقل الينا عن الشاعر أنه أحب واحدة بعينها** ، لان عاطفة الحب هي الدافع القوي للغزل الصحيح ..ومن الرجوع الى شعر النابغة الذي بين أيدينا ، نرى انه قيل بنساء عديدات منهن : مية وسعدى ومهدد ونُعم وسعاد وفطام وغيرهن.. وكان التغزل بهن يرد في مطلع القصائد ، مراعاة لسلّم القصيدة التقليدي ، تمهيداً لغرض شعري آخر من مدح او هجاء او اعتذار وليست هناك سوى قصيدة واحدة غرضها الغزل الخالص مطلعها :

أمن آل ميّة رائح او مغتدِ   عجلان ذا زاد وغير مزوّد

روي انها قيلت في المتجرّدة زوج النعمان ، الا اننا لانجد فيها اسم المتجردة بل اسماء اخريات منهن: ميّة ومهدد :

حان الرحيل ولم تودع مهدداً   والصبح والامساء منها موعدي

والاصح انها قيلت في النسوة الثلاث وفي مواعيد مختلفة . . .

ويلاحظ في غزل النابغة مايلي :

١ ـ انه **تقليدي مصطنع** ، الغاية منه ليست الغزل وانما طرق غرض آخر .

٢ ـ انه **لايصور عاطفة** ولا يعبر عن تشوق وحنين الى من يحب ، وان ورد ذلك فهو خداع ألفاظ ، اذ الغزل عند النابغة مادي يصف به جسم المرأة ولذّة المستمتع بها :

تسقي الضجيع اذا استسقى بذي أشر   عذب المذاقة بعد النوم مخمار[1]

كأن مشمولة صرفاً بريقتها   من بعد رقدتها أو شهد مشتار[2]

٣ ـ المعاني والصفات التي يغدقها النابغة على المرأة تقليدية ، سبقه اليها كثيرون ، منها التشبيه بالغزال . . احم ، احوى المقلتين ، كالشمس . . لو عرضت لراهب ، ريقها وحلاوته ، تطيبها . . . الخ كل هذا مكرر جداً في الأدب الجاهلي :

---

١ ـ بذي أشر : بحسن الثغر ، مخمار : معطر . ٢ ـ المشمولة : الخمر ، المشتار : جامع العسل .

● بيضاء ، كالشمس وافت يوم أسعدها
لم تؤذ أهـــلا ولم تفحش على جار

والطيب يزداد طيباً ان يكون بها في جيد واضحة الخدين معطار

● نظرت بمقلة شادن متربّب أحوى أحمّ المقلتين مقلّد[1]

صفراء كالسيراء أكمل خلقها كالغصن في غلوائه المتأوّد[2]

٤ ـ في وصف النابغة لجسم المرأة **لايراعي ترتيباً معيناً** ، انما يسترسل ويصف ما يحلو له **دون تسلسل منطقي أو عاطفي** ففي وصفه المتجردة : يذكر نظرتها (نظرت بمقلة شادن . . .) ثم نحرها (والنظم في سلك يزين نحرها) ثم بطنها (والبطن ذو عكن . . .) فروادفها (ريّا الروادف بضّة المتجرد) فأصابعهـا (بمخضب رخص كأن بنانه) ثم يعود للنظرات (نظرت اليك بحاجة لم تقضها . . نظر السقيم . . .) . .

٥ ـ ولئن كان غزل النابغة تقليدياً في معانيه ، وفي أوصافه ، وفي موقعه من القصيدة ، **فان للنابغة فنه الذي يسكب به أفكاره في الغزل والمرأة** وأهم ما يتجلى به هذا الفن : **لطف الكلمات ، وجرسها العذب** ، فالنابغة يصوغ غزله من كلمات وعبارات ناعمة ، طروبة ، رشيقة :

رأيت نُعماً وأصحابي على عجل والعيس للبين قـد شدّت باكوار

---

١ ـ شادن : ولد الظبي ، أحوى : أحمر مائل للسواد ، احم المقلتين : شديد سوادهما . ٢ ـ السيراء : ثوب من الحرير .

فربيع قلبي وكانت نظرة عرضت حينـاً وتوفيق أقــدار لأقدار

بيضاء كالشمس وافت يوم اسعدها لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار

٦ ـ **وممـــا يزيد جمال غزله تلك الجوانب العاطفية الرقيقة والظلال النفسية المختلفة :**

● فاذا كان **الرحيل** : خبّره به الغراب الاسود ..

زعم البوارح أن رحلتنا غـداً وبذاك خبّرنا الغـداف الاسود

● واذا كان الرحيل غداً فلا مرحباً بالغد...

لا مرحباً بغـد ولا أهلاً به ان كان تفريق الاحبة في غد

● وهناك **العتاب** على الهجران وهو قليل في الادب الجاهلي .

نبئت نعماً على الهجران عاتبة سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري

● وهناك **الذكرى** يهيجها الحمام الورق .

اذا تغنّى الحمام الورق هيّجني وان تغرّبت عنها أم عمّار

● وهناك **الحوار اللطيف** .

قالت : أراك أخا رحل وراحلة تغشى متالف لن ينظرنك الهرما(١)

حيّاك ربي فانّا لا يحل لنا لهو النساء وان الدين قد حرما(٢)

والدلال .

أتاركة تدلّلهـا قطـام وضنّاً بالتحية والسلام

٧ ـ وتظهر بين الحين والحين في كلمات النابغة الغزلية وعباراته ، **سيماء الترف والنعيم** ، فيذكر كريم الثياب والحلي والطيب :

● والنظم في سلك يزيّن نحرها ذهب توقد كالشهاب الموقد

---

١ ـ الرحل : السرج ، الراحلة : الناقة ، متالف : مخاطر . ٢ ـ الدين : الحج .

- أخذ العذارى عقدها فنظمنه من لؤلؤ متتابع متسرّد[1]
- قامت تراءى بين سجفي كلّة كالشمس يوم طلوعها بالاسعد

أو درّة صدفية غوّاصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد

أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بآجر تشاد وقرمد

فكلمات : سجفي كله ، درة صدفية ، دمية من مرمر هي كلمات حضارية ومثل ذلك ذكر الطيب :

والطيب يزداد طيباً أن يكون بها في جيد واضحة الخدين معطار

٨ - **في غزل النابغة اهتمام محدود بالنواحي الخلقية للمرأة كقوله :**

- بيضاء كالشمس وافت يوم اسعدها لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار
- ليست من السود أعقاباً اذا انصرفت ولا تبيع بجنبي نخلة البرما[2]

فهي لم تؤذ أهلاً أو جاراً ، وذات أقدام نظيفة ، ولا تبيع قدور النحاس أي أنها مصونة .

---

١ - متسرد : يتبع بعضه بعضاً . ٢ - نخلة : مكان فيه بستان ؛ البرم : قدر من نحاس .

المديح

مدح النابغة ملوك الغساسنة والمناذرة ، وترفع عن مدح السوقة من الناس ، كما مدح القبائل التي حالفت ذبيان ضد عبس ، وكل من يدعم ذلك .

ومن الأشخاص الذين مدحهم عمرو بن الحارث الأصغر ، وذلك بعد هربه الى الشام بقصيدة مطلعها :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ومدح النعمان بن الحارث الغساني بقصيدة يقول فيها :

قاد الجياد من الجولان قائظـــة ما بين منعلة تزجى ومجنوب
حتى استغاثت بأهل الملح ما طعمت في منزل طعم نوم غير تأويب

ومدح النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي بقصيدة مطلعها :

أعاجك من سعداك مغنى المعاهد بروضة نعمي فذات الأساود

كما مدح النعمان أبا قابوس ملك الحيرة بقصائد متعددة حتى اقترن اسم النابغة باسمه من هذه القصائد ، واضافة لما مر معنا في الاعتذار قصيدته التي مطلعها :

كتمتك ليلا بالجومين ساهراً وهمّين همّاً مستكنّاً وظاهرا

أما دوافع هذا المدح فكثيرة متنوعة ، أهمها التكسب والرغبة في كرم الملوك ، والنابغة صريح في طلبه الأعطية ، صريح في الشكر عليها :

● يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

● علي لعمرو نعمة اثر نعمة لوالده ليست بذات عقارب

ولا نغفل هنا دوافع المدح الاخرى التي لها من الاهمية ما للرغبة كالخوف من النعمان أبي قابوس بعد أن أوعده هذا وهدده فكان النابغة يمدحه ليسترد مودته ، وليحافظ على نفسه منه ، وكالصداقة والمودة القائمة بينه وبين أمراء غسان . ويلاحظ في مدح النابغة للملوك الغساسنة والمناذرة ما يلي :

١ ـ أنه ظل محتفظاً بطابعه البدوي رغم أنه قيل في بيئة حضرية ولم تظهر المعاني والالفاظ الحضرية الا في نطاق محدود كما في بائيته في مدح الغساسنة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب (١)

تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الاضريج فوق المشاجب (٢)

وقد ظل هيكل قصائد المدح بدوياً ، اذ تبدأ بالغزل وبالوقوف

---

١ ـ طيب حجزاتهم : كناية عن عفتهم ، الحجزة : موضع التكة من السروال يوم السباسب : أحد الشعانين .

٢ ـ الاضريج : الخز الاحمر والاصفر .

على الأطلال كما أن الكلمات والتشابيه ومختلف الصور والاخيلة ظلت مستمدة من البيئة البدوية، وقد يكون خير مثال لما ذكرنا الدالية التي مطلعها :

يا دار مية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأمد

٢ ـ **يغدق النابغة على ممدوحيه الصفات التي ترضيهم** ، وهي صفات الرجولة الحقة التي يفتخر بها العربي في كل مكان ، وأهم هذه الصفات : **القوة المتمثلة بالشجاعة** والاقدام وقيادة الجيوش والانتصارات ، ثم الكرم المتمثل بالاعطيات الكثيرة التي لا تعطى على نكد أما الصفات الأخرى كالتعقل والحلم والعدل والصبر... الخ فلا يركز النابغة عليها .

٣ ـ ويعرض النابغة أفكاره المدحية **بأسلوب ذكي** ، **بارع التصوير** فاذا ما أراد أن يصف انتصار الممدوح على أعدائه رسم مشهداً حياً ، ملوناً للغنائم **مركزاً على الجزئيات التي تثير العاطفة** كوصف النساء السبايا في الأبيات التالية :

فآب بأبكار وعون عقائل   أوانس يحميها امرؤ غير زاهد [١]
يخطّطن بالعيدان في كل مقعد   ويخبأن رمان الثدي النواهد
ويضربن بالأيدي وراء براغز   حسان الوجوه كالظباء العواقد [٢]
غرائر لم يلقين بأساء قبلها   لدى ابن الجلاح مايثقن بوافد

٤ ـ **ويحلو للنابغة أن يقارن الممدوح بغيره** ، فيصوره بأنه بذ

---

١ ـ عون : النساء في منتصف العمر . ٢ ـ البراغز ج برغز : ولد البقرة استعارة لأولاد السبايا .

الجميع كرماً وشجاعة وأن باقي الناس يحاولون أن يدركوا فعاله فلا يقدرون .

- فهم الطالبون ليدركوه وما راموا بذلك من مرام
- سبقت الرجال الباهشين الى العلى كسبق الجواد اصطاد قبل الطوارد
- ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الاقوام من أحد

٥ ـ كما يحلو له أن يعرب عن محبته فيلجأ لتفديته بماله ونفسه كقوله :

- ولكن ما أتاك عن ابن هند من الحزم المبيّن والتمام
فداء ما تقلّ النعل منه الى أعلى الذؤابة للهمام
- تخبّ الى النعمان حتى تناله فدى لك من ربّ طريفي وتالدي

٦ ـ أو يعرب الممدوح عن فضله القديم عليه فيذّكر كرمه ، وأعطياته السابقة التي كانت عن طيب خاطر وبدون منّة أو أذى حتى أن ما لدى النابغة من مال هو من عطائه :

- علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب
- أعطى لفارهة حلو توابعها من المواهب لا تعطى على نكد
- وان تلادي ان ذكرت وشكّتي ومهري وما ضمت لدي الانامل
حباؤك والعيس العتاق كأنها هجان المها تحدى عليها الرحائل

٧ ـ وكثيراً ما يتجاوز النابغة في مدحه حدود الواقع ، ويطير بممدوحه الى اقصى ما يكون ، غير أن هذه المبالغة تظل مستحبة مغطاة بجمال التشبيه وروعته كقوله :

- كأنك شمس والنجوم كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

● ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد
الا سليمان . . .

ويؤخذ على النابغة في مدحه ما يلي :

١ ـ **المبالغة الشديدة الى حد المستحيل** ، ومن ذلك حين يصف بأس الغساسنة وشجاعتهم في قصيدته (كليني لهم) يجعل الطيور مدركة ذلك ، بل واثقة من نصرهم لانها تعودته منهم .

٢ ـ **وككل مبالغة ترتفع وترتفع حتى تبلغ القمة ثم تهبط الوادي** ، وقد يكون واديا وعرا مغرقا في الانخفاض يسيء الى تلك المبالغة في الارتفاع ، من ذلك قوله :

اذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا الى الموت إرقال الجمال المصاعب
فهم يتساقون المنية بينهم . . . .

فبعد أن وصف شدة بأسهم واسراعهم الى عدوهم ومخاطرتهم مادحاً اياهم ، اذا بهم يتساقون المنية مع أعدائهم على مستوى واحد .
ومن ذلك أيضاً :

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

ألفاظ البيت ومعانيه الاولى في قوة تناسب المدح : الكلمات مشددة : تقد ، السلوقي ، الصفاح ، والسيوف تخترق الدروع المتينة المضاعفة النسج ، ثم توقد من هذا الاختراق ناراً ، أية نار ؟ نار الحباحب نار حشرة صغيرة لها ضوء تافه لا يكاد يرى .

٣ ـ **البكاء على الممدوح أو المدح بما يشبه الرثاء من ذلك :**

فان يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

وغسك بعده بذناب عيــش أجبّ الظهر ليس له سنـام

وهو مدح أسود يتمثل فيه وفاة الممدوح ولا ندري بأي ذوق كان يستسيغه الشاعر والممدوح معاً .

٤ ـ **الاستطرادات بدون مبرر** ،من ذلك مارأيناه حين أراد أن يشبه النعمان بسليمان كيف استطرد في وصف سليمان :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الاقوام من أحد
الا سليمان اذ قـال الاله له . . . .

٥ ـ **التكسب في المدح وبالتالي التناهي في الذلة وراءه :**

أتوعد عبداً لم يخنك أمانة وتترك عبداً ظالماً وهو ظالع
وأنت ربيـع ينعش الناس سيبه وسيف أعيرته المنية قاطـــع

الوصف

لم يقصر النابغة في الوصف وان كان لم يشتهر به ، ولا نعثر للنابغة على قصائد مستقلة في هذا الفن ، بل نمر به ونحن في طريقنا - في القصيدة الواحدة - الى أغراض القصيدة الاخرى الرئيسية .

وموصوفات النابغة متعددة وكثيرة ، تجمعها صفة واحدة ، هي أنها **محسوسات** فالوصف النفسي محدود ، وابداع النابغة هو في : وصف المرئيات التي شاهدها بنفسه كثيراً من جهة، ووصفها غيره من جهة ثانية ... وهذه الموصوفات هي : الاطلال ، جسم المراة او الوصف الغزلي ، الحيوان وخاصة وسيلة السفر ومشاهداته ، كالناقة وبقر الوحش والحية والليل والمطر ... الخ

وصف الاطلال :

لم يخرج النابغة عن الطريق التي سار عليها الاقدمون من افتتاح قصائدهم بالوقوف على الاطلال ،على الرغم من انه عاش فترة لا بأس بها بعيداً عن الاطلال وهو في بلاطي الغساسنة والمناذرة .

وعلى الرغم من ان وصف الاطلال لا يعبّر عن رأي الشاعر ولا عن عاطفته الخاصة، باعتباره انه **تقليدي بحت**، وعلى الرغم من ان الاطلال الموصوفة هي واحدة في قصائد النابغة وقصائد غيره من شعراء العصر الجاهلي، فقد استطاع النابغة بما اوتيه من فن وبراعة في صياغة الكلام ان يحيل المرئيات الجامدة الى مشاهد حية، ويخلع على الاطلال اثواب الحياة، ففي داليته «يا دار مية بالعلياء فالسند» ما ان يرتفع الستار عن بقايا الديار، وتغمر الموقف مسحة من الكآبة، حتى تعود الحياة الى الاطلال، وتظهر الوليدة تلبد النؤي وتترك للسيل طريقه :

ردّت عليه اقاصيه ولبّده   ضرب الوليدة بالمسحاة فالثأد [1]
خلّت سبيل أتيّ كان يحبسه   ورفّعته الى السجفين فالنضد [2]

ومما يجعل وصف الاطلال حياً طريقة النابغة في ذكر المسميات والآثار، تلك الطريقة التي تمزج بين الوصف وعواطف الشاعر، والذكريات الكثيرة التي تنبعث صاخبة من الطلل الجامد :

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات أخبار
فما وجدت بها شيئاً ألوذ به   الا الثمام والا موقد النار [1]

ثم هناك اشياء ذات اهمية، تتعاون مع بعضها خالقة الحياة والمشاعر في جو الأبيات التي تصف الاطلال نذكر منها :

● **نداء الاطلال** : هذ النداء الطويل (يا دار مية) مع ذكر

---

١ ـ المسحاة : أداة لتسوية التراب ، الثأد : البلل والندى . ٢ ـ الأتي : السيل ، السجفان : ستران رقيقان في مقدم البيت ، النضد : ما نضد من متاع البيت .
٣ ـ الثمام : نبت دقيق .

اسماء الامكنة وارتباطها بالذكريات ثم المرور بفترة صمت لا جواب فيها ، والانتقال بعدها من الخطاب الى الغـــائب ،فكأن الشاعر يعود الى مخاطبة ذاته ، ويسمع صدى نفسه الهامسة : لقد خلت الدار ومضى على خلائها السنون : (اقوت وطال عليها سالف الامد) .

● حسن اختيار الوقوف عليها فتتطابق نفسية الشاعر مع الجو العام كقوله : وقفت فيها اصيلانا اسائلها ...

● حسن انتقاء الالفاظ ذات الجرس المعبر ك : اقوت في الدلالة على الفراغ ..ولبّده ، في الدلالة على تلبيد التراب .

وصف المرأة :

والنابغة في وصفه المرأة ، كغيره من شعراء عصره ، يقسم جسم المرأة الى اعضاء، ثم يختار لكل عضو التشبيه الملائم ، وعودة واحدة الى قصيدته في المتجردة توضح لنا هـــذه الحقيقة وخاصة حين نصل الى قوله :

والبطن ذو عكن لطيف طيّه والاتب تنفجه بثدي مقعدِ [1]
مخطوطة المتنين غير مفاضةٍ ريّا الروادف بضّة المتجرّدِ [2]

يغطي هـــذه الناحية الضعيفة من شعر النابغة الصفات الجمالية الكثيرة المبثوثة فيه ومنها :

● حسن استخدام التشبيه وجماله ولطفه ودلالته على النعومة والرفاه

---

١ – عكن : لحم البطن ، تنفجه : ترفعه . ٢ – بضة : رخصة رطبة .

كقولة في وصف الكف والأصابع : . . .

بمخضّب رخص كأنّ بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد[1]

وفي وصف أسنانها :

كالأقحوان غداة غبّ سمائه جفّت أعاليـه وأسفله ندي

● **رقة الألفاظ وجرسها العذب ورشاقة البحر :**

أخذ العذارى عقدها فنظمنه من لؤلؤ متتابع متسرّد

● **الظلال النفسيه** المنتشرة في أبيـات الوصف الغزلي كما سبق أن مرّ معنا في تحدثنا عن الغزل لدى النابغة .

وصف الحيوان :

وصف النابغه **ناقته** في مواضع كثيرة من شعره ، ولم لا وهي أنيسه في الصحراء وحاملته الى مقصده في أسفاره المتعددة .

ويغمر النابغة **ناقته** بأوصاف القوة ، والشدة ، وسرعة السير ، والصبر عليه ويشبهها - **وأكثر ما يشبهها - بالثور الوحشي** ، الذي يلاحقه البرد والمطر ، والخوف من الصياد والكلاب ، والجوع ؛ الثور الوحشي النحيل ، السريع العدو ، ويستطرد النابغة في الوصف ويظل يزيد الثور سرعة حتى ينسى القارىء أنّ الشاعر يريد وصف الناقة ، بل **سرعان ما يعقد قصة صراع بين الثور الوحشي والكلاب** فاذا ما انتهت القصة أطلّ علينا النابغة ليقول :

---

١ - بمخضب : أي بكف حمراء ، العنم : نبات لين الاغصان .

فذاك شبه قلوصي إذ أضرّ بها

طول السّرى والسرى من بعد اسفار[1]

ووصف النابغة فيما وصفه ، **الطير** فأغدق عليها صفات التعقّل واليقين بقوله :

اذا ماغزوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

جوانح قد أيقنّ أنّ قبيله اذا ما التقى الجيشان أوّل غالب

ووصف **الحية** بأبيات قليلة معبرة مطلعها :

صلّ صفاً لا تنطوي من القصر[2]

بعد كل ما سبق نستطيع أن نوجز الملامح العامة لوصف النابغة بما يأتي :

١ - يظهر في الوصف بوضوح تام أثر البيئة البدوية، باعتبار أن الموصوفات هي موصوفات بدوية (الاطلال - بقر الوحش - الناقة - الحية) كما ان الصفات والتشابيه والأخيلة كلها مستمدة من البيئة البدوية .

٢ - لايظهر أثر حضارتي المناذرة والغساسنه في شعر الوصف الا ضمن حدود ضيقة .

٣ - يلجأ النابغة **لتوضيح جوانب الموصوف** الى أساليب متعددة منها :

أ - الالحاح على الموصوف الواحد بمجموعة صفات متلاحقة كقوله

---

١ - القلوص : الناقة . ٢ - الصل : الحية ، الصفا : الصخر .

في وصف بقر الوحش .

كأن رحلي وقد زال النهار بنا بذي الجليل على مستأنس وحد [1]
من وحش وجرة موشي أكارعه طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد [2]

ب ـ **عدم ذكر الموصوف والاكتفاء عنه بصفته** كقوله :

الا الأواريّ لأياً ما أبيّنها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

والمظلومة الجلد هي صفة للأرض التي حذفت .

أو قوله :

بمخضّب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

فمخضب رخص صفتان للكف المحذوفة .

جـ ـ **ايضاح الصفة المطلوبة بالقصة** : وفي القصة لنا بعض التفصيل :
فقد مرّ معنا أن النابغة حين أراد وصف سرعة ناقته المتناهية رسم لنا قصة الثور الوحشي في صراعه مع الكلاب في جو ماطر عاصف وكذلك نعثر في داليته (المعلقة) على قصص **أخرى متنوعة** منها :

قصة **سليمان** ، **وقصة زرقاء اليمامة** ، **والفرات** ، . . . ونعثر أيضاً كما في باقي شعره على قصص أخرى أشهرها **قصة الحية والأخوين**

كما لقيت ذات الصفا من حليفها
وما انفكّت الامثال في الناس سائرة [3]

---

١ ـ زال النهار : انتصف ، المستأنس : الثور الذي أحس بوجود انسان ، وحد : منفرد . ٢ ـ موشي أكارعه : أبيض في قوائمه نقط سوداء ، طاوي : ضامر ، المصير : الامعاء ، السيف الصيقل : اللامع ، الفرد : الذي لا مثيل له .
٣ ـ ذات الصفا : الحية .

وتختلف هذه القصص جميعها من حيث الطول والقصر فبعضها تشكل مشهداً عابراً بسيطاً ، وبعضها تشكل وقائع متلاحقة تطغى على الموضوع الأصلي فينسى قارى الشعر الغرض الصحيح من القصيدة ،هل هو القصة أم شيء آخر غيرها، ولكن جميع القصص تلتقي في الملاحظات التالية :

– أنها ليست من ابتكار النابغة وابداعه بل هي موجودة قبله وقد استشهد فيها غيره، خاصة صراع الثور الوحشي مع الكلاب .

– أنها مستمدة من الواقع البدوي بتمامه : من الأساطير السائدة في العصر الجاهلي ومن الحياة الدينة العامة ومن الحياة العادية البدوية .

٤ – الاهتمام بالعناصر الحركية الموصوف كقوله في وصف الفرات :

فما الفرات اذا هبّ الرياح له ترمي أواذيّه العبرين بالزبد
يمدّه كلّ واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد
يظلّ من خوفه الملاّح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد

٥ – الاهتمام بالالوان : في حدود ضيقة كقوله : في حالك اللون . . . بمخضب رخص . . . من وحش وجرة موشي أكارعه .

٦ – للنابغة خيال خصب يظهر في تشابيه واستعارات وكنايات جميلة رائعة ، منها قوله في وصف الخيل :

والخيل تمزع غرباً في أعنتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد[1]

وفي وصف الليل وهمومه :

كليني لهمٍ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب[2]

تطاول حتى قلت ليس بمنجل وليس الذي يرعى النجوم بآيب

أو قوله في صراع الثور الوحشي والكلب :

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها شك المبيطر اذ يشفي من العضد[3]

كأنه خارجاً من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد[4]

---

١ ـ تمزع : تمر سريعاً ، غرباً : حدة ونشاطاً . ٢ ـ ناصب : متعب . ٣ ـ الفريصة من الكتف للخاصرة ، المدرى : القرن . ٤ ـ مفتأد : موضع النار .

الهجـاء

للنابغة قصائد مستقلة ، أو أبيات في قصائد قالها في الهجاء وتناول فيها : أشخاصاً فرادى ، أو جماعات وقبائل معينة .

والدوافع الى هذا الهجاء على نوعين :

الأولى : **دوافع شخصية ، كهجائه بني قويع** الذين أوقعوا بينه وبين النعمان ملك الحيرة ، فقال فيهم :

لعمري وما عمري عليّ بهيّن لقــد نطقت بطلاً على الاقارع
أقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادع

أو كهجائه النعمان في روايـة مشكوك فيها بقوله :

حدّثوني بني الشقيقة ما يمنع فقعـاً بقرقر أن يزولا
قبّح الله ثم ثنّى بلعن وارث الصائغ الجبان الجهولا

الأبيات . . . .

الثانية : **دوافع قبلية حين يتحدث** النابغة بلسان قبيلته مدافعـاً عن أحلافها منددأ بخصومها :

من ذلك ما قاله النابغة في عامر بن طفيل الذي هجا ذبيان فرد

عليه النابغة : قائلا :

فان يك عامر قـد قال جهلا   فان مظنة الجهـل الشباب

الأبيات . . . .

ومن ذلك قوله في بني عامر :

اذا نزلوا في ضرغد فعتائداً   يغنيهم فيهـا نقيق الضفادع[1]

قعوداً لدى أبياتهم يثمدونها   رمى الله في تلك الانوف الكوانع[2]

ومن ذلك أيضاً **هجاؤه عيينة** صديق عبس، حين سعى لاخراج أسد من حلف ذبيان فهجاه النابغة بقصيدة مطلعها :

غشيت منازلاً بعريتنات   فأعلى الجذع للحي المبن[3]

وعلى كل ، ومهما تنوعت الدوافع ، فاننا **نلمح في هجاء النابغـة السمات التالية** :

١ ـ **قوة العاطفة** : وهـذا عائد بصورة أساسية للدوافع التي سبق ذكرها الملتصقة تمامـاً بواقع الشاعر الشخصي والقبلي ، مما جعل النابغة يهجو بحرارة وعنف معبراً عن عاطفة جياشة .

٢ ـ **البعد عن الفحش والاسفاف اللفظي** : وذلك لان النابغـة رجل متعقل متزن ، يعرف كيف يهجو وكيف يؤلم في هجائه دون اقذاع أو الفاظ بذيئة ، اذ لا تنسجم هـذه ونفسيته الابية العفيفة ومكانته في قومه وغير قومه .

٣ ـ **قوة الربط بين أجزاء القصيدة الواحدة وبين عباراتها .** .

---

١ ـ ضرغد وعتائد : مكانان . ٢ ـ الكوانع : الملتصقة بالوجوه ، رمى الله في تلك الوجوه : أي جدعها . ٣ ـ عريتنات واعلى الجزع : مكانان .

٣ ـ المبن : الساكن في الاماكن المرتفعة ،

٤ ـ **أما طريقة النابغة في الهجاء** فيمكن ان نوضح خطوطها الرئيسية فيما يلي :

أ ـ **التهديد بالشعر** : فالنابغة يدرك قيمة شعره ، وجريانه في في القبائل ، فيهدد به كقوله :

فحسبك ان تهاض بمحكمات يمرّ بها الرويّ على لساني[١]
فقبلك ما هجيت وقاذعوني فما نزر الكلام ولا شجاني[٢]

أو قوله :

ألكني يا عيين اليك قولاً ساهديه اليك ، اليك عنى
قوافي كالسّلام اذا استمرت فليس يردّ مذهبها التظني[٣]

ب ـ **التعيير بالنواحي الخلقية** : كالجهل والغش والكذب وقلة الامانة كقوله :

● فان يك عامر قد قال جهلاً فان مظنّة الجهل الشباب
● لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب
● وكنت أمينه لو لم تخنه ولكن لا أمانة لليماني[٥]

ج ـ **التشبيه بالحيوان** : كقوله :

● كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشن[٦]

---

١ ـ الهيض : الكسر بعد الجبر ٢ ـ نزر : قل ٣ ـ السلام : الحجارة
٤ ـ اليماني : نسبة لليمن ٥ ـ الشن ـ القربة البالية .

تكون نعامة طوراً وطوراً هويٌ الريح تنسج كل فن

● أقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادع

د ـ **التهكم المر كقوله :**

فانك سوف تحلم أو تناهـي اذا ما ماشبت أو شاب الغراب

هـ ـ انتهاج **اسلوب المقارنة** كقوله :

فكن كأبيك أو كأبي براء توافقك الحكومة والصواب

الرثاء

لم يرو للنابغة من المراثي الا القليل الذي لا يكون فكرة صحيحة كاملة عن فن الرثاء لدى النابغة، وكل ما نعثر عليه في ديوانه، **قصيدة قالها في رثاء النعمان بن الحارث الغساني، ثم أبيات متفرقة في أخيه صحار، وفي غدر الزمان بأهله**... واذا عدنا الى قصيدته في رثاء النعمان وجدنا الملاحظات التالية :

١ ـ **بدأت القصيدة بالغزل والوقوف على الأطلال، وهذا قبيح** حتى في العصر الجاهلي، اذ جرت العادة أن يدخل الراثي في غرضه الشعري رأساً دون تمهيد من نسيب أو غيره، ذلك لأن حزنه الشديد على المتوفي، لا يترك له مجالاً للحب ولتذكر الحبيبات (ولو كانت سعدى)

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل ... وكيف تصابي المرء والشيب شامل
وقفت بربع الدار قد غيّر البلى ... معارفها والساريات الهواطل
أسائل عن سعدي وقد مرّ بعدنا ... على عرصات الدار سبع كوامل

٢ ـ فاذا بلغ حزن النابغة على سعدى وعلى أطلال سعدى حدّه

سلّى نفسه **بوصف ناقته** :

فسلّيت ما عندي بروحة عرمس تخبّ برحلي تارة وتناقل

٣ ـ بعد هذا التمهيد الطويل بالغزل والوقوف على الاطلال وبوصف الناقة، ينتقل النابغة الى غرض قصيدته الاساسي وهو الرثاء، فيذكر الشاعر أولاً أثر المصيبة عليه وفرح الاعداء :

لقد عالني ما سرّها وتقطّعت لروعاتها مني القوى والوسائل

فلا يهنىء الأعداء مصرع ملكهم وما عتقت منه تميم ووائل

ثم يأخذ في مدح المرثي ، ذاكراً شجاعته وعطاياه وفضله على الشاعر :

يسير بها النعمان تغلي قدوره تجيش بأسباب المنايا المراجل

يحث الحداة جالزاً بردائه يقي حاجبيه ما تثير القنابل

وبعد أن يمدحه ويذكر حياته من بعده يأخذ في الدعاء أن يسقي الغيث قبره :

سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم بغيث من الوسميّ قطر ووابل

ولا زال ريحان ومسك وعنبر على منتهاه ديمة ثمّ هاطل

ويختم النابغة قصيدته بنظرة عامة شاملة فاذا الحزن يعم ما حوله : الجولان ، وحوران وغسان ، والاعجمين ، والترك .

بكى حارث الجولان من فقد ربه

وحوران منه موحش متضائل

قعوداً له غسان يرجون أوبه وترك ، ورهط الاعجمين ، وكابل

مما سبق نستطيع أن نقول :

ان النابغة شاعر لم يردنا من رثائه الا القليل ، **ولعل قـلة الرثاء مرجعها عدم تحسس النابغة بالفواجع ، أو لعدم ارتباطه عاطفياً بالملوك الذين ماتوا خلال حياته** وكان هو موضع كرمهم وعطائهم .

على كل فان رثاء النابغة **تقليدي** في كلماته وأفكاره ومعانيه . ويعاب عليه كما سبق أن ذكرنا بدء قصيدة الرثاء بالنسيب والوقوف على الاطلال .

الحكمة

قال النابغة الشعر بعد أن جاوز مرحلة الشباب ، أي بعد أن عركته التجارب في عمره المديد ، وكما مر معنا ، فان حياته مزيج من البداوة والحضارة ، تجمع بينها الأسفار المتعددة ، الامر الذي وسع من أفق اطلاعه وغنّى تجربته ، فاذا أضفنا الى هذا كله ما روي عنه من تعقل ورزانة ، وصلنا الى ماتريدأن نقوله : من أن حياة النابغة التي عاشها ، ونفسيته جعلتامنه الشاعر الحكيم .

والحكم التي وردتنا عن النابغة ، يمكن اجمالها بنوعين :

الأول ـ ما اتخذ سبيل القصة ، أو الأسطورة ، وأراد به العبرة والاقتداء :

من ذلك ضربه المثل بسليمان الذي قاله الاله له :

. . . . . . قم في البريّة فاحددها عن الفند

فمن أطاعك فانفعه بطاعتـــه كما أطاعك وادلله على الرشـــد

ومن عصاك فعاقبه معاقبـــة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

ومن ذلك استشهاده بزرقاء اليمامة :

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمام شراع وارد الثمد

الثاني : ما كان حكمة في ثوب مثل سائر ، وقد تكون بيتا أو جزءاً من بيت :

كقوله : ولا قرار على زأر من الاسد

فان مطيّة الجهل الشباب

فلا يبعدن ان المنيّة موئل وكل امرىء يوماً به الحال زائل

والدار لو كلّمتنا ذات أخبار

والمرء يخلق طوراً بعد أطوار

● وحكمة النابغة مستمدة أكثر ما يكون من البيئة البدوية :

كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع

● كذلك فان أكثر أبيات الحكمة ، جاءت في الاعتبار ، والموت ، ومخافة الله ، وعلاقات الأصدقاء :

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه على شعث أيّ الرجال المهذّب

وليس وراء الله للمرء مذهب

فلا تبعدنْ ان المنيّة موعد وكل امرىء يوماً به الحال زائل

تعصي الاله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في المقال بديع

لو كنت تصدق حبّه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ومن ذلك أيضاً :

من يطلب الدهر تدركه مخالبه والدهر بالوتر ناج غير مطلوب

الابيات ...

واستبق ودّك للصديق ولا تكن قتباً يعضّ بغارب ملحاحا (١)

فالرفق يمن والأناة سعادة فتأنَّ في رفق تنال نجاحاً

١ ـ القتب : الرحل ، الغارب : سنام البعير .

الخصائص العامة لشعره

بعد أن استعرضنا الأغراض الشعرية للنابغة ، يمكننا أن نقف على الخصائص العامة لشعره كما يلي :

١ ـ شعر النابغة تعبير صادق عن شخصيته : ففيه تظهر نفسية الشاعر وعواطفه المختلفة ، من حب ، وخوف وفرح ويأس ، وألم ، وهو ترجمان أمين عن حياته في البداوة ، وفي بلاط المناذرة والغساسنة ، ويكفي أن نستعرض شعر الاعتذاريات ، والسياسة القبلية ، والمدح والهجاء ، لندرك هذه الحقيقة .

٢ ـ وشعر النابغة بالتالي ، تعبير عن البيئة التي عاش فيها الشاعر بدوية كانت أم حضرية :

أ ـ فهو سجل يؤرخ الحياة البدوية ، فيظهر فيه : العصبية القبلية ، والمجتمع الجاهلي وعاداته .. وفيه تعداد للقبائل ، وأسماء زعمائها ، وخصوماتها ، ووقائعها وأيامها ، وعلاقاتها مع الغساسنة والمناذرة ، الأمر الذي يجعل لشعر النابغة قيمة تاريخية كبرى .

ب ـ وعلى الرغم من أن النابغة عاش فترة لا بأس بها في بلاطي

الغساسنة والمناذرة ، **فان شعره ظل مطبوعاً بالطابع البدوي** المتمثل في: ترتيب القصيدة ، وتعدد أغراضها الشعرية ، واستقلال البيت الشعري واستهلال القصيدة بالنسيب وبالوقوف على الاطلال ، وبالاكثار من وصف الحيوانات التي ألفها البدوي كالناقة ، وبقر الوحش .. كذلك فان الطابع البدوي يظهر في استمداد مختلف الفنون البيانية ، من تشابيه واستعارات وصور ، من الواقع البدوي والمجتمع الرعوي القبلي .. ورجعة واحدة الى قصيدة النابغة الدالية (يا دار مية) لنتبين حقيقة كل ما ذكرناه ..

ح - **أما البيئة الحضرية** التي عاشها النابغة في بلاطي الغساسنة والمناذرة ، **فيبدو أنها لم تؤثر في شعره تأثيراً ظاهراً ، الا في نواح محدودة** نذكر منها :

- رقة الألفاظ وحسن اختيارها .

- ظهور بعض كلمات الرفاه والدعة : كالطيب ، والحلي ، والالبسة المختلفة ، ومن ذلك قوله في مدح الغساسنة :

رقاق النعال طيّب حجزاتهم يحيّون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الاضريج فوق المشاجب

أو قوله متغزلاً في المتجردة :

أخذ العذارى عقدها فنظمنه من لؤلؤ متتابع متسرّد

٣ - يتجلى في شعر النابغة ، **جهد عقلي** ، موزع بمهارة ، في متون القصائد وفي ألفاظها ، بحيث لا يحسه القارىء الا اذا قصده ، ويتجلى

هذا الجهد العقلاني في النواحي التالية :

أ - **في أنه شعر مصقول** : ، اهتم صاحبه به ، فشذبه ، وهذبه ، والنابغة وزهير كما يقول الاصمعي : هما من عبيد الشعر ، يشغلان به حواسهما ، وخواطرهما .

ب - **في أنه شعر متناسق** اجمالاً في تحديد غرضه ، ثم في رسم مخطط القصيدة للوصول لهذا الغرض ، ثم في عرض الأفكار والمعاني لتتعاون جميعها في بلوغ الغاية الرئيسية من القصيدة ، وان قصائد الاعتذار وقصائد السياسة القبلية هي أمثال طيبة لهذا التناسق المعبر عن ذكاء الشاعر في الوصول لأغراضه .

ج - **يتجلى في شعر النابغة ، ذكاؤه ودهاؤه** : فهو يرضي السامع قبل أن يرضي عواطفه ، أي أنه يستطيع أن يلون عواطفه وفقاً للجو السياسي العام باعتبار أنه لسان قبيلته أولا ؛ ولسان نفسه ثانية ، كما وأنه يسعى بدهائه للتقرب من الغساسنة والمناذرة ، للحصول على الكسب والعطاء ، ونزداد قناعة بذلك اذا عرفنا أن النابغة ، قد استطاع بشعره وحسن سياسته ، ان يبقي على أحلاف قومه ، ثم استطاع التقرب الى الدولتين العدوتين ، الغساسنة والمناذرة في وقت واحد معاً ، وفي نفس الوقت الذي كانت ذبيان تغير على أطرافهما للسلب والنهب .

٤ - يمتاز شعر النابغة بحسن التنسيق في مضمون القصيدة الواحدة ، وبجودة الارتباط بين أبياتها وتعابيرها :

أ ـ وقد اعتبرت المطالع التالية ، من أجمل ما افتتحت بـــه قصائد الشعر الجاهلي :

- كليني لهمٍّ يا أميمـة ناصب وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب
- دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل
- كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً وهمّين همّاً مستكناً وظاهراً

ب ـ وفي كثير من القصائد ، اعتبر النابغة من الشعراء الذين وفقوا في الخروج من غرض الى غرض في القصيدة الواحـدة ، ومن يقرأ قصيدته العينية (عفا ذو حسا من فرتنى) ،يشعر بما يشبه وحـدة القصيدة ، اذ تتسلسل الأبيات متنقلةً من غرض الى آخر ، بهين وسهولة .

٥ ـ يحسن النابغـة استخدام الألفاظ في مكانهـا ، لتدل على مدلولاتها ، بمعناها ، وبجرسها الموسيقي أيضاً ، مثال ذلك قوله في الهجاء :

كأنك من جمال بني أقيشٍ يقعقع خلف رجليـه بشنٌّ
تكون نعامةٌ طوراً وطوراً هويٌّ الريح تنسج كل فنٍّ

فكلمة أقيش توحي بجرسها قبل معناها بالضعة ، ويقعقع ، تخلق من حروفها القعقعة المطلوبة ، وهوي الريح تمثل بجرسها الريح الهاوية ، ومن ذلك مانجده من كلمات ناعمة طروبة مخمليّة في قصائد الغزل ، ومن كلمات غاضبة في قصائد الهجاء والحرب .

وعلى العموم ، فالنابغة يصيغ قصائده من كلمات مأنوسة سهلة

الفهم ، قريبة المتناول ، قليلة الغريب ، ليس فيها كلمات مستكرهة ، أو بذيئة .

٦ ـ يمتاز النابغـــة بخيال خصب مطاوع ، متصف بالنواحي التالية :

أ ـ **بالغزارة** : فقلما ترد المعاني والأفكار مجردة ، بل نجدهـا مليئة بالصور والألوان .

ب ـ **بالاستشهاد القصصي** : وحسبنا ان نعود الى قصيدته الدالية (يا دارمية) ، لنجد عدداً من القصص : الأسطورية ، والدينية ، والبدوية كقصة الثور الوحشي والكلاب ، وقصة زرقاء اليمامـــة ، وقصة سليمان الحكيم .

جـ ـ **بكثرة التشابيه ، والاستعارات ، والكنايات ، والمجازات ، وهو يستمد عناصرها من المحسوسات المـادية الواقعة تحت بصره** وسمعه ، من حيوانات ، ونباتات ، الأمر الذي يجعلها واضحة مفهومة لدى السامع ، وأقدر على التعبير والتأثير .

د ـ **بالتلاؤم بين عناصر الصورة الواحدة** فهو يحسن اختيار المشبه به الملائم للمشبه مثلاً . .

هـ ـ وكثيراً ما يمعن النابغة **ويلح بمجموعة من التشبيهات على مشبه واحد ، ليكون أكثر وضوحاً** وليحيطه من جميع جوانبه بألوان تظهره وتكمل الصورة المطلوبة .

ولكنه قد لا يكتفي بذلـــك ، **فتراه يترك المشبه الى المشبه به ، في استطراد موفق حيناً ، وغير موفق أحياناً** ، من ذلك حين

يشبه ناقته في سرعتها بالثور الوحشي ، لا يكتفي بعرض سريع له ، بل يستطرد في وصف الثور بتشبيهات ، وأوصاف كثيرة حتى يكاد المرء ينسى الناقة التي كان النابغة بصددها ، والتي هي موضوع الأبيات والمقصودة فيها :

جاوزته بعلنداة مناقلة وعر الطريق على الاحزان مضمار
كأنما الرّحل منها فوق ذي جدد ذب الرّياح الى الأشباح نظّار

الأبيات . . . .

و ـ **حركية الصور** : تمتاز مشاهد النابغة التي يرسمها لنا **بالحيوية والحركة** وهي بعيدة عن **الجمود** ، وحسبنا أن ننظر **وصف الفرات** حين شبّه كرم النعمان به ، لنرى الماء الزاخر ، والجلبة الصوتية ، وبقايا النبات والملاح الخائف :

فما الفرات اذا جاشت غواربه ترمي أواذيّه العبرين بالزبد
يمدّه كلّ واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الاين والنجد

ز ـ ولا ينسى النابغة وهو في عرضه صوره ، **الجزئيات** ، **التي تجعل الصورة غنية بالحياة مليئة بالواقع** .

فهناك **الهمسات الذاتية** ، **والحوار النفسي** :

قالت له النفس اني لا أرى طمعاً وأن مولاك لم يسلم ولم يصد

وهناك **الألوان** وهي قليلة الظهور في الشعر الجاهلي :

فظلّ يعجم أعلى الروق منقبضاً في حالك اللون صدق غير ذي أود

• يصونون أجساداً قديماً نعيمها   بخالصة الأردان خضر المناكب

ح ـ وقـد وفق النابغة في كثير من تشبيهاته ، واستعاراته وكناياته ، واعتبر من الروائع :

ـ الاستعارة في قوله :

• تطاول حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذي يرعى النجوم بآيب

• وصدرٍ أراح الليل عازب همّه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ـ والكناية في قوله :

• كليني لهمّ يا أميمة ناصب   وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

ـ والتشبيه في قوله :

• والخيل تمزع غرباً في أعنتها   كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد

٧ ـ وفي الوصف يعمد النابغـة **الى ايضاح جوانب الموصوف، أو التلميح اليه كأنه معروف واضح .**

أ ـ فهو يلح **على الموصوف الواحد بمجموعة صفات ، تجعله مشبع الجوانب** ، كقوله في وصف الثور الوحشي :

من وحش وجرة، موشيّ أكارعه،   طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

ب ـ **أن يهمل ذكر الموصوف ويجعل الصفة تقوم مقامه** كقوله في وصف الكفّ المخضب :

بمخضّب رخص كأن بنانه   عنم يكاد من اللطافـة يعقد

٨ ـ **يلحظ في شعر النابغة تكرار الموضوع الواحد** ، والغرض الواحد ، في أكثر من موضع وأكثر من قصيدة ، **ولكنه في كل**

مرة يكسو غرضه ثوباً جديداً من المعاني ، فوصف الناقة مكرر ، وكذلك المدح بالكرم والشجاعة ، ومثل ذلك وصف الأطلال ، والثور الوحشي ، والنساء .. وان دلّ هـذا على شيء فانه يدل على شاعرية أصيلة .

٩ ـ **أما النواحي الفنية الأخرى** التي امتاز بها شعر النابغة ، فهي كثيرة نوجز منها ما يلي :

أ ـ **تجاهل العارف في قوله** :

ألمحة من سنا برق رأى بصري أم وجه نعم بدا أم من سنا نار

ب ـ **والالتفات من الخطاب للغائب** في قوله :

يا دار ميـة بالعلياء فالسند أقوت فطال عليها سالف الامد

جـ ـ **وحسن التذييل** في قوله :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أيّ الرجال المهذب

د ـ **وتوكيد المدح بما يشبه الذم في قوله** :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

هـ ـ **وضرب المثل** في قوله : أيّ الرجال المهـذب

أو : والمرء يخلق طوراً بعـد أطوار

و ـ **والمناقضة التهكمية** كقوله :

فانك سوف تحلم أو تناهي اذا ما شبت أو شاب الغراب

ونختم كلمتنا في شعر النابغة فنقول : أنه شعر تتناسب ألفاظه

مع موضوعه ، بعيـــد عن حوشي الكلام ومستهجنه ، خال من المماظلة ، والتعقيد ، والغموض ، طاهر من الألفـاظ البذيئة ، والكلمات المستكرهة ، واضح المعاني ، في عباراته ايجاز لايؤدي الى الغموض ،وفيه أطناب واستطراد أحياناً لايؤدي الى الملل ، ثم أخيراً ،هو شعره متوسط النفـَس ، لانرى فيه قصائد مطولات ،اذ تبلغ القصائد حـــداً معتدلاً من الطول .

عيوب شعره

أوردنا سابقاً ما امتاز به شعر النابغة من جودة وجمال ، وهو يتعلق بأكثر شعره ... وككل شاعر فان للنابغة سقطات ، عابه عليها الاقدمون ، والحديثون ، نورد منها :

١ ـ **الاقواء** وهو اختلاف حركة الروي بين الضم والكسر ، من ذلك في قصيدته :

أمن آل مية رائح أو مغتدِ عجلان ذا زادٍ وغير مزوّدِ

قوله :

● زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغداف الأسودُ

● بمخضّب ، رخص كأن بنانه عنمٌ يكاد من اللطافة يعقدُ

ولم ينتبه النابغة الى هذا العيب ، الا حين دخل المدينة ، وسمع قينة تغني شعره.

٢ ـ **التضمين** : وهو تعلق كلمة الروي ببيت بعدها كقوله :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صادقات شهدن لهم بحسن الظن مني

٣ ـ **المبالغات** وهي أمر شائع في العصر الجاهلي ، فشعراء الجاهلية كلهم ، أو على الاقل معظمهم يبالغون فيما يصفونه ، وقد تقع المبالغة مكروهة كقول النابغة :

جوانح قد أيقنّ أن قبيله اذا ما التقى الجيشان أول غالب

فجعل الطيور موقنة أن الغساسنة هم المنتصرون ، ففيه مبالغة قريبة

من التهكم بالممدوحين .

٣ ـ **التطيّر والتشاؤم في المدح ، أو المدح بما يشبه الرثاء ، كما** مر معنا سابقاً لدى حديثنا عن مآخذ مدحه .

٤ ـ **التكسب بالشعر** والتصريح بطلب الأعطية ، والتذلل الكثير في سبيل ذلك : ولا يحول عطاء اليوم دون غد

٥ ـ **الايطاء** : وهو اعادة كلمة القافية في موضعين من القصيدة الواحدة ، دون فاصل يزيد عن سبعة أبيات من ذلك :

أسائلها وقد سفحت دموعي كأن مفيضهنّ غروب شنّ

وبعد خمسة أبيات نجد :

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشنّ

٦ ـ **ضعف التناسق الكلامي ، وثقل الحروف في بعض أبياته** كقوله :

• ألكني يا عين اليك قولاً ستحمله الرواة اليك عني

• واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمام شراع وارد الثمد

ما أخذه من شعر غيره

هناك أبيات متعددة قيل أن النابغة أخذ معناها من شعراء عصره نذكر منها :

١ ـ **قول النابغة :**

تراهنّ خلف القوم خزراً عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب

من قول امرىء القيس :

كأن ثبيراً في عرانين وبله كبير أناس في بجاد مزمّل

٢ ـ وقول النابغة :

تبدو كواكبه والشمس طالعة لا النور نور، ولا الاظلام اظلام

من قول وهب بن الحرث بن زهرة :

تبدو كواكبه والشمس طالعة يجري على الكأس منه الصاب والمقر

٣ ـ وقول النابغة :

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

من قول رجل من كندة في عمرو بن هند :

هو الشمس وافت يوم دجن فأفضلت على كل ضوء والملوك كواكب

٤ ـ وقوله :

تسقي الضجيع اذا استسقى بذي أشر عذب المذاقة بعد النوم مخمار

كأن مشمولة صرفاً بريقتها من بعد رقدتها أو شهد مشتار

من قول امرىء القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر

تعلّ به برد أنيابها اذا غرّد الطائر المستحر

أو من قول امرىء القيس أيضاً :

اذا ذقت فاها، قلت : طعم مدامة معتّقة مما يجيء به البحر

ما أخذه الشعراء عن النابغة

ذكر رواة الأدب أبياتاً لشعراء كثيرين مأخوذة من شعر النابغة نورد منها :

١ ـ قول الاعشى :

له صدقات ما تغبّ ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا

من قول النابغة :

يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

٢ ـ وقول المثقب العبدي :

فلو أني تخالفني شمـــالي خلافك ، ما وصلت بها يميني

من قول النابغة :

فلو كفي اليمين بغتك خوناً لأفردت اليمين عن الشمال

٣ ـ وقول الكميت :

ولا أكوي الصحاح براتعات بهن العرّ قبلي ماكوينا

من قول النابغة :

لحملتني ذنب امرىء وتركته كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع

٤ ـ وقول الاخطل :

وما الفرات اذا جاشت حوالبه في حافتيه وفي أوساطه العشر

الابيات حتى :

يوماً بأجود منه حين تسأله ولا بأصبر منـــه حين يجتهر

من قول النابغة :

فما الفرات اذا جاشت غواربه ترمي أواذيّه العبرين بالزبد

الابيات حتى قوله :

يوماً بأجود منه سيب نافلة ولايحول عطاء اليوم دون غد

٥ ـ وقول أبي تمام في عمورية :

ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة من ذا ولم تجب

من قول النابغة :

تبدو كواكبه والشمس طالعة لا النور نور ، ولا الاظلام اظلام

المراجع

١ ـ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام لبطرس البستاني
٢ ـ الأغاني لابي الفرج الاصفهاني
٣ ـ الامالي لابي علي القالي
٤ ـ البيان والتبيين لابي عثمان الجاحظ
٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان
٦ ـ تاريخ الشعر السياسي لاحمد الشايب
٧ ـ تطور الغزل للدكتور شكري فيصل
٨ ـ التعازي والمراثي للمبرد
٩ ـ الجواليقي (شرح أدب الكاتب لابي منصور موهوب بن أحمد)
١٠ ـ حديث الاربعاء للدكتور طه حسين
١١ ـ خزانة الادب لعبد القادر البغدادي
١٢ ـ دراسة الشعراء للوصفي والابياري والشلبي
١٣ ـ ديوان النابغة الذبياني تحقيق وشرح كرم بستاني
١٤ ـ ديوان امرىء القيس دار بيروت ـ دار صادر
١٥ ـ ديوان أوس بن حجر « « ـ « «
١٦ ـ الروائع لكرم بستاني

١٧ ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى لابي العباس ثعلب
١٨ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري
١٩ ـ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي
٢٠ الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف
٢١ ـ في الادب الجاهلي للدكتور طه حسين
٢٢ ـ العصبية القبلية للدكتور احسان النص
٢٣ ـ العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين تحقيق الورت
٢٤ ـ العمدة لابن رشيق القيرواني
٢٥ ـ اللآلي في شرح أمالي القالي لابي عبد الله البكري
٢٦ ـ ما بقي من شعر الشاعر المشهور أوس بن حجر التميمي الجاهلي
جمع رودلف جاير
٢٧ ـ مصادر الادب الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد
٢٨ ـ المعلقات السبع لابي عبد الله الزوزني
٢٩ ـ المفضليات للمفضّل الضبي
٣٠ ـ الموشح لابي عبد الله المرزباني
٣١ ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر
٣٢ ـ النابغة الذبياني لسليم الجندي
٣٣ ـ النابغة الذبياني للدكتور محمد زكي العشماوي
٣٤ ـ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للأب لويس شيخو

الفهرس

تنويـــه

وقعت بعض الأخطـــاء المطبعية التي لاتخفى
على القارىء النبيه فمعذرة

تم بعونه تعالى